ماوراء العالم الجديد

رواية

محمد النحراوي

- ❖ الكتاب: ما وراء العالم الجديد
- ❖ المؤلف:محمد النحراوي
- ❖ تصميم الغلاف: شيماء أبو طالب
- ❖ تنسيق داخلي:حنين علي
- ❖ رقم الايداع: 2691
- ❖ دولي:978-977-6968-02-8

المدير العام: عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com

واتس آب: 01005186476

صفحة الدار على موقع فيس بوك:

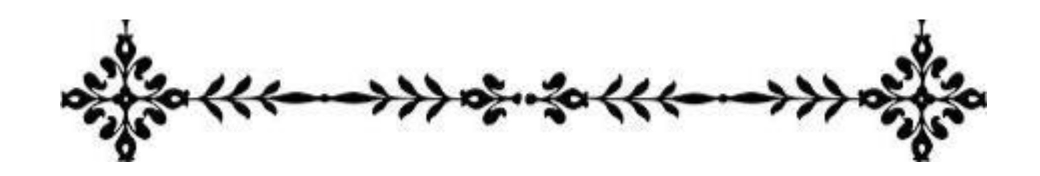




المنتدى للنشر والتوزيع



الفصل الأول



اليوم عيد الإنسانية

تدفقت جموع الشعوب في الثلاث ممالك في منظر مهيب إلى المعامل للحصول على جرعتهم من المصل، المصل الذي بات كالأفيونة التي أسكنت جراحهم وهدَّأت من حدة طباعهم؛ فصاروا مسالمين تمامًا بعدما كانوا من قبل وحوشًا ضاريةً تفتك ببعضها البعض.

وفي هذا اليوم والذي يوافق الأول من حزيران لعام 2169، وعند أحد أكبر معامل توزيع المصل بمملكة (أرابيتا)، والذي يقف شامخًا بين الأطلال وآثار الحروب التي طالت معظم أرجاء المملكة كلوحة سريالية عجيبة. نظر (چواد) إلى الحشود قائلًا بحنقٍ بالغ:

- انظر يا (يوناس)، إنك لا تراهم بتلك الحماسة ولا ذلك الإصرار إلا في هذا اليوم من كل عام لأخذ جرعتهم من المصل، ليعودوا من بعدها إلى سكينتهم المخزية، ولينتشروا كالخراف البائسة، أين ذهب شغفهم بالحياة وطموحهم لعيشةٍ أفضل؟

رد عليه يوناس قائلًا:

- هذه ضريبة يجب تحملها حتى يتسنى لهم الشفاء.

قال چواد غاضبًا:

- ولكن إلى متى، ثلاث سنواتٍ يتناولون هذا المصل، ألم يشفوا بعد؟

ألم يحن الوقت لإيقافه والبدء في إعادة بناء المملكة وإحياء ترسانتها الحربية؟

نظر له يوناس دون أن يعقب بشيء.

فقال چواد في نفسه وكأنه يرد على أسئلته التي أغفل صاحبه الرد عليها:

- اليوم هو آخر عهدهم بعيد الإنسانية، وفي العام القادم لن يكون هناك عيد ولا مصل.

ومضى عازمًا أمره على تحقيق هذا مهما كان الثمن.

***

وتبدلت الأرض غير الأرض

بدأ كل شيء، أو بالأحرى انتهى كل شيء عام 2084، عندما وصل منحنى الاختلال في التوازن البيئي إلى قمته؛ نتيجة للسلوكيات البشرية المجحفة تجاه الطبيعة؛ مما أدى إلى جفاف معظم الأنهار، وارتفاع تكلفة التحلية لمياه البحار بسبب تشبعها بمواد شديدة التلوث، أدى ذلك في النهاية إلى حدوث ندرة كبيرة في المياه الصالحة للشرب والزراعة، ونفوق أعدادٍ هائلةٍ من الحيوانات والطيور؛ حتى إن النحل اختفى من أغلب الأراضي المعمورة، ولم يعد له وجود فعلي إلا في الجبال والأماكن البعيدة النائية.

وبذلك استفحلت المجاعات في شتى أرجاء العالم؛ مما أدى إلى اشتعال حروبٍ داميةٍ على مصادر الحياة الأساسية استمرت لنصف قرن من الزمان، نشأت على إثرها تحالفاتٍ عدةٍ افترست بعضها البعض بضراوة، فتقلصت أعداد البشر بصورة كبيرة، وانتهى شكل

العالم الذي نعرفه الآن وتشكلت خريطته من جديد، لتظهر بها ثلاث ممالك رئيسية، وبعض الدويلات الصغيرة التي نشأت على أطراف هذا العالم الجديد.

تلك الممالك هي: (أورشاليا) في الشمال، و(أرابيتا) في الشرق، و(كروسلاند) في الغرب. بدأت تلك الممالك عهود حكمها في وفاق؛ لا سيما وقد بدأ النظام البيئي حينها في التعافي نوعًا ما.

ظلت الأحوال هادئةً لمدة تربو عن العقدين، حتى اشتعلت الحرب بين ممالك العالم الجديد أيضًا، حرب شعواء راح ضحيتها عشرات الآلاف من أفراد الشعوب تحت ثقل معاول الهدم، والتي حملتها هجمات عنيفة من كل طرف على الآخر امتدت لاثني عشر عامًا، لم يجبرها على التوقف سوى تدني حال الترسانة الحربية للممالك الثلاث وتدهور بنياتها الأساسية.

ليخيم الموت بظلاله على العالم الجديد أيضًا، فتتحول أغلب مناطق الممالك إلى أطلال كئيبة ألقت بظلالها على الشعوب، التي أضحت ككائناتٍ بلا هويةٍ قادها صدى العنف الدائر، وشلالات الدماء المنهمرة، وندرة وسائل المعيشة الأساسية، إلى أن فقدت إنسانيتها وتحضرها تمامًا، فأعاد ذلك للبشرية ذكرى حروب العالم القديم؛ مما استدعى حاكم مملكة أرابيتا للتدخل مرة أخرى، بعد فشل محادثات السلام بينه وبين حاكمي أورشاليا وكروسلاند في المرة الأولى، على إثر حادثة الاغتيال التي دبرت لأحد أهم قادة الجيش لديه، وذلك قبل ثلاث سنوات، فانتهز الوضع الهادئ نسبيًا نتيجةً لنقص عدة وعتاد الحرب بشكل كبير لدى الممالك الثلاث، وسارع بالتحرك لإنهاء الحالة العدائية بينهم تمامًا، والعمل على إيجاد حل جذري لتلك الفوضى التي باتت جزءًا من حياة الشعوب، وواقعًا يتجرعون مرارته يومًا بعد يوم.

وبالفعل وبالرغم من معارضة مجموعة من قادة الجيش في المملكة، نجح حاكم أرابيتا في إقناع حاكمي مملكتي أورشاليا وكروسلاند بعقد معاهدة سلام، بعدما تعهد بإيقاف كل

الأنشطة العسكرية المعادية لهما، وتجميد عمل المصانع الحربية، والمضي قدمًا نحو توجيه كافة السبل لعلاج ما أفسدته الحرب، وما خلفته ويلاتها من آثار رهيبة في نفوس شعوب الممالك.

وقبل انتهاء الربع الثاني من عام 2166، أي بعد بضعة أشهر من عقد المعاهدة وفي حاكم أرابيتا بتعهده؛ فقد تمكن علماؤه من ابتكار تركيبةٍ كيمائيةٍ تقلل من دوافع الجريمة والعنف لدى الإنسان، وبالفعل نجحوا في توفيرها كمصل.

وتم الاتفاق بين حكام الممالك على توزيع المصل على الناس في الأول من حزيران من نفس العام، والذي بات بعد ذلك عيدًا أطلق عليه اسم (عيد الإنسانية).

وبدأت الأمور تتخذ مسارًا مغايرًا عما كان، فلم تعد للشعوب أية دوافع للعنف وعمت حالة عجيبة من السكينة لديهم.

ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

***

المصل

كان قد تم استثناء بعض الفئات من تناول المصل، كأفراد الجيش والعلماء والمفكرين وغيرهم ممن تعول الممالك على يقظتهم العقلية والبدنية وكفاءتهم العلمية في إدارة شئونها؛ حيث أوصى بذلك العلماء المبتكرين له تحسبًا لأية آثار جانبيةٍ خاصةٍ وأنه يعد تحت التجريب، والحكم النهائي على نتائجه يحتاج عدة سنوات.

ولكن الأمر لم يتطلب تلك السنوات لاكتشاف آثار المصل السلبية التي سريعًا ما ظهرت جليةً خلال العام الأول له، فبالرغم من توقف الجرائم وانتهاء حالات العنف والسرقة بين أفراد الشعوب؛ إلا إن حالة السكينة تلك التي أمدهم بها المصل تطورت إلى حالةٍ عامةٍ من

اللامبالاة والكسل بشكل ملحوظ، فتجنبوا جميع الأعمال الشاقة وباتت حياتهم واحتياجاتهم بسيطة تدور حول الزراعة وتربية المواشي وبعض الصناعات الخفيفة، كأنها ارتدادةٌ حضاريةٌ أو لعل هذا بات سبيلهم لإبعاد شبح الحرب عنهم، شبح الحرب الذي يتغذى وينمو على الطمع والرغبة في المزيد دومًا دون إشباع.

***

وكان چواد هو أول المعترضين على تناول هذا المصل في مملكة أرابيتا،
ولكنه لم يكن الوحيد الذي أراد تغيير هذا الوضع؛ فقد تبعه بعد ذلك كثيرٌ من العلماء والمفكرين الذين أيدوه في مسعاه رغم اختلاف المنطلقات، وأعلنوا رفضهم التام للمصل لما لامسوه من تغيرات مريبة في سلوك الأفراد.
فنظموا عدة لقاءات مع حاكم أرابيتا احتجوا فيها على الوضع، ونددوا بفكرة المصل من أساسها، مؤكدين على أن ما يحدث ضد الطبيعة الإنسانية وأنه سيئول حتمًا لكارثة.
لكن حاكم أرابيتا لم يرضخ لمطالب هؤلاء ورفض رفضًا قاطعًا أن يتوقف المصل،
كما لم يقبل أيضًا بتدخلات چواد.
حتى عندما حدثه الأخير عن مخاوفه من تسرب المصل إلى الجنود، وعن حالة الكساد المنتشرة في المملكة وتدهور الاقتصاد والصناعات الثقيلة، ظل حاكم أرابيتا مصرًا على رأيه؛ خاصة في ظل معاهدة السلام التي عقدها مع مملكتي أورشاليا وكروسلاند.
وباءت كل مساعي چواد لإيقاف المصل طوال ثلاث سنوات بالفشل،
ولكنه لم يرض به نتيجة؛ فقرر في آخر الأمر أن يتخلص من الحاكم نفسه.

***

چواد

كان چواد في منتصف عقده الخامس، طويل القامة، في وجهه لمحة من الوسامة لم تستطع أن تحجبها تلك الحروق التي شوهت جزءًا من خده الأيمن،

تميل بشرته إلى البياض، وتحمل عيناه السوداوان بريقًا غريبًا يوحي بغموضٍ شديدٍ في شخصيته تارة، وتارةً أخرى تُرى من خلف هذا البريق قسوةً وشرٌ تكاد تنطق بهما عيناه، وبالرغم من أنه لم يكن يتحلى بقدر كبير من الذكاء؛ إلا إنه كان يحسن جيدًا استغلال من حوله ودفعهم دفعًا نحو تحقيق مآربه.

وكان قد صعد إلى مرتبةٍ كبيرةٍ في الجيش في زمن قياسي؛ فقد أدت ظروف الحرب الطاحنة ومقتل كثيرٍ من القادة إلى حدوث اختلالٍ في هيكل الجيش، مما ساعده على الترقي سريعًا رغم صغر سنه، ليصبح واحدًا من أهم قادة الجيش في أرابيتا إبّان الحرب الدائرة بين الثلاث ممالك.

وبفضل جرأته وما كان يتمتع به من شخصيةٍ مثابرة، فقد ساهم بقوة في لم شمل الجيش وتوحيد صفوفه في أحلك أوقات الحرب، مما مكنه من كسب ثقة أغلب أفراد الجيش وقادته، ما عدا قلة منهم، على رأسهم (يحيى) قائد الحرس الملكي، والذي لم يكن عنده شك بأن چواد هو السبب الرئيسي في إشعال شرارة الحرب بين الثلاث ممالك وتوجيه دفتها بعنف نحو طريق اللاعودة.

حدث ذلك عام 2154، وكان چواد حينها في أواخر عقده الثالث رائدًا بالجيش، وقد اشتهر بولعه الشديد بالحرب. ولأنه كان مقربًا من قادته، فقد استطاع إقناعهم بتجربة نوع من القنابل كانت مملكة أرابيتا متفوقةً في ابتكاره.

يقال إنه آنذاك تعمد الخطأ خلال التجربة، فتخطى تأثير القنبلة حدود المنطقة المحايدة بين الممالك الثلاث، فسقطت عدة ضحايا من مملكتي أورشاليا وكروسلاند؛ مما أشعل غضب حاكميها وأجبرهما على السير في نفس الطريق المظلم الذي خطط له من البداية.

ورغم أن چواد استخدم كل نفوذه وسطوته لاحقًا لطمس تلك الحقيقة وتحسين صورته بين أفراد الجيش وقادته؛ إلا أنه لم ينجح في ذلك تمامًا،

فقد ظل يحيى وجبهته مترقبين له ولنواياه الدفينة في إعادة تشغيل آلة الحرب مرة أخرى، لأنهم واثقون من أن تعطشه للدماء لم ينتهِ بعد؛ خاصة في وجود دافع للانتقام،

الانتقام لزوجته التي راحت ضحيةً لمحاولة اغتيال دُبرت له أثناء الحرب،

فقد جاءت تلك الحادثة لتعيد چواد إلى سابق عهده، بل إلى أسوأ بكثير.

فبعدما استطاعت زوجته بحبها أن تبدل حياته وتغير كثيرًا من طباعه، لا سيما بعدما حظيا بابنتهما (ريتال)، فبدأ حينها چواد يجنح إلى السلم جديًا بعد تسعة أعوام من الحرب.

ويا لسخرية القدر، فقد كان ينوي الموافقة على فكرة الهدنة التي طرحها حاكم مملكة أرابيتا في نفس اليوم الذي دُبر له فيه هذا الحادث المأساوي.

ولكن سبق السيف العزل؛ فقد انفجرت سيارته التي سبق تفخيخها لحظة اقترابه منها، ليصاب هو بحروق خلفت آثارًا عميقة في عدة أجزاء من جسده، بينما أصيبت زوجته التي كانت تنتظره في السيارة بجروح خطيرة، ماتت على إثرها بعد معاناةٍ شديدةٍ استمرت لعدة أيام، تاركة چواد يجتر همومه، ويعيش في وَحشة لا يؤنسها سوى ابنته الصغيرة، التي عزم أمره على الأخذ بالثأر لأمها من حاكمي مملكتي أورشاليا وكروسلاند.

ورغم توقف الحرب بعد تلك الحادثة بثلاث سنوات، وعقد معاهدة سلام بين الممالك عززها ورسخ قوائمها ظهور المصل؛ إلا إن چواد لا يزال يأمل في تحقيق رغبته في الانتقام.

لذا فقد كان يحيى يحذر الحاكم منه كلما سنحت الفرصة.
ولكن حاكم أرابيتا كان يفضل بقاء چواد قريبًا منه نظرًا لما له من ثقل ومكانه بين أفراد الجيش، وذلك ليضمن بقاء الجيش كتلةً واحدةً دون حدوث أية انشقاقاتٍ قد تعرض استقرار المملكة للخطر.

***

وفي الخفاء وبعيدًا عن أروقة الحكم اجتمع چواد بقادة الجيش الذين يدينون له بالولاء التام.
وبدأ چواد بالتحدث قائلًا:
- إن الوقت يداهمنا والشعب قد وصل لمنعطف خطير، والحاكم لا يهمه أي شيء سوى بقاء حالة السكينة تلك، وأنا على يقين من أن تحالف مملكتي أورشاليا وكروسلاند لا يزال يعمل سرًا، وأنهما ينتظران الفرصة المناسبة للانقضاض علينا، لذا لا بد من تغيير تلك الحالة السلبية للشعب لإعادة تشغيل مصانعنا الحربية تحسبًا لأية بادرة غدرٍ منهما.
وهنا تدخل أحد القادة قائلًا:
- وكيف سنقنع الحاكم بهذا؟
فقال چواد:
- لن نقنعه. سنسيطر على الحكم، وإن لزم الأمر سنتخلص منه.
صاح يوناس قائلًا:
- ما هذا، إلى أين تذهب بنا يا چواد، ومن أين لك بشكوكك تلك التي تزعمها بحق مملكتي أورشاليا وكروسلاند؟
فقال له چواد منفعلًا:
- أنت الوحيد الذي يجب أن يفهمني، أنسيت ما فعلوه بشقيقتك وكيف غدروا بنا؟

وهنا تحدث يوناس برويةٍ محاولًا تهدئته فقال:

- لم أنسَ ولكن يجب أن تعرف أن أيام الحرب تلك قد ولَّت، ولا بد أن نتدارك هذه اللحظات الأليمة والذكريات المفجعة كي لا تقتل ما بقي فينا من إنسانية وتعقل.

فقال له چواد وقد بدا على سحنته القلق:

- أهذا موقفك الأخير يا يوناس، ستقف ضدي، والآن؟

أجابه يوناس قائلًا:

- لا يا چواد، أنت بمثابة أخي ولطالما حمينا بعضنا وسنظل كذلك، ولكنني أرى أن تتمهل فيما تسعى إليه وتحسب له جيدًا.

رد چواد قائلًا بحسم:

- لقد عزمت الأمر.

ثم أكمل متجاهلا كل ما ألقاه صهره على مسامعه فقال:

- سوف نقوم ليلة غدٍ بمحاصرة الحاكم في قصره، وسيكون على كل منكم أن يهيئ أفراد كتيبته لهذا الأمر.

سنحاصره ونطالبه بالتنحي، ولو لم يرضخ لنا سنضطر حينها للتخلص منه ومن كل من يقف في جبهته.

وسيعمل رجالنا في كل المنصات الإعلامية على توضيح وتبيان خطورة المصل الذي جعلهم يعيشون حلمًا ورديًا كاذبًا.

ثم التفت ناحية يوناس منهيًا حديثه فقال:

- إن السلام الذي يبنى على الوهم ليس سوى كابوسٍ خطير ولا بد أن نفيق منه.

***

يوناس

كان يونـاس في أوائل الأربعينات، طويل القامة، يمتلك جسدًا رياضيًا، ذا بشرةٍ بيضاءَ ولـه وجه بيضاوي وأنف صغير، وعيونٌ عسليةٌ واسعةٌ جميلة، وشعرٌ بنـيٌ ناعمٌ يعتنـي بـه بشكلٍ لافتٍ ويحب دومًا إطالته.

وكان على عكس صهره چواد؛ فقد كان يتمتع بالحكمة ويستمع لصوت العقل دائمًا، وكان يحترم الحاكم ويدين له بالولاء الشديد، رغم أنه لم يكن يُظهر ذلك في أحيانٍ كثيرة؛ خاصة أمام چواد.

وكانت تجمعه صداقةٌ غير معلنةٍ بيحيى قائد الحرس.

لذا وفي صباح اليوم التالي وقبل التنفيذ بساعات، وبعدما اطمأن من نجاحه في تخطي أعين چواد وجواسيسه، سارع بمقابلته وأطلعه على خطة الأخير، ثم نصحه قائلًا:

- أخشى عليك يا يحيى مما يدبره چواد؛ فهو لن يتوانى عن قتل كل المحيطين بالحاكم، وأنت تعلم أن معظم قادة الجيش بكتائبهم تحت طوعه وأنه سيحقق مأربه لا محالة، لذا أرجو منك أن تهرب بعائلتك الآن.

رد عليه يحيى قائلًا:

- لم أكن يومًا جبانًا يا يونـاس، وسوف أحمي الحاكم مهما حدث، كما أقسمت يوم تولـي مهمتي كقائدٍ للحرس.

ثم أردف قائلًا:

- فلتكن معنا يا يونـاس ولتضم كتيبتك لجبهة الدفاع عن الحاكم.

قال له يونـاس:

- قَدَري يحتم عليَّ أن أكون في الجانب الآخر، فكما تعلم فقد أوصتني أختي قبل وفاتها بعدم مفارقة ابنتها الصغيرة، وفي النهاية چواد سيحقق مبتغاه لا شك سواءً بي أو بدونـي، ولو شعر بعدم ولائي له فلن تمنعه قرابتنا من التخلص مني، ولا أعلم إلى أين سيئول مصير الطفلة بعدها.

ثم أردف قائلًا:

- إن چواد بات مهووسًا بالثأر ومتعطشًا للدماء بشكلٍ جنونيٍ للغاية، ولن أترك الطفلة وحيدة لتتربى في كنف رجلٍ مثله.

قال له يحيى:

- حسنًا، أنا سأبقى لآخر نفس بجانب حاكمنا، وأتمنى ألا نتقابل الليلة، فواجبي تجاه هذه المملكة أقوى من صداقتي لك يا يوناس.

نظر له يوناس حزينًا على ما آلت إليه الأمور، ثم ما لبث أن تحدث قائلًا قبل أن يغادر:

- من الأفضل ألا يظل أفراد عائلتك هنا، لتقم بإرسالهم مع من تثق بهم من رجالك إلى أطراف المملكة، وداعًا يا صديقي.

ومضي يوناس تاركًا يحيى يحاول استيعاب الأمر الذي بات وشيكًا.

***

الهروب

وفي تلك الليلة كان يحيى -وقد بدأ يقتنع بكلام يوناس- يحاول جاهدًا أن يقنع الحاكم بالهرب، إلا إن الحاكم رفض رفضًا قاطعًا، وأصر على مواجهة الأمر.

وعندما بدأ الهجوم على القصر دافع يحيى وجنوده عن الحاكم بكل إخلاص، ولقوا حتفهم جميعًا في ليلة مأساوية امتلأت فيها أروقة القصر وأرجاؤه المحيطة بالدماء النقية الطاهرة لأبطالٍ أوفياء.

وكان يحيى قد عمل بنصيحة صديقه يوناس بإبعاد عائلته قبل هجوم چواد بوقت قليل.

واختار من يثق بهم من رجاله وأوصاهم أن يهربوا بعائلته إلى مكانٍ بعيدٍ على حدود المملكة كي لا تصل إليهم أيدي چواد وجنوده.

وبالفعل، وفي تلك الليلة وأثناء ما كانت الدماء تسيل بحورًا في القصر، كانت عائلة يحيى في طريقها للهرب.

وأثناء ذلك كان (يزن) ابن يحيى يحاول أن يستفسر من جنود أبيه عن سبب هروبهم بتلك الطريقة، وظل يلح في أسئلته حتى تم إطلاعه على ما يحدث وما تواجهه المملكة، فأصر على أن يعود ليقف بجوار أبيه، ولكنهم أقنعوه بعدم جدوى ذلك.

ومضوا في طريقهم بأقصى سرعةٍ مبتعدين عن المدينة وقد ترسخ في قلوبهم حزنٌ عميق.

وفي صباح اليوم التالي وصلت الأخبار إلى يزن ورجال أبيه؛ فقد أذاعت كل القنوات ووسائل الإعلام الخبر على أنه انتصار كبير للحرية وعودة للوعي.

وانتشرت الألسنة على أجهزة البث تتحدث للشعب عن كيف أن چواد ومن معه من قادة ومفكرين هم طوق النجاة الذي أنقذ الشعب من الغرق في الوهم الذي ابتدعه هذا الحاكم وأعوانه، مؤكدين على ضرورة العودة للعمل الجاد والسير على الطريق الصحيح نحو التنمية والبناء.

وحينها نما في أعماق يزن ورجال أبيه شعورٌ بالغضب الشديد، وتعاهدوا على أن يهبوا حياتهم في سبيل تحرير المملكة من أيدي چواد.

***

لعنة المصل

كان چواد قد اختار توقيتًا مناسبًا تمامًا؛ حيث إنه استولى على الحكم قبل عيد الإنسانية بشهر، أي إنه قد مر أحد عشر شهرًا على تناول جرعة المصل الأخيرة، وبالتالي فقد كان المصل في هذا الوقت في أدنى درجات تأثيره، وبهذا ومع التوقف عن تناول الشعب له مرة أخرى في العيد القادم، اعتقد چواد أن الأمور ستعود لطبيعتها في أقرب وقت.

ولكن هذا لم يحدث، ولم تفلح كل مساعي چواد في إعادة تشغيل المصانع الحربية؛ حيث إن الناس قد ألفوا الحياة البسيطة ولم تعد لهم أية رغبة في العمل الشاق، رغم تخلصهم من تأثير المصل تمامًا.

لتظل لعنة المصل تطارده أيامًا، وتؤرق مضجعه ليالي كثيرة.

فكان لا يفتأ يفتش بإلحاح في دهاليز ذهنه نهارًا، ولا ينفك يناجي سريرته في الأحلام ليلًا لإيجاد حل لتلك المعضلة.

حتى تفتقت قريحته عن فكرةٍ عجيبة، بل هي فكرةٌ جهنميةٌ وخطيرة جدًّا.

فقال في نفسه ذات يوم: "إذا كان العلماء قد استطاعوا أن يبتكروا مصلًا يجعل الناس تجنح للسكينة بإرادتها، فلماذا لا يعدِّلونه حتى يعمل على سلب إرادتهم تمامًا؟".

فأحضر مجموعةً من علماء المملكة ممن ساهموا في ابتكار المصل الأول وعرض عليهم فكرته تلك.

رفض أغلبهم التعاون معه في هذا العمل المشين، فقتلهم على الفور.

وكان من تبقى من تلك المجموعة هم من صفوة علماء المملكة،

وكانوا ثلاثة.

(آدم)، و(روهان)، و(ساري).

وآدم هو أكبرهم سنًا، وكان قد تخطى الخامسة والستين، أشيب الشعر تكثر التجاعيد حول الزوايا الخارجية لعينيه بشكل ملحوظ، عينيه اللتان لم يستطع الزمن أن يطفئ لمعة الذكاء التي تطل منهما جلية.

وكان بمثابة الأب والمعلم لروهان وساري، وهو من أشار عليهما بموافقة چواد في مسعاه بشكل مؤقت، ريثما يجدوا حلًا ما لثني عزمه عنه.

***

ثلاثة علماء

اجتمع چواد بالعلماء في قصره للبدء في سماع اقتراحاتهم حول تعديل المصل القديم، بعدما تركهم عدة أيام للتفكير في هذا.

فبدأ بالتحدث قائلًا:

- هل وجدتم الحل بعد؟

أخرج آدم من حقيبته ملفًا ناوله لچواد قائلًا:

- هذا البحث يتحدث حول عملية التفكير والإرادة.

أخذ چواد يقلِّب في الملف، بينما مضى آدم يشرح له البحث بصورة علمية لم يركز معها كثيرًا، لكنه انتبه عندما سمع الأخير يقول:

- ويمكن تحويل هذا البحث النظري إلى واقعٍ عمليٍ بابتكار مصل يتداخل مع عمليات التفكير والأوامر التي تحدث داخل العقل، ومن ثم تهيئة الناس للاستجابة، فيسهل عليك توجيههم للقيام بأي أمر تريده.

حينها قاطعه چواد بشغفٍ واضحٍ قائلًا:

- يعني هذا أن المصل الجديد سيقوِّض إرادتهم ويجعلهم طائعين لي تمامًا؟

رد آدم قائلًا:

- ليس بالضبط؛ فوظيفة المصل تتوقف عند تهيئة عقولهم لزرع ما تريده من أفكار، فيعتقدون أنهم يفعلون ما يريدون، لكنهم في الحقيقة يفعلون ما تريده أنت.

انشرح وجه چواد أخيرًا وتهللت أساريره فرحًا، فقال لهم وهو يهم بالنهوض مغادرًا:

- عظيم، ومن اليوم قد أصبحتم شركائي في بناء تاريخ ومجد مملكة أرابيتا.

***

مصل جديد

وبعد قرابة الشهر توجه چواد لقاعة المعمل، حيث أرسل العلماء في طلب حضوره عاجلًا.

بادر ساري چواد قائلًا وهو يناوله أنبوبةً زجاجيةً صغيرة:

- ها هو المصل الذي أردته، جاهزٌ تمامًا.

التقطها چواد وأخذ ينظر إليها بفرحٍ شديدٍ كطفلٍ حصل على لعبته الجديدة، وأخذت صور من المستقبل تتراص أمام عينيه، فصار يمني نفسه ويبشرها.

ظل هكذا برهة ولم يخرجه من تأملاته تلك إلا صوت آدم الذي تحدث إليه قائلًا:

- وخلال أيام سيكون لديك الكمية الكافية للبدء في تطعيم الشعب.

فنظر له چواد وأخذ يكرر الجملة الأخيرة في نفسه قائلًا: البدء في تطعيم الشعب، تطعيم الشعب...

كان هوسه الشديد بالحصول على المصل الجديد قد أنساه تمامًا أن هناك حتمًا صعوبات ستواجهه، وها هي الآن تظهر أمامه بعدما أصبح المصل بين يديه بالفعل، لتضفي ظلالًا كئيبة على تلك الصور المشرقة التي رسمها في مخيلته قبل لحظات.

فقال لهم وقد بات أكثر واقعيةً في رؤيته:

- ولكن كيف أضمن توافد الناس على المعامل لتناول المصل الجديد؟

بل والأهم، كيف سيحدث هذا دون إثارة البلبلة أو إحداث ضجة كبيرة تصل إلى مملكتي أورشاليا وكروسلاند؟

ونظر في أعينهم قائلًا بحسم:

- وأنا أهم شيء عندي هو إخفاء هذا الأمر عنهما لأطول وقت ممكن، إلى أن تستعيد مملكتنا قوتها.

نظر العلماء الثلاثة إلى بعضهم البعض بخبث غير عابئين بالمرة لما ألقاه چواد على مسامعهم.

فبدأت نبرة چواد تتغير، وعلا صوته قليلًا وهو يقول لهم:

- لم أسمع أي إجابات إلى الآن على ما طرحته عليكم.

وهنا نطق روهان قائلًا:

- لأنه يوجد شيءٌ هامٌ جدًّا يجب أن تضعه في حسبانك أولًا.

نظر له چواد قائلًا بلهجةٍ مضطربةٍ يشوبها القلق:

- تكلم.. ما هو؟

فقال له روهان:

- المصل الجديد مثل أية مادةٍ كيميائية، تختلف استجابة الأجساد لها وتفاعلها معها.

وأردف قائلًا:

- وقد أسفرت النتائج الأولية لتجارب أجريناها على مجموعة من الأفراد، عن احتمال ضعف تأثيره في نسبة تماثل ربع عدد أفراد الشعب بسبب مناعتهم.

فامتعض چواد بشدةٍ ثم ما لبث أن تحدث إليهم بلهجةٍ خشنةٍ قائلًا:

- سننظر في أمر هؤلاء لاحقًا، أمَّا الآن فلا بد من أن ننتهي من إنتاج الكمية المناسبة من المصل للبدء في إرساء خطة محكمة لتطعيم الشعب به.

كان حماس چواد يقل تدريجيًا وهو يتابعهم بنظراته، وكأن حالة الوجوم التي خيمت على وجوههم قد تسربت إليه عن عمد منهم، فنجحوا بالفعل في طمس تلك النشوة التي تملكته عندما لامست يده أنبوبة المصل الجديد، فأردف قائلًا بهدوءٍ مصطنعٍ محاولًا كظم الغيظ الذي تكاد تنطق به كل خلجةٍ من خلجاته:

- هل عندكم مشكلةٌ في هذا أيضًا؟

ظل العلماء الثلاثة صامتين لبرهة وكأنهم لا يزالون مصرين على ألا تكتمل لحظة السعادة تلك التي يريد أن يحظى بها جواد، ولا ينفكون يحاولون إطفاء شعاع النصر الذي يحاول البزوغ من عينيه.

حتى رد عليه آدم قائلًا:

- المشكلة الكبرى هي أن نسبة الأفراد المنيعين من المصل كبيرةٌ جدًّا، وسيكون لها تأثير ملحوظ على باقي أفراد الشعب.

ثم أردف قائلًا:

- لذلك لا بد أولًا وقبل كل شيء أن تبحث عن طريقة للسيطرة عليهم، أو على الأقل تحييدهم؛ وإلا ستنقلب الأمور رأسًا على عقب، خاصةً في ظل تربص مملكتي أورشاليا وكروسلاند لك.

هوت تلك الكلمات الأخيرة على جواد، كمطرقة فولاذية مرت لثانية واحدة بجانب رأسه فكادت أن تهشمها، ورغم نجاته، إلا إن وقع صوتها في أذنه ما زال يطارده كشبح يثير في نفسه رعبًا غامضًا ومزعجًا للغاية، فصاح غاضبًا:

- ماذا تقول؟

ثم أردف قائلًا وهو يحرك يده بطريقة تنم على انفلات أعصابه تمامًا:

- ألم تؤكدوا لي مرارًا أنكم بصدد ابتكار مصلٍ فعال؟

سارع ساري قائلًا:

- نعم، ولكن هذه طبيعة الأجساد، لا حيلة لنا في ذلك فهي ليست آلات، و.. ونحن...

صاح جواد قائلًا دون أن يعطيه فرصةً ليكمل كلامه:

- أريدهم آلات، ولو استطعت تفكيكهم وتصنيعهم من جديد لينفذوا ما أريد لفعلت.

وقف العلماء مرتعبين، وظلت أعينهم معلقةً على جواد الذي بدا عليه الهياج الشديد ثم نطق ساري أخيرًا قائلًا بنبرة استجداء:

- لقد طلبت منا المصل وها هو أمامك؛ بل وأبلغناك بمشكلاته قبل أن تتفاجأ بها، فما ذنبنا الآن؟!

نحن نخبرك بهذا لنكون صادقين معك لأقصى درجة و...

لم يكمل ساري كلامه، ولم تفلح تلك المحاولة في تهدئة چواد الذي رفع رأسه وشد جسده على نحو غريب، أو هكذا بدا لهم، فشعروا فجأة بتوتر رهيب وكأن تيارًا كهربائيًا قد سري بأجسادهم، فأخذوا يترقبونه وكأنه وحش سيخرج من قفصه في أية لحظة ويمزقهم بلا رحمة.

ظل چواد يرمقهم بنظراته المخيفة تلك، ثم ما لبث أن كسر حاجز الصمت متحدثًا بقوةٍ شديدةٍ لتخرج الكلمات منه وكأنها نيران تُنفث من تنينٍ غاضب، فقال:

- لقد أبقيت على حياتكم لأنكم وعدتموني بإيجاد حلول صريحة لوضع المملكة وحالة الشعب، وليس لإدخالي في تلك المتاهات.

ثم سكت برهة أخذ خلالها نفسًا عميقًا واستطرد قائلًا:

- سأكون كريمًا معكم وسأعطيكم فرصةً أخيرة أعلم أنكم ستستثمرونها جيدًا.

ثم تنقل بناظريه مدققًا في أعينهم وقال:

- ومن الآن أضع على عاتقكم مسئولية إيجاد طريقةٍ فعالةٍ لإقناع الشعب بالتطعيم، وأيضًا إيجاد حل جذري لمشكلة الأفراد المنيعين تجاه المصل.

قال آدم:

- ولكن...

قاطعه چواد في التو قائلًا:

- إذا كان الأمر يصعب عليكم فسأوكله لمجموعة أخرى من العلماء، لذا أخبروني من الآن.

فقال آدم بسرعة:

- لا داعي لهذا، سنعمل على إيجاد حلولٍ حاسمةٍ في أقرب وقت.
فقال چواد وهو ينهض مغادرًا:
- أمامكم ثلاثة أيام لا غير.

***

اختيار إجباري

"نحن دومًا ما نعتقد أن ما نخوضه من تجربةٍ وجوديةٍ الآن هو خلاصة خبرتنا في الحياة، بينما في واقع الأمر هو اختيار إجباري.

ومع أول إضاءات فكرية أخرى، نترك اعتقادنا بأحقية ما نحن عليه للنشوء في الحيز الوجودي، ونميل لاعتقادٍ مختلفٍ نظنه هو الآخر عين الحقيقة وعصارة وعينا.

وهكذا نعيش في دواخلنا لا يعلم بنا أحد.

نقاسي أحيانًا من هذا، ثم ومع الممارسة تنمو لنا أجنحة، أجنحة ليست بالضرورة على وفاق، ولكنها توازن طبيعة أجسادنا التي أنهكتها زخات القدر، زخات القدر التي تنهمر على عقولنا ببطء يسير مهيئةً لنا طريقًا نظنه اختياريًا

ولكنه في النهاية..

اختيار إجباري".

***

عاد العلماء من غرفة الاجتماعات إلى جناح معيشتهم في القصر، فبدأ ساري بالتحدث قائلًا بأسىً بالغ:

- هل سنعطيه ما يريد حقًّا؟

قال له آدم:

- أنت تعرف جيدًا يا ساري معنى أن يأتي بعلماء غيرنا، وأكاد أجزم أنه الآن بصدد البحث عن مجموعةٍ بديلةٍ تضمن له نتائجَ أفضل، فهو لن يهدأ حتى يصل لمراده.

وهنا قال روهان مستنكرًا:

- وحتى لو قدمنا له حلولًا حقيقيةً واستتبت له الأمور، فهل تعتقدان أنه سيتركنا نعيش بعدها؟

قال آدم بمرارة:

- بالطبع لا، ولكن بما أننا قد عجزنا عن إيقافه، فلم يعد هناك بد من استخدام آخر ورقة لدينا لكبح جماحه.

وهنا سكتوا جميعًا وقد لفهم الحزن بردائه.

فحتى ساعة مضت، كانوا يظنون أنهم بالعمل على تقليل منسوب توقعات چواد سيستطيعون بشكل أو بآخر إحباطه ليعيد التفكير في مدى جدوى هذا الأمر من الأساس بالنسبة له، ولكم كانوا واهمين.

***

كان خبر استيلاء چواد على حكم مملكة أرابيتا قد هز عرشي مملكتي كروسلاند وأورشاليا، وعقدت بينهم اجتماعاتٌ دائمةٌ لتجديد تحالفهم لمجابهة أي تحرك قد يفكر فيه چواد.

لذا فعندما وصلت لهم الأخبار من جواسيسهم في أرابيتا بأن چواد ينوي تطوير المصل، عقدوا العزم بينهم على المضي قدمًا نحو توجيه دفة مراكبهم للّحاق به في تطلعه الجديد؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أنه لو تحقق مراد چواد، واستطاع تجنيد شعبه للعمل في تصنيع السلاح وتهيئة آلة الحرب من جديد، فسيكون ذلك بمثابة فوهة بركان تغلي تحت أقدامهم، وعاجلًا أم آجلا ستنفجر لتبتلعهم وتبتلع مملكتيهم، لهذا فقد تم الاتفاق على تسخير كل السبل المتاحة لديهم لتجنيد عالم من العلماء الموجودين بقصر چواد، ليمدهم بنتائج الأبحاث حول المصل الجديد.

***

سم الثعابين

وفي الاجتماع الأخير -بل هو فرصتهم الأخيرة- وقف العلماء الثلاثة في نشاط وتفاؤل على غير عادتهم، ليعرضوا عصارة أفكارهم أمام چواد الذي جلس متحفزًا لأي بادرة استخفاف قد تصدر منهم.

بدأ ساري بالتحدث بشغفٍ مصطنعٍ قائلًا:

- لماذا ننتظر الناس حتى يأتوا للمعامل، لم لا نذهب نحن إليهم بالمصل الجديد؟

رفع چواد حاجبيه متعجبًا وقال له أن أكمل.

فعاد ساري يقول:

- سنستخدم أسلوبًا غير مباشرٍ في تطعيم الناس به، وذلك بإدخاله في طعامهم وشرابهم، فنضمن تناولهم له باستمرار، وذلك بنسب بسيطة جدًّا ولكنها تراكمية، ومع الوقت سيتغير وعيهم تدريجيًا دون أن يشعروا، حتى يؤتي المصل بثماره.

ثم أردف قائلًا:

- وبهذا نكون قد تخطينا مشكلة إجبارهم عليه.

قال چواد:

- عظيم، ولكن كيف سنفعل هذا؟

وهنا تحدث آدم قائلًا:

- سنسيطر على الأسواق بحيث لا يخرج منها شيء يؤكل أو يشرب إلا وكان مزودًا بالمصل، وسيتم ذلك بالسيطرة التامة علي المزارع ومصانع تعليب المشروبات والأغذية، والتي ستكون تحت إشراف أفراد مدربين سيقومون بتزويد مياه الزراعة بالمصل، وكذلك إضافته إلى السلع المعلبة خلال مراحل تصنيعها.

ثم أردف قائلًا:

- وسنشرف على محطات معالجة مياه الشرب وسنزودها بكميات مناسبة من المصل، وزيادة في التأكيد سنقوم بوضع علامة مائية تحمل صورتك على صناديق الأطعمة والمشروبات وعبوات المياه التي تم تزويدها بالمصل، والذي سيكون له أيضًا أثر السحر، فحينها ستكون صورتك على كل ما يحتاجون إليه؛ مما سيشعرهم بالراحة كلما رأوها.

انشرح صدر چواد وقال لهم مبتهجًا:

- حسنًا جدًّا.

واعتدل في جلسته، ومن ثم استطرد قائلًا بلهجةٍ جادة:

- وبالنسبة للمشكلة الثانية؟

وهنا رد روهان قائلًا:

- الحل في المؤثرات الخارجية، والتي ستقضي على أي تأثير للمنيعين على باقي أفراد الشعب.

فنظر له چواد الذي كانت يده تعبث بذقنه وبدت عليه علامات التفكير العميق ولم يعقِّب، فعاد روهان يقول في حماس:

- ففي المرحلة الأولى سنعمل على ملء الشوارع بالملصقات التي تحث على الطاعة لك، وستحتوي جميعها على تلك العلامة المائية التي تحمل صورتك.
ثم أردف قائلًا:
- وسنخصص للناس أماكن نوجههم للتردد عليها، وليكن أسبوعيًا، سيشرف عليها علماء ومفكرين وخطباء أفذاذ، يقنعون الناس بمدى النفع العائد عليهم عند اتباعك، وسنعطيهم حينها مكافآت لتشجيعهم على الحضور باستمرار، هذا بالإضافة لقنوات البث التلفزيوني التي ستعمل ليل نهار على هذا المنوال. وكما تعلم يا سيدي؛ فالاقتناع بالشيء يوجده.
وتوقف برهة قبل أن يردف قائلًا:
- وبعد عدة أشهر سيكون المصل قد تمكن من معظم أفراد الشعب، وحينها نبدأ في المرحلة الثانية، وفيها سنعمل على تذكير الناس دومًا في كل وسائل الإعلام وكل لقاءٍ أسبوعي بمدى كرمك، ومدى خبث المنيعين الذين لا ينفذون الأوامر تلقائيًا مثلهم.
وبعد فترةٍ قليلةٍ سيصبح المنيعون منبوذين تمامًا من الشعب، فستتبقى لديهم ثلاثة خيارات،
إما النزوح بعيدًا على أطراف المملكة، أو القبول بالوضع والرضوخ لأوامرك كباقي أفراد الشعب، أو البقاء والتمرد وبالتالي تحمل تبعاته.
فقال چواد:
- وماذا تتوقعون أن يحدث منهم على النحو الأغلب؟
رد آدم قائلًا:
- سيضطر البعض منهم إلى البقاء، ولكن لا شك أن الأغلبية ستنزح إلى أطراف المملكة ناجين بأنفسهم.
ثم أردف قائلًا:
- لكن هذه الخطة ستحتاج إلى إنفاقٍ هائل من موارد المملكة.

فقال جواد على الفور:

- ستكون كل موارد المملكة تحت إمرتكم، وكل مؤسساتها في خدمتكم.

وهنا أنهى اللقاء ونهض مغادرًا وقد تملكته نشوة سعادةٍ غامرة. إن مساعيه في تحقيق مآربه ثعابين خطرة في هيئة بشر، ثعابين ستنفث سمها في شعبه، لا لتقتل أجسادهم، ولكن لتغتال عقولهم.

ولم يكن يدري أنه حينما تنفث تلك الثعابين سمها سيكون هو أول المتجرعين له.

***

وخلال أيام بدأت خطة جواد التي رسمها مع العلماء الثلاثة في التنفيذ.

استنزفت تلك الخطة أغلب موارد الدولة بالفعل؛ حيث إنه كان لزامًا على جواد أن يوفر مصادر للطعام والشراب غير مزودة بالمصل لرجاله، وللفئة التي استثناها من علماء ومفكرين يحتاجهم بكامل وعيهم لتستقيم شئون المملكة.

ولكن هان كل ذلك عليه أمام علامات الانصياع التي بدأت تظهر على كثير من أفراد الشعب، والمصانع الحربية التي عادت للعمل من جديد.

وفي تلك الأثناء وبعدما تأكد جواد من نجاح خطته، خاصةً وقد تم إنشاء معاملَ كبيرة لإنتاج مادة المصل باستمرار، يشرف عليها أشد الرجال ولاءً له، قرر التخلص من العلماء الثلاثة ليضمن بقاء السر في مملكته.

***

وفي إحدى الليالي بجناح العلماء، جلس آدم واضعًا أمامه عدة ورقات، نظر له روهان مستفسرًا، فتحدث آدم بمرارةٍ قائلًا:

- سأشرح كيف يؤثر المصل على العقول وسبل التحرر منه، وبعض المعلومات الأخرى التي قد تكون ذات نفع، وسأخبئ هذه الأوراق هنا في مكان ما آملًا أن يجدها يومًا من يحسن استغلالها.

فنظر له روهان وساري نظرة إشفاق، ثم ما لبثا أن همَّا بمساعدته، آملين أن تكون هذه هي رسالة الخلاص لهم مما ارتكبوه في حق شعوب الممالك.

وعندما انتهوا لف آدم الأوراق بقطعة جلد متينة، وأخذ يدير عينه في أرجاء المكان، ثم ما لبث أن قال لساري مشيرًا لأعلى:

- اصعد فوق تلك المنضدة وأدخلها جيدًا في هذا الشق من السقف.

وكأن آدم قد تنبأ أن الموت قادم على الأبواب في أية لحظة من لحظات هذا الليل الطويل؛ فبالفعل قام جواد بالتخلص من العلماء الثلاثة في تلك الليلة.

***

التعلق

"هناك مسافة شاسعة بين الحب والتعلق، الحب يجعلك قويًا تشعر بالحياة، تعيش في الحاضر وتمضي قدمًا.

التعلق يجعلك هشًا، وضعيفًا، وقلقًا، وخائفًا، ومضطربًا على الدوام.

الحب ينبع من جوهرنا ووعينا الصافي.

التعلق منبعه الأنا.

الحب حياة.

والتعلق معاناة."

***

وفي القصر، جلس جواد علي كرسيه الفخم بغرفة مكتبه، يحلم بإمبراطوريته التي اقترب من تحقيقها، وبينما هو سارح في أفكاره فإذا به يجد يوناس قادمًا إليه بأقصى سرعةٍ قائلًا:

- جواد، حدثت مصيبة.

فزع جواد بشدةٍ وقال له وهو ينهض واقفًا:

- ما الأمر؟

قال يوناس لاهثًا:

- لقد وردتنا للتو أخبار من مصادرنا في مملكتي أورشاليا وكروسلاند أن مصانع السلاح لدى المملكتين قد بدأت في العمل من جديد.

فصرخ جواد قائلًا:

- ماذا تقول، كيف حدث هذا؟

قال يوناس:

- يبدو أن العلماء قد سربوا كل شيء إلى المملكتين في غفلةٍ منَّا، لذلك فأثناء ما كنا منشغلين بتنفيذ خطتنا كانت المملكتان حينها تعملان بنفس الكيفية التي شرعنا في العمل بها، ولكن بحرصٍ شديدٍ وفي سريةٍ تامة، حتى إن جواسيسنا هناك لم يشعروا بشيء إلا حينما فتحت المصانع الحربية فجأة، وبدأت أعداد قليلة من الناس تتوافد للعمل بها بالفعل.

وهنا تذكر جواد ما أخبره به الجنود عن الابتسامة التي علت وجوه العلماء الثلاثة أثناء تلقيهم الرصاصات التي أودت بحياتهم، فشعر بالألم يخترق صدره وينهش في قلبه؛ فقد كانت طعنة المكيدة نافذة.

آثر يونـاس الانسحاب تاركًا إياه أسيرًا لهمومه، فبناءً على هذه التطورات الأخيرة فحتمًا سيكون عليه مواجهة قوة مضاعفة؛ حيث إن المملكتين في تحالف.

وفي تلك اللحظة أطلت عليه ابنته (ريتال) ذات التسعة أعوام مقبلةً بوجهها البشوش لتسأله بحنان بالغ:

- لماذا تبدو حزينًا هكذا يا أبي؟

وهنا هدأت حدة انفعاله فجأة وتراخي جسده، وبدا وكأن الشيطان الذي كان يطل من عينيه قد غاص فيهما بلا أثر ليظهر شخص آخر تمامًا، شخصٌ يكاد يتهاوى من فرط ما يشعر به، فانهار في كرسيه بينما لا يزال يحاول أن يبدو متماسكًا أمامها، حتى بات يتأرجح بشدة بين انفعالاته ويكتم صراخًا داخله، فأخذ صدره يعلو ويهبط، وبدا وكأنه يقاوم لحظة بكاءٍ فاجأته من ذكرى أليمة تكاد تمزقه تمزيقًا.

إن في داخله جرح تمدد مع الأيام حتى استولى عليه؛ ففي نفس اللحظة التي انفجرت فيها السيارة لتشتعل بزوجته، اشتعلت داخله جذوة نارٍ ما انفكت تسيطر عليه وتسلب منه أية رغبة له في الحياة إلا الانتقام.

وبالرغم من تلك الآلام التي تختزنها هذه اللحظة، إلا أنه ما زال يتشبث بها ولا يدعها تمر أبدًا، كأنها أصبحت هويته، بدونها يضيع ولا يعرف نفسه،

لا يكون هو. هذه نتيجة عدم قبوله لما حدث إلى الآن.

وبعدما نجح في لملمة شتاته بصعوبة بالغة، نظر إليها مشفقًا وقد طرأ على باله في تلك اللحظة هاجس بأنه ما إن تطورت الأمور، فقد تطالها الحرب بسهام الغدر كما طالت أمها.

فأخذ يفكر كيف أنه لم يعد يضمن لها الحماية؛ بل لم يعد يضمن بقاءه في الحكم بعد الآن.

دارت التساؤلات والمخاوف في عقلة وظل صامتًا لا يدري بماذا يجيب ابنته.

فغادرت لتتركه وحيدًا يحوطه اليأس من كل مكان.

***

التحالف

وبعد يومين أفاق چواد من الصدمة، فاستدعى وزير الخارجية إلى مكتبه وتحدث إليه قائلًا:

- هل ما زالت معاهدة السلام التي وقعها الحاكم السابق بيننا وبين مملكتي أورشاليا وكروسلاند قائمة؟

- نعم.

- إذًا فلتقم باتصالاتك مع المملكتين للاتفاق على موعد لإعادة التأكيد على تلك المعاهدة، وذلك في أسرع وقت.

ثم انصرف الوزير تاركًا چواد يفكر كيف كان على متن طائرته يحلق في أحلامه قبل أن يتحول كل شيء حوله إلى كابوس مزعج.

***

استطاع چواد بعد عدة لقاءات وبصعوبةٍ بالغةٍ إقناع حاكمي أورشاليا وكروسلاند بضرورة الإبقاء على معاهدة السلام ساريةً لتبادل الخبرات بينهم، خاصةً وأن تأثير المصل الجديد سيكون نسبيًا، وسيحتاج لجهود مكثفة لاحتواء الشعوب في كل مملكة، وتمخضت المحادثات التي انعقدت على أن تتعاون الثلاث ممالك فيما بينها لإبقاء الشعوب تحت سيطرتهم وبذل كل السبل لتوجيههم لإعادة تشغيل المصانع، وكذلك تم عمل بروتوكول لتبادل الخبرات الإعلامية بين الممالك.

وبهذا فقد تحقق مراد چواد، واستطاع تحييد قوتين لو اجتمعتا ضده معًا لأصبح بقاؤه في الحكم مهددًا، ولتلاشت كل أحلامه دفعة واحدة.

***

النزوح إلى أطراف الممالك

وبعد مضي بضعة أشهر، بدأ المنيعون في إثارة الجدل بين باقي الأفراد في الثلاث ممالك، خاصةً بعدما انكشفت لهم تفاصيل المؤامرة التي دبرت للشعوب.

وقد حدث هذا بسرعة أربكت حسابات حكام التحالف، مما اضطرهم لإنشاء قوات مشتركةٍ عاجلة مهمتها إيقاف أي تمرد من قبل المنيعين في الثلاث ممالك.

وخلال العام الأول للمصل نما هذا التحالف كثيرًا ووصل الأمر إلى أن أصبحت أهم المعامل المنتجة لمادة المصل تدار في تعاون مشترك بين الممالك الثلاث.

ومع انتهاء العام الأول للمصل الجديد، كان أغلب المنيعين قد نزحوا إلى أطرافٍ نائيةٍ من الممالك ليعيشوا بعيدين عن بطش الحكام وغدر تحالف الشر.

***

وعلى أطراف مملكة أرابيتا، ومع أواخر العام الأول للمصل، كانت الأمور قد استتبت ليزن ورجال أبيه نوعًا ما.

وفي ليلةٍ ذات سماءٍ صافيةٍ اجتمع يزن برجال أبيه وبدأ حديثه قائلًا:

- إن الأمور قد باتت مستقرةً لنا، ولا يجب أن ننسى وعدنا بتحرير مملكة أرابيتا من حكم جواد، وأرى أنه لا بد الآن من التواصل مع من تثقون بهم في الداخل؛ خاصةً وقد زاد طغيان هذا التحالف الذي نشأ بين حكام الممالك، الذين سمموا عقول شعوبهم واستعبدوهم.

رد أحد رجال أبيه قائلًا:

- لقد يئس المتمردون في مملكة أرابيتا من الاستمرار بعد التضييق عليهم بكل الطرق، وعلمت من رجالي أن التحالف قد أجبرهم على النزوح إلى هنا في أطراف المملكة، وقد حدث نفس الأمر في مملكتي أورشاليا وكروسلاند.

فقال يزن:

- هذا شيء جيد، لا بد أن نستعد لضمهم لنا وتهيئةُ أكبر عددٍ منهم للعمل معنا في أسرع وقت، خاصةً وإنهم أكثر منا دراية بما يحدث في الممالك.

وقد كان.

***

شروق وغروب

تتلاقى الممالك في منطقةٍ جغرافيةٍ شاسعةٍ جدًّا تبدو أقرب لشبه للمثلث، وقد نزح إليها أغلب المنيعين؛ مما سهل على يزن تجميعهم وبناء جبهته، لتبدأ عجلة المقاومة في الدوران.

ولسنوات حاربت الجبهة التحالف وقويت شوكتها كثيرًا؛ خاصةً بعدما استطاعوا تجنيد بعض القيادات العسكرية في الممالك.

وتدرجوا في توسيع عملياتهم وإحداث أضرار جسيمة بمنشآت هامة لممالك التحالف، يتم من خلالها تمرير هذا المصل للشعوب، كالأسواق والأراضي الزراعية ومحطات معالجة المياه ومصانع التعبئة.

إلى أن جاءت لحظةٌ مصيريةٌ غيرت كل شيء.

ففي أوائل عام 2183 استطاعت جبهة المقاومة أن تفجر أحد أكبر معامل التحالف لإنتاج المصل، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تقوم فيها الجبهة بعملية بهذا الحجم.

وكان لهذا صدى كبيرًا جدًّا؛ فقد أدى لحدوث عجز واضح في مخزون المصل لدى التحالف، الذي قام على إثر هذه العملية بتسخير كافة جهوده، واستخدام أساليب جديدة حاسمة للقضاء على جبهة المقاومة تمامًا، ومحاربتهم حتى أطراف الممالك.

فتمت مراقبة الطرقات في كل مكان لتعطيل حركة الجبهة داخل الممالك، ومراقبة الحدود بشكل مستمر لضمان إحكام السيطرة على الأوضاع.

وبهذا فقد تم التضييق على المقاومة وشلِّ حركتها تمامًا بالفعل،

فباتت الجبهة مهددةً بالتفكك التام، بعد اثني عشر عامًا من الكفاح والنضال في سبيل حرية الشعوب.

ولم يتوقف التحالف عند هذا؛ فقد استطاع في إحدى المرات تحديد مكان يزن وعناصر هامة من قيادات الجبهة، وكادوا أن يطبقوا عليهم لولا تسريب للمعلومة في اللحظات الأخيرة وصل ليزن عن طريق رجله المقرب من چواد.

ونجى يزن وقادة المقاومة بالفعل، ولكنهم قرروا تجميد نشاط الجبهة وحصره على بعض العمليات اللوجستية البسيطة، وإعادة تنظيم الاتصال بين أفرادها الذين نزحوا إلى منطقة جديدة، واستقروا هناك في سريةٍ تامةٍ وبإجراءات عالية الحذر.

***

القصر

كان يعيش في قصر الحكم بأرابيتا يوناس وزوجته (ويندا)، للإشراف على تربية ريتال ابنة چواد.

وكانت ويندا في أوائل الأربعينات، شديدة الجمال، ذات بشرةٍ حنطيةٍ وجسد متناسق حسن التكوين، وكان شعرها أشقر ناعمًا، ووجهها مائل للاستدارة، ولها أنف صغير، وعينان خضراوان مميزتان يأسران الناظر إليهما.

وكانت رقيقة المشاعر ترتاح النفوس لرؤياها، وتمتاز بذوق رفيع ولسان معسول، ولم تكن تنجب، ولكنها ربت ريتال كابنتها تمامًا، وكانت لها نعم الأم؛ فقد أبعدتها عن كل الظلم والسواد اللذان يحوطان القصر.

وقد ترك چواد ريتال تتربى في أحضان خالها وزوجته ليعوضاها عن فقدان أمها، لكن في الوقت نفسه ظلت أمام عينيه؛ فقد خصص ليوناس وزوجته جناحًا في القصر بعد استيلائه على الحكم.

وكانت ريتال تقضي معظم وقتها في القصر بناءً على تعليمات أبيها، ولم تكن تخرج إلا للتنزه بالقرب من القصر.

وقد تعلمت في القصر أيضًا؛ فقد كان أبوها يحضر لها معلمين في شتى العلوم، وقد احتاط جيدًا في كل من يتعامل مع ابنته؛ فلم تكن تدري بحقيقة ما يحدث في المملكة، ولم تكن تعلم بالمصدر الحقيقي للسلطة والقوة اللتين يتمتع بهما أبوها، وكانت تعتقد أن وسائل الإعلام التي تدين له بالولاء هي التي تقف وراء هذا.

***

وبعد مرور أكثر من عام على الأحداث الأخيرة التي ترتب عليها تجميد نشاط المقاومة، وكانت ريتال حينها قد بلغت سن الرابعة والعشرين أو يزيد قليلًا، وذات مساءٍ وبينما كانت تتجول في القصر، ابتعدت كثيرًا عن جناح معيشتها لتقترب من ردهةٍ طويلةٍ تقود لجناح مهمل لا يوجد به شيء يذكر، ومع ذلك فقد كان محظورًا على ريتال الاقتراب منه بتاتًا.

لكن فضولها -أو بالأحرى مللها- دفعها لخوض مغامرةٍ جديدةٍ علَّها تجد شيئًا مثيرًا، وفي غفلة من الحراس المنتشرين بأروقة القصر، دلفت ريتال إلى هذا الجناح.

دارت بعينيها في أرجاء المكان فلم تر شيئًا ذا بال، ولم تجد به إلا قطعًا من الأثاث الغير مرتب والمتهالك إلى أقصى حد، ثم حانت منها التفاتة لسقف الغرفة فلمحت قطعة جلدٍ يتدلى جزءٌ منها ويبدو أنها مطويةٌ بعناية، فقالت في نفسها أنه لعل من خبأها يقصد ذلك، أو ربما عامل الزمن وتدهور حال السقف هو ما كشفها.

أحضرت مقعدًا انتقته بعنايةٍ من بين المقاعد المتهالكة رأت أنه قد يتحمل ثقلها نوعًا ما واعتلته، ثم مدت يدها، وحينها لم تتكلف عناءً بسحب قطعة الجلد تلك من بين ثنايا سقف القاعة.

عادت إلى الأرض وقامت بفك طياتها لتجد بداخلها بعض الأوراق، فازداد فضولها وشغفها، وجلست على المقعد غير مبالية باتساخه، وأخذت تقرأ.

وبعد لحظات جحظت عيناها، واندهشت، ثم ارتعبت وبكت.

بكت كثيرًا.

ولم تدرِ ماذا تفعل حينها، ثم ما لبثت أن خبأت الأوراق بين طيات ملابسها وتوجهت بسرعة إلى جناح خالها.

وما إن رأتها ويندا حتى نهضت مفزوعة واحتضنتها قائلةً:

- ماذا حدث، ما بك يا ريتال، أين كنت؟

فقالت ريتال وهي تناولها الأوراق:

- اقرئي بنفسك.

وبعد أن اطلعت ويندا على ما في الأوراق، حاولت في البداية الإنكار فقالت:

- قد تكون تلك الأوراق خواطر عبثية لأحد العلماء القدامى...

قاطعتها ريتال فورًا قائلةً:

- ولكن كل الدلائل تشير إلى صحة ما في هذه الأوراق، كل هذا الانصياع والطاعة العمياء لأبي وكل ما تقوم به وسائل الإعلام، يثبت صحتها.

ثم أردفت قائلةً:

- كنت أعلم أنه يوجد خطب ما في هذا الشعب، أرجوكِ قولي إنني لست مخطئة، قولي لي الحقيقة.

وأنهت كلامها فجأة ثم أجهشت بالبكاء.

وهنا عادت ويندا تضمها قائلةً:

- حسنًا حسنًا.. اهدئي يا ريتال، سأخبرك بالحقيقة، الحقيقة كلها، ولكن أولًا دعينا ندلف للغرفة الداخلية.

وفي الداخل أخذت ويندا تخبرها بكل شيء عن مؤامرة أبيها.

وبينما هما كذلك دخل يوناس الغرفة فرأى ريتال بملابسها المتسخة ودموعها التي تجري على خدودها، فهاله منظرها ونظر على الفور لويندا مستفسرًا فصاحت الأخيرة قائلةً:

- لقد عرفت ريتال كل شيء.

وقبل أن يحاول يوناس لوم زوجته على هذا بادرته ريتال قائلةً:

- كنت دومًا أسألك عن طبيعة ما يحدث فتتهرب من الإجابة، والآن قد عرفت، وأنا لم أعد تلك الصغيرة التي تخشيان عليها معرفة الحقيقة كما كان سابقًا.

رد يوناس قائلًا:

- كنا نحاول حمايتك يا ريتال من ألم وتداعيات معرفتك بها.

- بالعكس، أنا الآن في قمة لحظات راحتي؛ لأنني دومًا ما كنت ألوم نفسي على هذا الإحساس الدفين بالاشمئزاز تجاه هذا الشعب.

ثم أردفت قائلةً:

- لقد قتلهم أبي، قتلهم بلا رحمة.

وأردفت قائلةً وهي تبكي بحدة:

- ولسوف أساعدهم على استعادة حريتهم بأي ثمن.

نظرت ويندا إلى يوناس كي يحاول احتواء ريتال وتهدئة نوبة الغضب التي انتابتها فقال لها بحنانه المعتاد:

- تماسكي يا حبيبتي، سيكون كل شيء بخير.

واستطرد قائلًا:

- ما هذه الأوراق التي في يدك؟!

وكأنها للتو تذكرت أمر الأوراق فناولته إياها.

وبعد برهة من تصفح الأوراق تحدث قائلًا في حزن بالغ:

- ليتنا عرفنا بأمر هذه الأوراق من قبل.

فقالت ريتال وقد هدأت قليلًا:

- أتقصد قبل تمكن المصل من الشعب أم قبل ماذا؟

فقال يوناس:

- لا، قبل ما حدث مؤخرًا.

ثم أخذ يحكي لها أمر المقاومة وما أنجزته من أعمال عظيمة وجهود مضنية لتحرير الشعوب، وكيف أنه تم التضييق على جبهتهم مؤخرًا حتى أوشكت على التفكك تمامًا، لولا

جهود يزن ورجال المقاومة الباقين، الذين نزحوا إلى أرضٍ بعيدةٍ عن أطراف الممالك لتنظيم صفوفهم من جديد.

وختم كلامه قائلًا:

- لو كانت هذه الأوراق بحوزتنا من البداية لسهلت علينا تحرير كثير من أفراد الشعوب الثلاثة ولعجلت بنهاية التحالف، فبناءً عليها كنا سنكثف جهودنا نحو إيقاف المؤثرات الخارجية؛ حيث تنص الأوراق على أن تأثيرها المعنوي أقوى من تأثير المصل بكثير.

قالت ريتال متعجبة وقد توقفت عن البكاء تمامًا:

- تتحدث وكأنك من المقاومة.

فقال يوناس:

- أنا أعمل معهم منذ فترة طويلة.

وأردف قائلًا:

- وأعتقد أنك تفهمين سبب بقائي بجوار أبيك، فلو لم أجاره فيما يفعله، لما تسنى لنا البقاء معك في القصر.

تنهدت ريتال قائلةً:

- وأين هو الآن؛ فقد خرج صباحًا من مكتبه مذعورًا وكان يتحدث بحدة مع معاونيه، فماذا هنالك؟

لم يكن يوناس يريد أن يطاوع ريتال في رغبتها بتتبع ما يحدث من شئون أبيها، ولكنه قرر الاستمرار في الحديث معها علَّ ذلك يسري عنها، فقال:

- حدث أمر غريب مؤخرًا، فقد رفض بعض العمال القيام بدورهم الشاق في أحد المصانع، وكأنهم تذكروا فجأة أنهم بشرٌ لهم حقوق، وليسوا آلات تنفذ ما يملى عليها فقط دون اعتراض.

وفي هذا الصباح جاءت الأخبار لأبيك بأن الوضع تكرر في أكثر من مصنع، وفي كل

الممالك.

نظرت له ريتال قائلةً بحماس:

- إذًا فهو يحدث!

قال يوناس:

- ماذا تقصدين؟

قالت له:

- انظر يا خالي بسرعة في الجزء الأخير من هذه الأوراق عند صفحة بعنوان "الجيل الثاني".

قلَّب يوناس الأوراق، حتى وصل للعنوان الذي ذكرته ريتال، وأخذ يتلو ما دوِّن أسفله:

- "من خصائص هذا المصل أنه يؤثر في الجيل الأول، ولكن مع بداية الجيل الثاني (أي بعد ما يقرب من ربع قرن) سيتوقف مفعوله في كل الأجساد تدريجيًا، وعلى من يقرءون هذه الأوراق أن يستثمروا هذا التوقيت جيدًا؛ لأنه سيكون بداية حاسمة للخلاص من هذا الكابوس.

ولكن لا بد أن يتزامن مع هذا إيقاف كل سموم البث الإعلامي والمؤثرات الخارجية، حتى يتسنى للشعوب الفكاك من هذا الفخ نهائيًا".

وهنا صاح يوناس قائلًا:

- معنى هذا أن نضال المقاومة وكل ما ضحوا به من أجل إيقاظ الشعوب لم يذهب سدىً، وقد أثمر كفاحهم بالتعجيل بزوال تأثير المصل بعد أربعة عشر عامًا فقط، وما يحدث من حالات عصيان متكررة هذه الأيام يؤكد هذا.

ثم استطرد قائلًا بحماس وقد تهلل وجهه بشدة وكادت عيناه أن تدمع من الفرحة:

- ريتال.. لا بد أن تفخري بنفسك؛ فأنت بهذه المعلومات قد أعطيت قبلة الحياة للمقاومة وللشعوب جميعها، وأعدت لنا الأمل في التحرك من جديد.

ونظر لويندا ثم أردف قائلًا:

- يجب أن تصل هذه الأوراق إلى يزن في أقرب وقت، ويجب على رجال المقاومة أن يسارعوا بتنظيم صفوفهم فقد اقترب الفجر بعد ليل طويل.

قالت له ريتال بعفوية:

- سأقوم بهذه المهمة وسأوصل تلك الأوراق وما بها من معلومات خطيرة إلى المقاومة.

وهنا صاحت ويندا قائلةً:

- كلا يا ريتال، مستحيل.

وعقب يوناس سريعًا:

لا، لن أعرضك للخطر أبدًا، وقد أقسمت لأمك أن أحميك وأرعاك أبدًا ما حييت.

خطفت ريتال الأوراق من يد خالها بعفويةٍ قائلةً:

- أنا مصرةٌ يا خالي، وستدبر لي أمر التواصل مع المقاومة، إن هذا واجب عليَّ تجاه شعبي.

قال يوناس:

- ولكن التواصل مع المقاومة ليس بتلك السهولة التي تتحدثين بها، فبرغم انتهاء حظر التجوال، وارتخاء قبضة التحالف نوعًا ما هذه الأيام؛ إلا أن قيامك بأمر كهذا يحمل مخاطر عديدة يا ريتال.

ونظر إلى يدها ثم أردف قائلًا:

- وبالفعل أنت قمت بواجب عظيم بإيجادك لتلك الأوراق، وأعدك أن أجد لك مهامًا أخرى تناسبك لاحقًا، وستقدمين لشعبك خدماتٍ جليلة، ولكن في الوقت المناسب.

قالت ريتال في تحدٍ بالغ وبلهجة عصبية:

- لن يوصل تلك الأوراق للمقاومة أحد غيري، وأنا لي الحق في تقرير مصيري، وتلك إرادتي ولن أتنازل عنها لأحد حتى لو أنت يا خالي.

وجد يوناس أن ريتال كعادتها عنيدة كأبيها ومصرة على فعل ذلك ولن تفلح أية محاولة لردها عنه، فأطال النظر لعينيها ثم ما لبث أن قال:

- حسنًا يا ريتال ستقومين بذلك، ولكن يجب أن تتبعي تعليماتي بحذافيرها.

ونظر لويندا محركًا رأسه في إشارة ذات مغزى وهو يردف قائلًا:

- سأتدبر الأمر وسأحتاط كل الحيطة، نظرًا لصعوبة التحرك في ظل الظروف الراهنة.

وقبل أن تحاول ويندا الاعتراض، تحرك يوناس قائلًا لريتال:

- تعالي معي.

خرجا من جناحه ثم قطعا بضعة أمتار من الردهة وانعطفا إلى جناح ريتال، ومن ثم إلى غرفة نومها.

وقفت ريتال مشدوهة وهي تشاهد خالها يوناس يتحرك بسرعة ورشاقة، فيصعد فوق طاولة ممددة في أحد أركان الغرفة، ويمرر يده فوق إحدى قطع الأثاث مخرجًا جهازًا صغيرً جدًّا بحجم إصبعين من اليد الواحدة.

عاد يوناس من رحلته القصيرة تلك، ليجد ريتال تنظر إليه وإلى ما بيده بتعجب شديد، فابتسم لها قائلًا:

- لكي تعلمي أنه كان لك دور هام في المقاومة منذ صغرك، فكثيرًا ما احتضنت غرفتك تلك معلومات مسربة، كنت أخبئ أوراقها هنا قبل أن أتواصل مع المقاومة لتسليمها لاحقًا.

قالت ريتال مداعبةً إياه:

- غرفة نومي! ألهذه الدرجة تضحي بي يا خالي؟

رد يوناس المداعبة قائلًا:

- ربما.

وبينما كان ينقر على الجهاز بوتيرة معينة تحدث إليها بجديةٍ قائلًا:

- هذه الغرفة يا ريتال هي المكان الوحيد الذي لا يقترب منه بتاتًا أي من الحراس، ومهما حدث فلن يجرؤ أحد أن يُلمح من قريب أو بعيد بالتفتيش هنا.

ثم أردف قائلًا:

- إن أباك يا ريتال وبالرغم من كل شيء يحبك أكثر مما تتخيلين، ودومًا ما يؤثرك على نفسه، وهو قد يتحالف حتى مع ألد أعدائه لإبعاد أي أذى عنك.

لم تعقب ريتال وقد بدا عليها الأسى والحزن.

انتهى يوناس مما يفعله ثم نظر إليها بحنان بالغ وقال مغيرًا مجرى الحديث:

- هذا الجهاز يرسل إشارات بتكنيك مشابه لشفرة (موريس)، ولا نستخدمه للتواصل إلا لثوانٍ قليلة وعند الضرورة القصوى فقط، وذلك حتى لا يتم التقاط موجة بثه، وقد أرسلت خلاله للتو رسالةً مقتضبة للقاء أحد عناصر المقاومة في مكان متعارف عليه بيننا، حيث ستذهبين لتسليم أوراق العلماء غدًا.

وجلس إلى مائدةٍ في منتصف الغرفة وأشار لها كي تجلس قبالته، وأخذ نفسًا عميقًا ثم ركز بناظريه في عينيها وبدأ في التحدث قائلًا:

- ستتسللين في تمام الساعة الخامسة من باب سري للقصر كي لا يتبعك الحراس المكلفون بمرافقتك، وهذا الباب يقع في الجهة الخلفية.

وأخذ يشرح لها كيف تصل إليه عبر سراديب خفية لا يعلم بشأنها حراس القصر.

وبعد أن تأكد أنها حفظت طريقة التسلل من وإلى القصر عن ظهر قلب، أردف قائلًا:

- وبعد خروجك من القصر ستتوجهين مباشرةً للمتنزه الهادئ القريب من هنا، والذي عادة ما تقضين به بعض الأوقات، وإن كنت لا تعلمين فإن له بابين.

قالت ريتال بسرعة:

- أعلم.

قال يوناس:

- حسنًا، اسمعيني جيدًا، ستدخلين المتنزه وتسيرين ببطء متنقلة بين الزهور بشكل طبيعي، وبعد دقائق تمضين إلى الباب الخلفي للمتنزه، وبعدما تخرجين منه انحرفي يمينًا حتى نهاية سور المتنزه، ثم يمينًا آخر، وستجدين نفسك في شارع هادئ تمامًا، اعبري للجهة الأخرى منه، وسيري حتى أول شارع يظهر على يسارك، والذي ستجدين به عدة بيوت محطمة تمامًا منذ سنوات الحرب، استمري في السير بالقرب منها.

ثم أردف بنبرةٍ جادةٍ قائلًا:

- وإذا لمحت من بعيد أي سيارة دورية، أو حتى أتى إلى مسامعك صوت مرورها بالقرب من المنطقة، فاختبئي على الفور بين أطلال البيوت حتى تشعري بابتعاد الخطر، ثم اخرجي وأكملي سيرك حتى تجدي سيارة رياضية سوداء اللون، ادلفي إليها وستأخذك إلى وجهتك.

واعتدل في جلسته ثم استطرد قائلًا:

- والآن ناوليني بضعة أوراق فارغة وقلم يا ريتال.

أحضرت له ريتال ما طلب، ثم عادت تجلس إلى المائدة.

أخذ يوناس لمدة قاربت النصف ساعة يدون باهتمام وتركيز شديدين على الأوراق.

وعندما انتهى طواها بعنايةٍ ثم ناولها إياها قائلًا:

- عندما تقابلين رجل المقاومة أعطه هذه الأوراق مع أوراق العلماء الأخرى التي ستسلمينها إليه.

وقال لها قبل أن يغادر:

- تذكري كل كلمة قلتها. أتمنى لك نومًا هنيئًا يا حبيبتي، تصبحين علي خير.

***

وبمجرد أن عاد إلى غرفته بادرته ويندا قائلة:

- كيف طاوعتك نفسك أن تشرك ريتال في شيء كهذا وتلقيها بيدك في قلب الخطر؟

رد يوناس قائلًا:

- ريتال كما تعرفينها عنيدة، وقد رأيت حالتها.

واستطرد قائلًا بهدوء:

- وعلى العموم لا داعي للقلق، سأرسل ريتال بصحبة أحد عناصر المقاومة المخضرمين، وستكون تحت نظري طوال الوقت منذ لحظة خروجها من القصر وحتى عودتها إلى غرفتها.

ثم أردف قائلًا:

- إنها مهمة بسيطة للغاية وأنت تعلمين هذا جيدًا يا ويندا.

ردت ويندا وكان هاجس الخوف على ريتال في تلك اللحظة هو المسيطر عليها فقالت:

- هذا لا يبدو كافيًا للاطمئنان على ابنتي ريتال، ابنتي التي لم أنجبها ولكنها بالنسبة لي كل شيء، ولن أتحمل أن يصيبها أي مكروه يا يوناس.

وسكتت فجأة وقد بدأت تلمع فكرة في عقلها، بل في الحقيقة هي فكرة نشأت من أعماق قلبها.

لم يلحظ يوناس شرود زوجته وهو يقول:

- يبدو أن ريتال في طريقها لحياة جديدة، حياة ظللنا نبعدها بكل الطرق عن أي شيء يدور حولها، حتى وقعت تلك الأوراق في يديها، وتغير كل شيء.

***

مفاجأة

اتبعت ريتال تعليمات خالها بدقة في الخروج من القصر، ولكن ما إن دلفت إلى المتنزه حتى لمحت من بعيد أحد الأشخاص بالداخل، فارتعبت قليلًا، ولكنها ما لبثت أن أكملت طريقها عندما استطاعت تبين ملامحه؛ فقد كان هو نفس الشخص الذي اعتادت أن تراه في المتنزه في الآونة الأخيرة، والذي كان وجوده دومًا باعثًا للطمأنينة لها، فابتسمت في نفسها واتجهت نحو باب المتنزه الخلفي، لتخرج منه مكملةً طريقها حتى وصلت للسيارة، ومن ثم اقتربت منها متوجسةً للتأكد من الوصف الذي وصفه خالها.

وبمجرد تأكدها من أنها نفس السيارة، دلفت إليها سريعًا وقد سرت في جسدها فجأة رعشة خوف.

أخذت تفكر كيف كانت تعيش حياةً منغلقةً رتيبةً لم تكن تتخيل أن تحررها منها سيكون بهذا الشكل العاصف، وأنه سيحوي كل هذه التحديات الخطرة.

وفي تلك اللحظة أتاها صوتٌ ناعمٌ جميلٌ يقول:

- أهلًا بك.

ألفت ريتال هذا الصوت على الفور، فأخرجها من كل أفكارها وشرودها وأعاد لها الطمأنينة في لمح البصر، كمن تاه عن دليله في صحراءٍ مقفرة ثم ظهر أمامه فجأة.

ظلت ريتال تحملق في سائق السيارة مندهشةً ولا تكاد تصدق ما ترى ثم ما لبثت أن صاحت قائلةً:

- ويندا!

وكانت تناديها في أغلب الأحيان باسمها مباشرة.

فردت عليها قائلةً:

- نعم يا ريتال، أكنتِ تتوقعين أن أتركك بمفردك في موقف كهذا؟

فتعجبت ريتال قائلةً:

- ولكن ما علاقتك بالمقاومة؟!

وهنا أدركت ويندا أن سيلًا من التساؤلات ينهمر على عقل ريتال في تلك اللحظة، فأشفقت عليها وتحدثت قائلةً:

- أنا وكثيرات غيري من نساء المملكة نعمل في المقاومة.

ثم أردفت مبتسمة:

- فهل كنا سنترك الأمور في أيدي الرجال وحدهم؟ إنهم مجرد أطفال ولا يستغنون عن أمهاتهم في نهاية الأمر.

فقالت ريتال:

- ياه، كم كنت غافلة، كان كل هذا يحدث من حولي طوال هذه السنوات دون أن أشعر بأي شيء!

ردت ويندا:

- لا تنسي أنه كان لك دورٌ هامٌ يا عزيزتي.

ردت ريتال معاتبةً:

- تقصدين لغرفتي.

قالت ويندا وما زالت تعلو وجهها ابتسامتها الحنونة:

- لا تغضبي يا صغيرتي.

ثم أردفت قائلةً:

- ألا ترين معي أن خالك يوناس يضحي بنا دفعة واحدة هذه المرة؟

فضحكت وضحكت معها ويندا التي انطلقت بالسيارة تشق الطريق في صمت، معطية لريتال مساحتها الكافية لاستيعاب ما مرت به إلى الآن وما هي مقبلة عليه.

***

وبعد مدة طالت قليلًا وشوارع غريبة قطعتها سيارتهما، كانت ريتال تجلس مذهولةً تمامًا لما تراه من خلف الزجاج.

وعندما وصلتا لوجهتهما أوقفت ويندا السيارة ونزلتا منها.

وقفت الأخيرة للحظات تدور بأعينها في المكان بسرعة ودقة تنمان عن خبرتها بما تقوم به، ثم تحركت تتبعها ريتال صوب بيت متواضع ذي طراز عتيق جدًّا ويتكون من طابقين.

صاحت ريتال مشدوهة:

- أما زالت توجد مثل تلك البيوت إلى الآن؟ نحن في عام 2184، ولكنني أشعر وكأنني عدت بالزمن إلى العالم القديم بتراثه الفريد!

لم تنبس ويندا ببنت شفة، وتقدمت من باب البيت الذي كان يكسوه الغبار ويوحي لناظريه بأنه لا ثمة من يقطن وراءه، فدفعته برفق ودلفت تتبعها ريتال حتى وصلتا إلى سلم خشبي بدا متهالكًا نوعًا ما، بدأت ويندا تصعد درجاته بينما ترددت ريتال بضع لحظات.

وهنا فهمت ويندا ما يدور في خلد ريتال فقالت لها مشجعةً:

- هيا لا تخافي، لقد عاصَرت بيوت تلك المنطقة أحداثًا كثيرةً وما زالت قويةً صامدةً تنبض بالحياة، وهي الآن تعد ملاذًا آمنا للمقاومة. تقدمي لن يصيبك مكروه، أعدك.

ثم حانت منها التفاتة والتقت عينيها بعيني ريتال، وقالت لها بتأثر واضح:

عندما تأتي تلك اللحظات العصيبة، فدومًا ما تنجو تلك البيوت التي تملؤها الحقيقة، تلك البيوت التي لا نكاد نراها حتى عندما ننظر ناحيتها صدفة.

لا تنجو تلك القصور العالية؛ ففي باطنها نمى الزيف والسفه بين ظلال الظلم والطغيان.

سينجو دومًا أولئك الذين تعودوا أن يداووا جراحهم دون أن يشعر بهم أحد.

إنهم يتحملون الضربات، لينهضوا أقوى، حتى يستمر عطاؤهم، وحبهم يورثونه جيلًا بعد جيل.

أغمضت ريتال عينيها وأخذت نفسًا عميقًا، ثم عادت تفتحهما وقد بدا لها أن رونقًا جديدًا يحيط بكل شيء، وكأن روحها تستيقظ فترى وتنظر وتشعر ببهجة الحياة من حولها لأول مرة، وشعرت أن تلك المفاهيم الجديدة التي حركت وجدانها للتو، تنبع من رحم قضية أكبر وأوسع في مفهومها من مجرد التحرر من مصل كيميائي يسيطر على عقول الناس.

صعدت ريتال السلم مع ويندا، ثم سارتا في ردهةٍ طويلةٍ حتى توقفتا أمام بابٍ آخر طرقته ويندا بوتيرة معينة ليفتح على الفور.

كان لقاءً موجزًا يقتصر على تسليم أوراق العلماء، بالإضافة لتلك الأوراق التي دونها يوناس لرجل المقاومة.

وقبيل مغادرتهما ناول رجل المقاومة ويندا ورقةً صغيرةً قائلًا:

- لقد نجح مهندسو المقاومة مؤخرًا في ابتكار طريقة اتصال تمر عبر موجة مشفرة وآمنة تمامًا، من خلال جهازٍ حديثٍ موجود بمقر المقاومة الرئيسي، وهذا هو رقم الاتصال بالجهاز.

***

وفي طريقهما للعودة بادرت ريتال بالتحدث قائلةً:

- أود أن أعرف أكثر عن دورك ودور غيرك من نساء المملكة في المقاومة.

ردت ويندا بحماس قائلةً:

- لقد قمنَ بمهام عديدةٍ خلال تلك السنوات؛ فقد شاركت نساءٌ كثيراتٌ ومن كافة الممالك في عمليات ميدانية خطيرة، كتدمير مصانع تعبئة أغذية مزودة بالمصل، وإفساد محاصيل زراعية ومنتجات ملوثة به قبل أن تصل للأسواق.

وأردفت قائلةً:

- وأيضًا اشتركنَ في عمليات لوجستية كبيرة لنقل المستلزمات والمؤن من وإلى جبهة المقاومة على الحدود، وقتما كانت في كامل نشاطها.

ثم استطردت ويندا تقول:

- وكان لنا الدور الأكبر في التوعية، فكما تعلمين أننا كنساء أكثر نشاطًا واجتماعيةً من الرجال، لذلك فقد كانت المقاومة تعتمد علينا بشكل كبير في نشر ثقافة التحرر بين أبناء الشعوب، في نطاق مدروس وبأساليب متقنة، وبالطبع كان هذا قبل أن يضيق التحالف الخناق تمامًا على جبهة المقاومة.

قالت ويندا جملتها الأخيرة ثم سكتت.

وهنا سرحت ريتال بخيالها طويلًا وهمت بالتحدث لويندا مرة أخرى، إلا أنها توقفت فجأة وقد لمعت في عينيها الجميلتين فكرةٌ خطيرةٌ دارت في عقلها، فأشاحت بناظريها ناحية زجاج السيارة كأنها تشاهد الطريق، لكن في الحقيقة فقد كانت تلك الفكرة ترتسم داخل وجدانها، كما يرتسم الطريق أمامها بشكل أفعواني صعودًا وهبوطًا.

وصلت السيارة لنفس المكان الذي صعدت منه ريتال إليها.

فقالت لها ويندا:

- والآن ستسلكين نفس الطريق إلى المتنزه لتمكثي هناك قليلًا، ثم تعودين إلى القصر من الباب الخلفي كما خرجت.

***

عادت ريتال إلى غرفتها، وبعد حمام دافئ أردت لباس النوم، ثم تمددت في فراشها تحاول أن تستوعب كل ما مرت به وتفكر فيما هو قادم، وفي كيفية خدمة المقاومة بأية طريقة.

أثناء ذلك سمعت طرقًا على باب الغرفة، فقالت "ادخل"، وقد عرفت من وراءه.

قال لها چواد وهو يهم بغلق الباب خلفه:

- كيف حالك يا حبيبتي؟

حاولت ريتال بقدر الإمكان إخفاء نظرة الغضب التي تكاد تنطق بها عينيها، وردَّت ببرود قائلةً:

- بخير.

ثم أردفت قائلةً بلوم:

- لماذا تتكرم عليَّ بحضورك الليلة، أليس هناك في شئون المملكة ما هو أهم مني؟!

رد قائلًا:

- لا يوجد عندي ما هو أهم منك يا ريتال، ولكن المملكة تمر بظروف صعبة جدًّا هذه الأيام.

فعقبت ريتال قائلةً:

- حسنًا يا أبي أنا أقدر مسئولياتك.

وكادت أن تدمع عيناها عندما حدثته عفويًا بحنان الأبناء قائلةً:

- ولو عصاك العالم كله عن طيب خاطر، فتأكد يا أبي أنني لن أعصيك إلا مجبورة ومغلوبةً على أمري.

وهنا توقفت فجأة؛ فقد انزلقت تلك الكلمات الأخيرة من لسانها دون أن تشعر.

لم يفهم چواد تلك التلميحات الصريحة في كلماتها، ولم يسعه حينها سوى السؤال عن سبب قولها ذلك، ثم شعر لوهلةٍ برجفةٍ في جسدها فاحتضنها سريعًا قائلًا:

- لا يوجد شيء يجبرك على هذا يا ريتال، ولن يقدر أحد على إبعادك عني أبدًا.

وبينما هما كذلك، انزعج چواد لشدة خفقان قلب ريتال وأحس بخوف شديد عليها، فقال وكأنه تنبه للتوِ لما ألقته على مسامعه قبل قليل:

- هل هناك ما تخفينه عني يا ريتال، ولماذا تبدين على هذا النحو، هل جد شيء هذه الأيام يثير في نفسك كل هذا الضيق والأسى الظاهرين عليك؟

وفي تلك اللحظة كانت رحى الصراع تدور على أشدها بين جوانب ريتال، مقسمةً كل خلجةً من خلجاتها إلى قسمين، أحدهما يقوده عنفوان التمرد والرفض لأبيها، أما الآخر فكان لا ينفك يلومها بشدةٍ على تلك النظرة القاسية في حكمها عليه.

وبين هذا وذاك، تنفست هي بعمق، ثم قالت في محاولةٍ مستميتةٍ للتغطية على كلماتها الأخيرة، وللملمة شتاتها أمامه:

- رأيتك مذعورًا للغاية في الصباح، وكذا البارحة، فقلقت عليك بشدة، وأصابني الأرق فلم أستطع أن أنم جيدًا طوال هذين اليومين.

وأشاحت بوجهها عن ناظريه ثم أردفت قائلةً:

- وخلال الأيام الفائتة لم تمر عليَّ إلا نادرًا.

رد عليها قائلًا:

- بالفعل توجد هناك بعض الأمور المستعصية التي أشغلتني عنك طوال تلك الأيام، آسف يا حبيبتي، أرجو أن تسامحيني وتغفري لي هذا.

سكتت ريتال ولم تقوَ على قول شيء، إلا إنها شدت على يده طويلًا.

قال لها چواد وهو يمسح على شعرها بحنانٍ بالغ:

- أنت لا تعلمين ما أفعله وما أنا بصدده الآن، من أجل الإبقاء على سلامتك يا حبيبتي.

تنهدت ريتال وردَّت بطريقةٍ مقتضبةٍ قائلةً:

- أعرف يا أبي.

فقال لها قبل أن ينهض مغادرًا:

- ولا تقلقي عليَّ يا أميرتي، ولا تدعي شيئًا يزعجك أبدًا.

وبعدما أغلق باب الغرفة خلفه، جلست ريتال وقد انهمرت الدموع من عينيها بغزارة،

وبعد قليل نهضت في تحدٍ وتوجهت للحمام، فغمرت وجهها بالماء البارد عدة مرات، ثم عادت لمضجعها وقد بدأت تلك الفكرة التي رسمتها في مخيلتها أثناء عودتها من البيت الآمن في التجسد أمامها شيئًا فشيئًا.

***

القِدْر

وفي منتصف الليل تقريبًا كانت الأوراق بين يدي يزن يتصفحها باهتمام.

وبخطواتٍ سريعةٍ دلف حجرة الاجتماعات، حيث يتواجد قادة المقاومة لمناقشة تلك المستجدات.

وبعد تمرير الأوراق فيما بينهم بدأ يزن بالتحدث قائلًا:

- إن حلمنا بات يتحقق، وكما يتبين من أوراق العلماء، فقد ساهم كفاحنا في تنشيط عقول الناس بشكل كبير.

ثم أردف قائلًا:

- لقد سرنا على الدرب الصحيح، ولم يذهب مجهودنا سدى، وحان الوقت لقطف ثمرة نضالنا الطويل.

وهنا تحدثت (چايدا) وهي إحدى أهم قادة المقاومة، والمسئولة الأولى عن التجنيد والأمور الاستخباراتية، قائلةً:

- إن ما يحدث الآن من وجود حالات عصيان في بعض المصانع وعلى صعيد الممالك كلها يؤكد بالفعل بداية زوال تأثير المصل، وقد وردني في آخر تقرير من أحد العناصر المندسة في مصنع كبير بمملكة أرابيتا، حدوث تجمع منظم لبعض العمال للمطالبة بتخفيف العبء عنهم، بعد إصابة أحدهم أثناء العمل، أتصدقون هذا؟!

ثم استطردت قائلةً:

- لقد كانوا قبل عهد قريب لا يحركون ساكنًا حتى لو مات زملاؤهم أمام أعينهم، جراء الأعمال الشاقة والخطرة التي يقومون بها.
قال يزن:
- وبالرغم من قلة عدد الثائرين ضد نظام العمل في المصانع حتى هذه اللحظة؛ إلا إنه قد يكون نواةً وصيحة استيقاظ لعدد أكبر.
ثم استطرد قائلًا:
- ووفقًا لتوصيات العلماء في أوراقهم، سيكون لزامًا علينا توجيه كافة جهودنا لاقتحام المنشآت الإعلامية المشتركة في الممالك الثلاث والسيطرة عليها تمامًا، بالتزامن مع زوال تأثير المصل، حتى تكون ضربتنا قاضية للتحالف.
وفي حماسٍ شديدٍ قال أحدهم:
- ألا تعتقدون أنه قد حان الوقت للبدء في بث قناتنا التي أعددناها لمثل تلك اللحظات الحاسمة؟
رد عليه يزن قائلًا:
- نعم بالفعل، القناة ستكون مؤثرةً جدًّا، ولكن هذا أمر لا بد من أن نُعدَّ له جيدًا؛ فكما تعلمون، فحكام التحالف يعتقدون الآن اعتقادًا راسخًا بأنه لم يعد للجبهة أية خطورة، وأن نشاطها قد انحصر في توزيع المنشورات، لذا فلا يجب إيقاظهم من غفلتهم تلك إلا إذا تأكدنا أن الأوضاع تسير في صالحنا على نحو كبير.
رد (يولاند)، وهو أحد القادة المخضرمين، ويعد بمثابة عرَّاب المقاومة، معقبًا على كلام يزن قائلًا:
- صحيح، يجب أن نحسب لتلك الخطوة جيدًا، خاصةً وأنه لم تتضح الصورة بعد بالشكل الذي يساعد على فهم ما يحدث بالكلية، ولهذا فلا بد أن نرتب خطواتنا جيدًا حتى تؤتي بثمارها.

ثم أردف قائلًا:

- وعلى كلٍّ سنضع مسألة القناة في الحسبان.

وهنا تحدث أحد قادة المقاومة قائلًا:

- إذًا سنبدأ من الآن بزيادة نشاط توزيع المنشورات، لعمل زخم لحالات العصيان تلك.

وهنا ابتسم يزن ابتسامةً مشرقةً وهو يقول:

- حسنًا يا رفاق، سنطبخ طبختنا كالآتي:

أولًا، تكثيف توزيع المنشورات، والتي ستمثل التوابل التي ستزيد من تفاعل الناس، مع ملاحظةٍ دقيقةٍ لتحركاتهم، فإن خرجت الأمور عن سيطرة التحالف تبدأ المرحلة الثانية، فنقوم ببث قناتنا لكافة شعوب الممالك، لإعلانها ثورة ضد حكام التحالف، وسيكون هذا بمثابة رفع الغطاء عن القِدْر للسماح بحدوث فوران شديد من كل اتجاه، لنبدأ بعدها مباشرةً في تنفيذ المرحلة الثالثة.

وهنا اعتدل يزن بصورة تنبئ عن أهمية ما سيطرحه، وأخذ نفسًا عميقًا ثم استطرد قائلًا مشددًا على كل كلمة من كلماته:

- وعملًا بمقولة الصيني (سون تزو) في كتابه (فن الحرب): "قم بعمل ضجيج من الغرب، ثم هاجم بقوة من الشرق"، سيتم تجميع كافة رجال المقاومة من خارج الممالك وداخلها إيذانًا ببدء ساعة الصفر، وستكون مهمتهم بناءً على ما أورده يوناس من معلومات عن تمركزات الكمائن، هي اقتحام منشآت التحالف الإعلامية والسيطرة عليها، مستغلين حالة الارتباك الشديد للتحالف وتشتت جهود قواته في محاولة السيطرة على التجمعات والحشود، التي نأمل أن تكون حينها قد تصاعدت بالشكل المطلوب.

ثم نهض وأحضر خريطةً كبرى للبدء في إعداد مراحل الخطة.

وهنا دلف إليهم أحد رجال المقاومة، جارًا عربة عليها سرفيس كبير، تتطاير منه أبخرة لها رائحة زكية جدًّا، ليضع أمام كلٍ منهم لفافة طعام كان يزن قد أعده لهم بنفسه كعادته قبل وصولهم بلحظات.

قال أحد رجال المقاومة:

- في الوقت المناسب تمامًا؛ فقد كنت على وشك تناول عشائي عندما اتصلت بي لتبلغني أن رجلنا تسلم الأوراق وفي طريقه إليك، فجئت مسرعًا دون أن أضع في جوفي لقمةً واحدة.

فابتسم يزن قائلًا:

- سنأكل في مكاننا هذا ولن نبرح هذه الحجرة حتى ننتهي من إعداد تفاصيل خطتنا كاملة.

ثم أردف قائلًا وهو يهم بتناول لفافته:

- لا سيما وقد فتح الحديث عنها شهيتنا تمامًا.

فابتسموا بود وشرع كل منهم في فتح لفافة طعامه.

***

المتنزه

وفي القصر ولعدة أيام، كادت ريتال أن تجن من الفضول، فهي تريد أن تعرف ماذا يدور الآن في شأن المقاومة؛ خاصة وإنها لا تكاد ترى يوناس في تلك الأيام إلا نادرًا، حيث كان ملازمًا لأبيها طوال الوقت، في اجتماعاتٍ دائمةٍ للوصول لحل للسيطرة على موجات العصيان التي كانت آخذه في التصاعد بشكل سريع.

وفي هذا اليوم قررت هي الأخرى عصيان كل الأوامر الجديدة التي ألقاها عليها أبوها بعدم مغادرة القصر نهائيًا في تلك الظروف التي تمر بها المملكة.

واستطاعت الخروج خلسة من الباب الخلفي للقصر كما علمها خالها يوناس، ومن ثم توجهت للمتنزه.

وبينما هي جالسة تتأمل بعض الزهور، لمحت شخصًا قادمًا من بعيد.

في البداية أحست بالذعر، ولكن سرعان ما بدأ يتبدل هذا الإحساس نوعًا ما إلى طمأنينة، عندما لمحت تلك السترة البنية القطيفة، وذلك البنطال الأزرق الداكن اللذان تعرفهما جيدًا، وبعد بضع ثوانٍ اقترب قليلًا، وشيئًا فشيئًا بدأت ملامح وجهه في الانكشاف لها، وحينها ارتاحت كثيرًا.

نظرت ريتال في عينيه فشعرت بتلك السكينة التي كانت تلازم حضور هذا الشخص على الدوام، فقد كانت تألف وجوده في هذا التوقيت، وكانت تشعر بانجذاب غريب نحوه.

وفي هذه اللحظة خطرت ببالها فكرة مجنونة جدًّا.

وقالت محدثة نفسها:

- لم لا أحاول التحدث إلى هذا الشخص؟ فقد يستيقظ ويتحرر؛ خاصةً وأنا أشعر أنه يمتلك إحساسًا مرهفًا رغم ما يبدو عليه من تبلد وغباء.

فقد كانت تراه من الداخل شخصًا آخر، وتري حزنًا واضحًا على ملامحه يحاول دومًا إخفاءه وراء نظراته الباردة.

وحسمت أمرها سريعًا في تنفيذ هذه الفكرة، فتحركت حيث كان واقفًا، ومن ورائه همست بعدة كلمات.

***

تيام

كان (تيام) في منتصف الثلاثينات، قوي البنية، وسيم الملامح، متوسط الطول،

بشرته خمرية تميل إلى البياض، وله عنق طويل نسبيًا ووجهٌ مستطيل،
وكانت ذقنه مدببة، وأنفه بارز قليلًا، ويمتاز بعينيه البنيتين الواسعتين ذاتي البريق الساحر، وله شعر أسود متوسط النعومة يبقيه قصيرًا على الدوام.
يعيش تيام وحيدًا في منزل كبير إلى حد ما، يقع بعاصمة مملكة أرابيتا، ورثه عن عائلته العريقة.
وفي سن السادسة عشر فقد أسرته إثر حادث سرقة عنيف تعرضت له، أثناء الأزمات الطاحنة التي مرت بشعب المملكة، إبَّان سنوات الحرب وما صحبها من فقر ودمار.
وقد حدث هذا قبل عامٍ من توقف الحرب وبدء تناول المصل الأول الذي ساهم بنجاح في توقف كل تلك الجرائم العنيفة.
بعد هذا الحادث قرر تيام زراعة بعض الزهور في الجزء المتهدم من المنزل (إثر سقوط إحدى القذائف بالقرب منه)، والذي كان في السابق حديقة غناء، اعتنت بها عائلته جيلًا بعد جيل.
في البداية كانت مجرد رغبة لتزيين المكان، لكن مع الوقت بدأ يدرك أنها أعمق من ذلك بكثير، فقد بات ذلك علاجًا له يشفيه من أحزانه، فتعلم تيام زراعة أغلب ما يحتاجه في الحديقة التي كان يرويها من بئر قديم يقع في وسطها.
وقد حال ذلك دون قصد من تراكم المصل الثاني في عقله فيما بعد.
وحتى بعد استيلاء چواد على الحكم وإصدار أوامره فور بدء مؤامرته بحظر الزراعة بأي شكل من الأشكال إلا بإشرافٍ كامل من المملكة، وذلك بكل تأكيد لضمان ريها بالماء المزود بالمصل، فقد بقيت هذه الحديقة مخفيةً عن العيون، وذلك لأن سياسة المملكة في عهد چواد انصبت على توجيه كافة الجهود لإنشاء ترسانته الحربية على أكمل وجه، لذا فقد ظلت المنطقة التي يحيا بها تيام بأطلالها المخيمة عليها دون تدخل، كحال أغلب مناطق العاصمة والمملكة ككل.

لعبت الصدفة أيضًا دورًا كبيرًا في إخفاء تلك الحديقة؛ فمع الزمن نبتت أعشاب كثيفة بشكل عشوائي بين الحطام الذي علاها، مما أخفى ما قد يظهر من أشجارها، لذا فلم يكن هناك شيء لافت للنظر بشأنها بأي حال من الأحوال.

أتم تيام دراسته للفلسفة في سن الواحد والعشرين، وكان ذلك في أواخر عام 2170، أي بعد استيلاء چواد على الحكم ببضعة أشهر، وعندما أوشك على العمل كمدرس في مدارس المملكة، كان الأخير قد أصدر أوامره بمنع تدريس بعض العلوم والمواد، والتي كان من ضمنها الفلسفة، فاضطر حينئذٍ للعمل كموظف في أحد الأقسام الإدارية بإحدى المدارس.

وفي بداية الشهور الأولى للمصل الثاني، لم يكن تيام يكترث لحالة الانصياع التام التي بدأت تظهر على كثير من الأفراد حوله وكان يُرجع ذلك إلى أجهزة الإعلام والملصقات التي تملأ الشوارع وتوجه الناس لطاعة الحاكم.

تعايش تيام مع وحدته، وأثرى حياته بنشاطات حافظت على وعيه وقوة عقله، فكان يقضي أوقاته بعد عودته من عمله بين القراءة وممارسة الرياضة والزراعة، غير عابئ بما يحدث حوله، لذا فقد كان دون أن يدري بمنأىً عن أعين المراقبين الذين كانوا يفرزون أفراد الشعب باستمرار حسب درجة تأثرهم بالمصل.

وحتى مع بدء انتشار حركات التمرد في المملكة، وعندما وقع بين يديه إحدى تلك المنشورات التي تكشف سر المصل وحجم المؤامرة التي دبرت للشعوب، لم يهتم كثيرًا، غير أنه بات حذرًا، وساعده نمط حياته على إخفاء حقيقته.

عمل بعد ذلك على تحلية مياه البئر الموجود بحديقته، ليحصل منه على ماء صالح للشرب، عوضًا عن عبوات المياه الجاهزة التي كان يحضرها من الأسواق، وذلك وفقًا لنصائح وتوجيهات جبهة المقاومة في منشوراتها، مع بداية نشاطها في العام الثاني

للمصل، تلك المنشورات التي وضح فيها مهندسو الجبهة طريقة استخراج وتحلية المياه الجوفية، وبهذا لم يعد يعتمد على أي مصدرٍ ملوثٍ بالمصل في تغذيته.

عاش تيام بين عمله ومنزله، والمتنزه الذي نادرًا ما كان يتردد عليه، إلا إنه قبل أكثر من عام بات يداوم على التواجد في الميعاد الذي تحضر فيه ريتال غالبًا.

وبالرغم من أنه كان يتمني أن يتحدث إليها في كل مرة يراها، إلا إنه لم يحاول يومًا أن يبدي لها هذه الرغبة، أو حتى يشعرها بأنه يراها؛ فقد كان يعرف كيف يبدو لمن يشاهده وكأنه فرد عادي من أفراد الشعب مسلوبي الإرادة.

ولكن كل هذا تغير في اليوم الذي فوجئ بها تقترب منه وتهمس إليه.

***

الشرنقة

- وراء تلك المعاناة والآلام، يوجد سكون لا نهائي، بالتقبل تعبر لهذا السكون.

عش هناك، وراقب الأنا وهي تزول.

همست ريتال بتلك الكلمات إلى تيام الذي كان واقفًا كتمثالٍ أصم، ولم يبد أي ردة فعل.

من ناحيته فهم أنها تحاول أن تختبر مشاعره لترى مدى وعيه، فكان قلبه ينتفض بقوة، ولكنَّه مع ذلك ظل واقفًا بلا حراك.

شعرت ريتال بخيبة أمل، ولكنها قررت أن تستمر، فأمالت رأسها نحوه قليلًا وعادت تقول:

- أعلم تمامًا هذا الشعور الذي بداخلك، ذلك هو الإحساس الذي ينشأ من مقاومتك للواقع الذي نشأت فيه، الإحساس الذي لا تستطيع أن تفسره، ويصعب عليك تجاوزه أحيانًا

كثيرة، هذا الإحساس يتوغل في كل تفاصيل حياتك، ليشعرك بوجود خطأ في كل ما يدور حولك، وينمو داخلك.

يتماهى مع ذرات جسدك، فتتوحد معه، حتى تحب أن ترى حياتك كلها من خلاله، كأنه يقودك نحو عالم آخر.

أنت تتمسك به بالرغم من أنه يصيبك بالقلق والتوتر، لأن شيئًا في أعماقك يعرف أنه الحقيقة.

كاد تيام أن يلتفت إليها، ولكن الحذر منعه، فثبت مكانه.

فتابعت هي كلامها قائلةً:

- التفاصيل الكثيرة هي محاولة لتجميل ما هو مشوه وفارغ، فالرسمة الجميلة تكون واضحة رغم بساطة خطوطها، إنسانيتنا بدون التفاصيل التي تفرقنا تكون أجمل؛ فالإنسان يخطئ ويتعلم ويصحح نفسه، لينبع من داخله نور يرى به الطريق واضحًا، ويحلق فيه كطائرٍ حرٍ يغرد أنشودة جميلةً كُتبت في روحه، وتكونت ألحانها من تفاعله الجميل والبسيط مع الكون كله.

قالت ريتال كلماتها الأخيرة تلك، وانتظرت أي بادرة فهم منه، ولكنه لم يحرك ساكنًا.

فيئست وهمت أن تبتعد تاركةً إياه في شروده، إلا إنها تسمرت في مكانها حين سمعته يهمس قائلًا:

- هل ترين تلك الفراشة؟

إنها في مرحلتها الأخيرة للخروج من الشرنقة؛ فالفراشة تخرج من الشرنقة لترى النور وتحلق حرة.

وكذلك الإنسان حين ينعتق من الأنا ويعيش في تناغم مع الكون، فيحظى بوعي صافٍ ويذوق معنى الحب.

وهنا تسارعت ضربات قلب ريتال بشدة ولم تدرِ ماذا تفعل، فعلى صوتها قليلًا وهي تقول بانفعال:

- أنت، أنت.. ولكن لا يبدو عليك.. كيف؟!

فقاطعها تيام بسرعة هامسًا:

- أرجوك أخفضي صوتك.

ونظر حوله ثم قال:

- سأخرج من الباب الخلفي للمتنزه، وسأنتظرك هناك، تحركي بعدي بدقيقتين أو ثلاثة وتأكدي من أنه لا أحد يتبعك.

لم يدر تيام لماذا يغامر تلك المغامرة الخطيرة، وهو الذي عاش على مدار سنوات مبالغًا في الحيطة والحذر.

وتحرك.

وكأنه يوجه دفة سفينته إلى اتجاه جديد، متمردًا على أية رياح عاصفة، وراميًا بها في عمق أعتى الأمواج.

***

أتعجب ممن ينكر العشق، فهو كثلج ينكر أن أصله ماء

وبمجرد خروج ريتال من الباب الخلفي للمتنزه، أشار لها تيام، فتوجهت حيث كان واقفًا ثم تحركا معًا قاطعين عدة شوارع بين البيوت القديمة.

حتى توقف تيام.

وهنا بادرته ريتال قائلةً:

- لقد كنت آمل أن أحرك فيك ولو شيئًا بسيطًا من الإدراك، ولكنني تفاجأت بردك الذي نم عن وعي وتحرر حقيقيين، وكأنه لم يطلك شيء من هذا المصل بالمرة، بالرغم من إنك تبدي عكس ذلك. أنا متحيرة جدًّا، ما قصتك؟

نظر لها تيام، فلأول مرة يراها بهذا القرب.

كانت ترتدي فستانًا زهري اللون يمتاز بالبساطة والأناقة، تموج ألوانه مع بياض بشرتها فتزيدها نضرة ورقة، وكان وجهها دائريًا، يتوسطه أنف صغير، ولها عينان واسعتان لونهما عسلي يميل إلى الخضار، وشعر بني به شيء من الحمرة، وقد تركته في هذا اليوم حرًا ينسدل على كتفيها، وكانت أقصر منه قليلًا وعلى قدر من النحافة.

كان جمالها أخاذًا، سحره لبرهة ولكنه سريعًا ما أفاق من سكرته فرد عليها قائلًا:

- نعم، أنا نقي تمامًا من أي أثر للمصل، وأعلم أنك أيضًا كذلك يا ريتال.

ردت قائلةً باندهاش:

- كيف عرفت اسمي؟

فقال:

- وأعرف أنك ابنة الحاكم.

ثم أردف قائلًا بلومٍ شديد:

- ولكن ما أجهله هو تصرفك المتهور اليوم.

قالت ريتال:

- حاولت أن أمنع نفسي ولكنني لم أستطع.

قال تيام مستنكرًا:

- وما يضمن لك أنني سأتجاوب معك، ألا تدرين أن إعلام أبيك قد ملأ عقول الناس بأكاذيبٍ حول المنيعين والمتمردين، ألم تخشي من ردود أفعالي في حال ما كنت مسلوب الإرادة تمامًا؟

أو إذا كنت من جواسيس التحالف الذين لا يهمهم كونك ابنة الحاكم من عدمه؟

وزادت حدة صوته وهو يقول:

- ألم تضعي أية احتمالات في حسبانك؟

ردت ريتال بصوت منخفض، وقد شعرت بخطورة ما أقدمت عليه، فقالت:

- حسنًا، فهمت، أنا متأسفة.

وانتابتها رعشة خفيفة وهي تردف قائلةً:

- إن ما فعله أبي تجاه هذا الشعب يكاد يفتك بعقلي وقلبي، ولا أستطيع التوقف عن التفكير في فعل أي شيء لإيقاف هذه الجريمة النكراء.

وأخذت تبكي وهي تردد:

- أي شيء.. أي شيء.

وهنا أمسكها تيام من كتفيها، فقد كانت تترنح من شدة تأثرها، ودون تفكير احتضنها، لتترك جسدها يهوي بين ذراعيه.

وبعد برهة هدأت قليلًا فتخلصت من ذراعيه بلطف ثم نظرت إليه قائلةً:

- من أنت؟

وقبل أن يتفوه بكلمة عادت تقول له بسرعة:

- وكيف تعرفني؟

نظر لها تيام مترددًا، ثم ما لبث أن حدثها عن نفسه باختصار، حتى ختم كلامه قائلًا:

- وحاولت أن أظل هكذا، ولكن أجبرتني الظروف يومًا ما على تقديم مساعدةٍ لخالك يوناس في أمر يتعلق بالمقاومة.

لمعت عيني ريتال وتحدثت بسرعة قائلةً:

- اممم، أتحدثني عن الحذر وقد كشفت أمامي للتو أن خالي يعمل مع المقاومة؟

قال لها باسمًا:

- أولًا، أنا أعلم تمامًا مدى حبك له؛ فحتى لو كانت هذه أول مرة تعرفين بعلاقته بالمقاومة، فلن تشي به أو تفعلي أي شيء يضره.

ثانيًا، من بضعة أيام كلفني خالك بمرافقتك دون أن تشعري أثناء ذهابك لركوب السيارة التي أقلتك من منطقة قريبة من هنا، وأيضًا عندما عدتِ راقبتك حتى دخلت المتنزه، وبالرغم من أنني لا أعلم بالتحديد ماذا كنت تفعلين؛ إلا أنه بالطبع أمر يخص المقاومة، وبذلك استنتجت أنك تعرفين بأمر خالك.

قالت له ريتال:

- حسنًا، غلبتني.

ولاحت نظرة شغف من عينيها وهي تستطرد قائلةً:

- والآن أخبرني متى قابلت خالي أول مرة، وكيف ساعدته؟

فابتسم تيام بمكر قائلًا:

- لا، ليس ضروريًا.

قالت له بإلحاح:

- ولكنني أريد أن أعرف.

وابتسمت وهي تقول له بنبرة طفولية:

- من فضلك يا تيام.

فقال لها:

- حسنًا، ولكن بشرط أن تتوقفي عن مقاطعاتك اللوذعية تلك.

فأومأت برأسها بطريقة مضحكة، فابتسم لخفة ظلها، ثم تنحنح مرتين أو ثلاثة قبل أن يتحدث قائلًا:

- كما أخبرني خالك يوناس؛ فقبل ما يزيد عن عام، وتحديدًا في تلك الأيام التي تم فيها تضييق الخناق على جبهة المقاومة إلى أبعد الحدود، وعندما وصلت إليه معلومات تفيد

بأنه تم تحديد مكان قادة المقاومة وبعض البيوت الآمنة من قبل التحالف، وأنه لم يبق سوى ساعات وتتحرك القوات للانقضاض عليهم، ولما كان التواصل عبر اجهزة الاتصالات بين رجال المقاومة منقطعًا تمامًا لخطورته الشديدة.

قرر خالك -وبالرغم من حظر التجوال الذي كان مفروضًا على كل أنحاء المملكة حينها- أن يغامر بالتوجه لأحد البيوت الآمنة في العاصمة، لتسليم تلك المعلومات لعناصر المقاومة، والتي بدورها ستنطلق في الحال إلى قادتها للعمل على اتخاذ التدابير اللازمة في أسرع وقت.

وأثناء ما كان يمر بأحد الشوارع في طريقه للبيت الآمن، ظهرت فجأة دورية من دوريات التحالف مقبلة من نهاية الشارع.

وهنا سكت تيام؛ فقد بدأت تهب نسمات هواءٍ حولهما لفحت وجهيهما بلطف، فأخذ يطيل النظر إلى ريتال وقد خيل إليه أن حسنها يزداد وضوحًا، وكأن تلك النسمات قد أزاحت غطاءً رقيقًا عن ملامحها.

لكنه سريعًا ما أفاق من سكرته تلك، واعتدل قليلًا محاولًا التحرر من أسر جمالها، ثم تنفس بعمق وعاد يتحدث قائلًا:

- وكما ذكر لي خالك، فقد كان عليه التصرف بسرعة شديدة، لأنه لو تراجع فسيارة الدورية أسرع منه، وهي بالفعل تشق طريقها تجاهه، وسوف تلاحظه بكل تأكيد خلال بضعة ثوانٍ، فينكشف أمره وتفشل مهمته في تحذير قادة المقاومة.

نظر حينها حوله ليجد على يمينه منزلًا به جزء متهدم، فتسلقه على الفور عله يجد مخبئًا بين أطلاله.

وعندما صعد، أزاح بصعوبة بعض الحطام الذي رأى أنه يمكن إزاحتها، ثم قفز سريعًا داخل الحديقة.

وفجأةً ظَهَرْتُ أمامه؛ فقد شعرت بحركةٍ ما في الحديقة، فهرعت لأتبين ما يحدث، فحياتي وإرادتي مرهونتان بحذري الشديد، وتنبهي لأي شيءٍ قد يكشف أمر تلك الحديقة وبئر الماء المعدل بها.

وحينها وقف كل منا ينظر إلى الآخر برهبةٍ وحذر، وقبل أن أقرر ماذا سأفعل، بادر خالك بالتحدث قائلًا:

- أرجوك دعني أشرح لك، ولكن أولًا لندلف إلى المنزل؛ فالدوريات تمر هنا من آن لآخر وقد تسمعنا.

وقفت أنظر إليه مترددًا، وقلت في نفسي من هذا، وكيف سأتعامل معه؟ هل أتحدث معه بطريقتي المعتادة التي لا تخلو من تبلد مشاعرٍ متعمدٍ لإخفاء حقيقتي، أم ماذا؟ يبدو إنه... وهنا قاطع خالك سيل الأفكار التي انهمرت على عقلي قائلًا:

- أنا من المقاومة، دعنا ندخل البيت الآن، ولا تخف، فأنا لا أخاف من كشف حقيقتي إليك، فمن استطاع خلق هذا الجمال الذي أراه حولي فبالتأكيد يمتلك عقلًا حرًا، وقلبًا لا يخذل إنسانًا في مثل موقفي أبدًا.

كانت نبرات صوته صادقةً ومطمئنةً جدًّا.

قاطعته ريتال قائلةً:

- هذا هو يوناس، إنه أحن إنسان ستقابله في هذا العالم.

ابتسم تيام لها بحنان ثم تابع قائلًا:

- فتحركت معطيًا له المجال، ليدخل خالك فيجد بيتًا مرتبًا ذا أثاث راقٍ، ولاحظ وجود كتابٍ على مقعدٍ في مواجهة مدفأة من الطراز القديم، فقال لي:

- يبدو أنها أدواتك لمواجهة هذا الطقس شديد البرودة.

ثم نظر لي مبتسمًا بودٍ وهو يهم بالجلوس على أريكة قريبة.

وهنا توقف تيام وكأنه يعاود تذكر ما حدث في تلك الليلة، فاستحثته ريتال التي كانت تستمع له تارة، وتنظر لعينيه تارة أخرى فتغرق فيهما وهو يتلو كلماته، وقد ارتاحت بشدة لوجودها معه، فقالت:

- أكمل يا تيام، ماذا حدث بعدها؟

فعاد يقول:

- شرع خالك بالتحدث ثانية عن إعجابه بالحديقة، ووصف لي شعوره وقتما وطأتها قدماه، ثم أخذ يتحدث عن نفسه في عجالة وعن جبهة المقاومة التي كان من أوائل المنضمين لها في بداية تأسيسها، رغم عمله في بلاط الحكم وملازمته للحاكم، وأخبرني أن الجبهة أوشكت على التفكك، ثم حدثني كما ذكرت لك قبل قليل عن سبب تسلله لمنزلي بهذه الطريقة، وعن خطورة المهمة التي كان بصددها.

وعندما أنهى خالك كلامه، قلت له ما معناه أنني عشت في مأمن طوال هذه السنين لأنني لم أهتم يومًا بما يدور حولي، ولم أسعَ أبدًا للتدخل من قريب أو بعيد في أي شيء لا يخص شئون حياتي.

فقاطعته ريتال قائلةً:

- لماذا يا تيام؟

رد عليها قائلًا:

- حتى أحافظ على مقدار الحرية التي ما زلت أحظى بها بين تلك الجدران، فأنا لا أعتقد أن هذا الشعب سينهض من رقاده أبدًا؛ فالمشكلة ليست مشكلة مصلٍ يا ريتال، فلا أمل فيهم البتة، ولو عادت إليهم حريتهم لعادوا لتمزيق بعضهم البعض وما وجد الطيبون مكانًا بينهم؛ لهذا فأنا أفضِّل أن يبقوا على حالهم هذا وألا يفيقوا كي لا يعيثوا في الأرض الفساد.

قال تيام كلماته الأخيرة في تأثر واضح، وهنا قالت ريتال:

- لا يا تيام، أنت مخطئ تمامًا. لا تجعل حادثة فقدان عائلتك تفقدك الإيمان بأثر الحب والعطاء، فلو أخلصنا في حبنا للناس لتغيروا، وهذا من سنن الحياة، وما حدث من أعمال عنف وسرقة في الماضي، كان نتيجةً لحرب دامية خلفت آثارًا مدمرةً في نفوس الشعوب، وصدقني لو حررناهم من المصل، فستجد أن أكثرهم يحبون الحياة والحرية ويريدون العيش في سلام، وسيرحبون بالتغيير الذي ننشده.

وتذكر أن المجرم الحقيقي هو أبي ومن حوله، وكل من عاونه من الممالك الأخرى. يجب أن يكون هؤلاء هم أعداؤك وليس هذا الشعب، أو شعوب الممالك الأخرى المغلوبة على أمرها.

وسكتت لهوينة ثم استطردت قائلةً:

- لقد ماتت أمي وأنا صغيرة على إثر حادثة اغتيال، وأعرف تمامًا معنى أن تفقد روحك ووجدانك مع فقدان من تحب، ولكن صدقني، لو بحثت حولك فستجد معنى الحياة يتحقق في نضالك في سبيل العدالة، وحبك اللامشروط للعطاء.

أطرق تيام رأسه في حزن، وأخذ نفسًا عميقًا وتنهد ببطء قائلًا:

- آسف لأنني أثقلت عليك.

قالت ريتال:

- لا عليك يا تيام، ولسوف نكمل حديثنا لاحقًا، فأنا أرى أن حاجتك للتحرر من أحزانك هي كحاجة الشعوب للتحرر من المصل، فتلك الحرية التي تظن أنك تملكها ليست إلا سجنًا، بينما الحرية الحقيقية لا تكتمل إلا بتحرير كل ما يقع خارج تلك الجدران.

وسكتت برهة ثم أردفت قائلةً:

- والآن يا تيام، فلتكمل لي ما دار بينك وبين يوناس.

كان تيام يحدق فيها متأملًا ومتحيرًا من انجذابه الشديد لكل ما تقول.

إن نمط حياته (ممارسة الرياضة والقراءة والزراعة) وإن ساعده كثيرًا في تخطي أحزانه، إلا إنه لم يكن كافيًا لتحريره من معاناته، فها هو ما زال يلقي باللوم على هذا الشعب لاعتقاده أنه السبب فيما حدث له، وإلى الآن لم يقدر على المسامحة والمضي قُدمًا.

كان يريد أن تظل ريتال تتحدث وأن يظل هو ينظر إليها؛ فقد شعر براحةٍ تامةٍ لكلماتها، ولكنه ما لبث أن استطرد يكمل لها، فقال:

- وبعدما أوضحت لخالك موقفي، عدت فطمأنته قائلًا:

- على كل حال لك مني الأمان، ولي منك أن تنسى أنك رأيتني، وعندما تجد أن الوقت مناسب، انطلق إلى مبتغاك، ومساعدتي لك ستنتهي عند باب منزلي.

كنت جادًا وأنا أتحدث، ولم يرَ خالك بدًا من التوقف عن النقاش معي وقتها، خاصةً بعدما أعدت تشغيل الموسيقى، وجلست على المقعد المقابل للمدفأة ممسكًا بالكتاب الذي كنت أقرأ فيه، وكأنه لم يحدث أي شيء في تلك الدقائق الأخيرة.

وكأنني عدت لعالمي وأغلقت الباب خلفي، في لفتة صريحة إليه بعدم إضافة أي شيء آخر، لكن في الحقيقة يا ريتال قد أحسست أن شيئًا قد تغير داخلي بعد تلك الليلة.

فقالت ريتال:

- ولكنك لم تذكر لي كيف تعرفني هكذا؟

قال لها تيام:

- جاءني خالك بعد ذلك بعدة أيام، لكن هذه المرة من الباب، ولا أدري لماذا سمحت له باقتحام حياتي الهادئة مرة أخرى، ولماذا أحببت رؤيته والتحدث معه!

ووجدتني أسأله دون أية مقدمات عن مهمته التي كان بصددها، فأخبرني بأنه نجح فيها وأن قادة المقاومة بأمان، مثنيًا بشدةٍ على دوري في هذا.

ثم سألني عن اسمي؛ فلم أكن قد أعطيته الفرصة في المرة السابقة ليعرف.

ولما اخبرته قال لي:

- اسمع يا تيام، لعلك تريد أن تعرف السبب الحقيقي لبقائي بالقرب من چواد.

ونظر تيام إلى ريتال قائلًا:

- وهنا يا ريتال حدثني عنك، وأخبرني بأنك السبب الوحيد لبقائه بالقرب من أبيك، وذلك لكي يشرف على تربيتك بنفسه، تنفيذًا لوصية أمك.

وأخبرني أيضًا أنك متهورة أحيانًا، وطلب مني أن أراقبك من بعيد أثناء تواجدك بالمتنزه؛ فقد كان شديد الخوف عليك.

ووجدت نفسي أوافق بدون تفكير، ليس لأن المتنزه قريب من منزلي وأمر به أحيانًا ولن يكون الأمر صعبًا عليّ، ولكن لأنني أحسست برغبة غامرة في فعل هذا.

أحسست كأنه شيء انتظرته طويلًا وحان وقته.

ولم أكن أعرف حينها لماذا انتابني هذا الإحساس، صدقيني.

ولكنني عرفت الآن.

عندما همستِ في أذني بتلك الكلمات بكل شجاعة، عندما أمسكت يديك واحتضنتك،

وشعرت بأنفاسك الحارة على وجهي، وبنبض قلبك، عرفت لماذا، لماذا تخليت عن حذري بعد كل هذه السنين.

عرفت يا ريتال أن خالك عندما أزاح تلك الصخرة الثقيلة ليختبئ داخل بيتي، كان في الحقيقة يفتح بابًا في وجداني ليسمح للنور أن يدخل.

وعندما رأيتك أول مرة بدأ هذا النور يتسلل داخلي، نور غسل روحي، نور أشعر به الآن من حولي يحتويني داخله ويشعرني بالدفء...

لم يكمل تيام؛ فقد احتضنته ريتال بين ذراعيها، وأسكتته عن الكلام بقبلة طويلة ذابا فيها، في لحظة انصهرت بها كل معاني الحياة،

ليبقي معنىً واحد.

الحب،

والحب يكفي دائمًا.

***

حتى أجدك

وبعد يومين من لقائها بتيام، اختلقت ريتال عذرًا بالتعب، لتبقى في غرفتها فلا يزعجها أحد، لكنها في الحقيقة تسللت خفيةً خارج القصر.

فعبرت المتنزه، وسلكت طريقًا خاليًا إلا من بعض المارة هنا وهناك، وحسب وصف تيام لبيته في المرة السابقة قبل أن يودعها استطاعت الوصول إليه.

لم يصدق تيام عندما وجدها تطرق باب المنزل وتنادي عليه بصوت يكاد يُسمع، ففتح لها وهو يقول هامسًا:

- أمجنونة أنت؟

ردت عليه وهي تدخل من الباب:

- بل أحبك.

ثم أردفت قائلةً:

- سنكون معًا اليوم، ولا تقلق؛ فحجة غيابي عن الظهور خارج جناحي بالقصر متقنة، ولن يكتشف أحدٌ أنني لست بغرفتي.

أغلق تيام الباب وقد بات أمام الأمر الواقع.

أخذت ريتال تتجول في الحديقة قائلةً:

- إنها جميلةٌ حقًا يا حبيبي.

وجذبتها رائحةٌ مميزةٌ فاقتربت من بعض الزهور قائلةً:

- ها قد عرفتُ سرَّك، فمن هنا تصنع هذا العطر الجميل الذي يفوح منك.

وقفت سعيدةً تتأمل الأزهار والثمار، وكأنها تغذي روحها من جمال المنظر الرائع حولها، أو تستمع لنغم يأخذها لَحنُه إلى عالم آخر من السعادة الأبدية.

كانت الساعة تقارب الثالثة عصرًا، ولكنَّ شكل السماء يوحي بغير ذلك؛ فقد كان يومًا شديد البرودة، فوضع تيام يده على كتفها برفق قائلًا:

- هيا إلى الداخل يا ريتال فيبدو أنها ستمطر.

دلفت ريتال إلى المنزل، فدهشت كثيرًا لما ترى، وأخذت تتنقل بناظريها بين أرجائه معجبة برقي وجمال أثاثه العريق، وبينما هي كذلك فإذا بها تلمح بطرف عينها شيئًا مغطىً في أحد الأركان، فهتفت قائلةً وهي تتجه نحوه:

- أهذا بيانو؟

- نعم، كانت أختي تعزف عليه.

- هل تسمح لي؟

- لا يمكن، فكما تعلمين أنه لا يجب سماع إلا الموسيقى الوطنية التي تبث خلال قنوات أبيك الإعلامية، ولو تنامى إلى مسامع إحدى الدوريات صوت البيانو سيحدث ما لا يحمد عقباه.

- لا تخف، سأعزف لحنًا هادئًا لن يسمعه سوانا.

وافق تيام على مضض قائلًا:

- حسنًا، ولكن أرجوك يا ريتال لا تجعليني أندم، فلو حدث خطأ ما وانكشف أمرنا سيكون موقفي صعبًا جدًّا، وسيلقي يوناس باللوم عليّ. لقد وعدته بحمايتك، ولا أريد أن يظن بي سوءًا فأنا أحبه وأجلُّه كثيرًا، ولا أريد أن أحنث بوعدي له.

نظرت له ريتال بحنان قائلةً:

- هوّن عليك يا حبيبي.

وجلست على كرسي البيانو وبدأت تختبر مفاتيحه، حتى استطاعت أن تضبط يديها عليها.

وكانت ويندا زوجة خالها قد علمتها العزف على البيانو وغيره من الآلات الموسيقية، فبدأت ريتال تعزف مقطوعة لـ(يروما).

كان تيام يستمع وقد تبدل حاله، فزال أي خوف أو قلق، ولم يبقَ حينها سوى ريتال.

أخذ ينظر لها وتنظر له وهي تعزف، حتى انتهت من العزف وقد دمعت عيناهما، فقامت وتوجهت له وفي نفس اللحظة كان يتقدم تجاهها ليتعانقا في صمت.

إلى أن قالت له:

- "الذكريات في عيني".

نظر لها تيام متعجبًا.

فقالت:

- هذا اسم المقطوعة الموسيقية التي عزفتها لك يا حبيبي.

فقال لها تيام هامسًا:

- أتدرين ما الحب؟

لم تجبه ولكنها نظرت في عينيه، فأردف قائلًا:

- هو ذلك السر بين الحياة والزهرة، والذي يجعلها تتفتح بكل هدوء وسكينة.

هو ذلك الموج الذي لا يكل من تقبيل رمال شاطئ بعيد حتى نهاية العالم.

هو ذلك الإله الذي يغفر خطايا كل البشر دون أن أية شروط، لأنهم أولاده، وهو أبوهم الوحيد في هذا العالم الغريب.

أغمضت عينيها وطبعت على شفاهه قبلةً طويلة.

حاول بعدها تيام أن يقول أشياءً وأشياء، لكن هذه اللحظة أعجزته عن النطق؛ فقد كانت أنفاس ريتال المتلاحقة تنسيه كل شيء، وتصهر الأفكار في عقله، وكأنه بين ذراعيها ينجذب بقوة نحو أتون نار، أتون نارٍ مستعرٍ لا تستطيع أن تطفئه تلك الأمطار التي بدأت تنهمر في الخارج بغزارة، حتى خيل إليه أن مياه البحار مجتمعةً لن تطفئ هذا اللهيب

المشتعل، أو توقف زحفه واستحواذه على كل خلية في جسده، فلم يجد نفسه إلا وهو يدخله مستسلمًا، بل منقادًا بسحر العشق الأبدي.

***

وفي مساء ذلك اليوم، وبينما كانت ريتال جالسةً في أحضان تيام، همست له بحنان قائلةً:
- لقد تذكرت للتو قصةً روتها لي ويندا زوجة خالي كثيرًا عندما كنت صغيرة:
"كانت أرواحنا في الماضي تعيش حياةً جميلة، وكان يوجد نهرين، نهر ينبع من أصل الحياة ويرتقي إلى النور، ونهر طيني يمتد إلى الأرض.
وكان للأرواح حرية الاختيار.
نهلت بعضها من النور فذاقت المعنى الحقيقي للحياة وتعلقت بسرها.
وبعد النزول لعالم المادة ظل هذا الارتباط يؤرق حاملي هذه الأرواح.
حتى ساقهم لطريق النور، فهدأ الجسد بعد ترنح شديد، كسكون باطن أرض بعد بركان عنيف.
لأن تلك الأرواح اختارت هذا النهر قبل أن تعرف أجسادها معنى الوجود، لأن الوجود في الروح هو الأجمل والأبقى، بينما الوجود المادي هو مجرد شكل.. شكل ظاهري لا ينبغي أن يغرر بتلك الأرواح العظيمة التي اختارت بإرادتها أن تسمو وتستنير".
سكت تيام قليلًا ثم قال لها:
- اعتقدت دومًا يا ريتال أن الإنسان منَّا يحيا هذه الحياة لينسى، ينسى شيئًا بشيء آخر، وهكذا يعيش.
يداوي بحاضره ماضيه، ليتبخر مستقبله، كحلم يراوده كل ليلة وعندما يأتي الصباح لا يبقى سوى مشاهد ضبابية، يظل يحاول تذكر الحلم من خلالها دون جدوى.

لقد جرب كل شيء، كل شيء.

ولكن يظل هناك ما لا يستطيع نسيانه ولا يستطيع تذكره، يحول بينه وبين المضي قدمًا، ليبقى عالقًا بين خطىً مشاها سابقًا، وما زال يعود إليها من جديد، آملا يومًا أن ينسى..

أنه ما زال يحلم.

وأدار رأسه ناظرًا في عينيها وقال:

- حتى رأيتك يا ريتال، فما عدت أريد أن أنسى.

مسحت ريتال بيدها على رأسه بحنان بالغ، ثم نهضت متوجهةً ناحية البيانو لتعزف مرة أخرى.

لعبت مقطوعة لـ (ليروما) أيضًا، قبل أن تنهض وتعدل هندامها استعدادًا للمغادرة.

فقال لها تيام:

- لقد أعدت الحياة لهذا البيت يا ريتال.

فابتسمت له ابتسامةً عذبةً جميلةً وهي تتحرك نحو الباب الخارجي.

قال لها تيام قبل أن تخرج من الباب:

- ما اسم هذه المقطوعة الرائعة؟

فقالت:

- "حتى أجدك".

وقف ينظر إليها وهي تبتعد بين شوارع المدينة وأطلالها، حتى تلاشت تمامًا.

وهم بغلق الباب، وبينما هو كذلك جُرحت يده، وتدلت منها بعض قطرات الدماء، فأخرج منديلًا وكتم الجرح، ودخل إلى المنزل يبحث عن شيئًا ليطهره به، فوجده بارزًا وكأنه جرح قديم!

فتذكر كلمات (جلال الدين الرومي) التي تقول: "لا تجرح من جرحك، وإلا فكيف للنور أن يتسلسل إلى باطنك".

***

ستصل يا تيام

غابت ريتال عدة أيام، حتى استطاعت التسلسل مرة أخرى والذهاب لتيام، الذي كان مشتاقًا لها كثيرًا، فلم يسألها كيف خرجت ولا كيف ستبرر غيابها، بل جذبها إليه واحتضنها بشدةٍ قائلًا:

- لقد افتقدك كثيرًا يا حبيبتي.

أخذت ريتال تتجول في البيت، بينما عاد تيام إلى المطبخ ليكمل إعداد الطعام الذي كان بصدده.

وفي حجرة ملحقة بقاعة الاستقبال، وقفت ريتال أمام مكتبةٍ فخمةٍ مليئة بالكتب والمجلدات العلمية والأدبية.

تعرفت على الكثير منها؛ فقد كانت ويندا تحب القراءة وتشجعها على ذلك، وكانت لديهم مكتبة كبيرة في القصر.

ولكن ما استرعى انتباهها حقًا هو ذلك الدفتر الصغير الموضوع على طاولة قريبة من المكتبة، ففهمت أنه خاص بتيام، وانتابها الفضول الشديد، فسارعت بالتقاطه وبدأت تتصفحه.

وبينما تهم بالجلوس على أريكةٍ قريبةٍ وإذا بقطة تعبر بين قدميها بلطف، فانزعجت قليلًا ثم تبينت ما يحدث، وقالت محدثةً القطة وكأنها ستفهم:

- لقد افزعتني، من أين جئتِ يا صغيرتي؟

سمعها تيام الذي ابتسم قائلًا:

- هذه القطة تعيش معي منذ بضعة سنوات، واحذري فقد تغار منك.

ابتسمت ريتال، ثم قالت متعجبة:

- لكنني لم أرها في المرة السابقة.

- كانت مختبئةً من البرد في فراشها بالطابق الأعلى طوال اليوم، إنها قطةٌ كسولةٌ وتعشق الدفء جدًا.

قالت ريتال مبتسمةً وهي تنحني لالتقاطها:

- تخيل يا تيام لو أن الحيوانات تفهم لغتنا، واستمعت لقنوات أبي الاعلامية التي ليس لها أي هدف سوى السيطرة على العقول، فهل كانت ستطيعه هي الأخرى؟!

قال تيام على الفور:

- بل ستقودها فطرتها النقية إلى التمييز بين الصواب والخطأ، على عكس هؤلاء المنقادين الذين عطلوا أدمغتهم عن أية محاولة للفهم أو الاعتراض على ما يملى عليهم.

قالت ريتال:

- كن قاضيًا عادلًا. إن المؤامرة التي دبرت لهم محكمةٌ للغاية، ومع ذلك أنا واثقة أننا سننجح في تحرريهم يومًا ما، وستكون معي وقتها يا تيام.

قال تيام:

- أنا معك دوما يا حبيبتي، ولكن انخراطي في أمر أراه بلا جدوى هو العبث ذاته، وثقي بي عندما أقول لك إن چواد ليس سوى رمز، ولو اختفى سيبحثون عن رمزٍ غيره يدلهم على طريقة عيشهم وتفكيرهم، هذا شيء متجذر في طبيعتهم.

- لا تكن قاسيًا يا حبيبي وصدقني أنت، إذا تحرروا وأُعطيت لهم الفرصة، سيكونون أفضل مما تظن.

- ربما.

- ربما.

وقد آثرت أن تؤجل النقاش -الذي كانت مصرة بعنادها المعهود على خوضه- لآن آخر. ثم أردفت قائلةً:

- لقد أغرتني رائحةُ طعامك الذكية، هل ستتركني جائعةً هكذا كثيرًا؟

فقال لها مداعبا:

- ربما.

فضحكت مرددة كلمته:

- ربما.

ثم شرعت تقرأ في الدفتر، وقد ألفتها القطة ونامت في حضنها، مستمتعة بيد ريتال التي كانت تداعبها برفق بين حين وآخر.

وبدأت ريتال تقرأ في الصفحات الأولى:

"يبلغ الحزن منَّا أحيانًا مبلغه، فيطغى علينا إحساسٌ مريرٌ ونمضيٌ في الحياة بلا طاقة، لنعيش في انتظار الموت.

أقول لك بل مت الآن، اجعل كل إحساس فيك يأخذ مداه، وتقبله حتى يتلاشى.

دعه يتهاوى كأوراق الشجر الذابلة في الخريف؛ فهل رأيت يومًا شجرةً مثمرةً مزهرةً تتمسك بأوراقها الجافة التي لا حياة فيها؟!

كم خريفًا مر عليك وأنت ما زلت متعلقًا بتلك الأوراق الميتة؟!

انفضها عنك.

وأيًا كان ما ستخسره، فثق تمامًا أنه لم يكن جزءًا منك من البداية.

لا تحاول ترميم شيء، بل دعه يتداعى، دع النموذج كله يتداعى، واخرج من بقايا قشرته المتهتكة.

لتولد من جديد، لتشعر أن رونقًا جديدًا يحيط بكل شيء، فترى وتسمع وتلمس الحياة بروح صافيةٍ متجددةٍ.

ذلك لأن الحياة لا تعطي لأنصاف الأحياء فيها إلا نصف حياة.

فمت الآن، لتعيش حياةً حقيقية".

فهمت ريتال أن تيام عندما كتب هذه الكلمات، كان يحاول أن يتعافى من حزنه على فقدان عائلته، ونظرت له وهو منهمك في إعداد طاولة الطعام وقالت في نفسها: "إن هذا الإنسان الذي أمامي بنشاطه وعفويته وروحه المحبة، لهو قادر بالفعل على تخطي حزنه".

وهنا سمعته ينادي قائلًا:

- هيا يا ريتال.

فردت عليه قائلةً:

- حسنًا يا حبيبي.

وأحبت ريتال أن تعرف آخر ما كتبه تيام قبل أن تلبي نداءه، فتخطت باقي الصفحات حتى وجدت قلمًا، فخمنت أن هذه الكلمات هي ما كتبه مؤخرًا، فأخذت تقرأ في شغف:

"لقد حلمتَ بتلك الحياة كثيًرا.

شعورك كان حقيقيًا، كطائرٍ يتجول سعيدًا في حديقة جميلة.

لم تكن سوى حياةٍ تميزها البساطة، حياة تنبض داخلك برقة فتُحررك وتتوغل لأعماقك، لتريحك حتى تنسى التعب، حياة تنظر فيها صباحًا لمرآتك فتقول لنفسك: أنا هنا حيث أريد تمامًا.

فتحيا، وتحب، وتمرح، وتغني وترقص؛ وتلعب بحرية، بلا توتر أو خوف.

تحيا..

كطفل صغير يشاغب والديه، فيقبّلانه بسعادة، ويحتضنانه وهما يضحكان".

وفي الصفحة المقابلة قرأت:

"عندما وقفتُ في مفترق الطرق كان حبها هو طريقي، وابتسامتها جناحيَّ، وقلبها بيتي، يحتويني كعشٍ لطائرٍ ولد للتو.

تأتي هي لتثور على كل شيء، على الواقع والقدر، فتُغير عالمي.

.لم أعد أخاف، عند مفترق الطرق

عقلها نور عقلي.

طيف عينيها سَكَني.

تطعمني بكلماتها وتسقيني.

في ظلها أصلي لليالٍ،

وفي حضرتها تصوم جوارحي.

حتى أفنى فيها،

إذا مت فأنفاسها تحييني،

وروحها في الأفق تهديني..

عند مفترق الطرق".

ابتسمت ريتال، ثم أزاحت القطة بهدوء، ونهضت ذاهبةً لتيام بعد أن أعادت الدفتر إلى مكانه.

وبعد الغداء قال لها تيام:

- إن السماءَ صافيةٌ هذه الليلة، وتوجد نسمةُ هواءٍ جميلة، فتعالي نجلس في الخارج نستمتع بتلك الأجواء بالقرب من الحديقة.

وأحضر بعض الحطب لإشعال نارٍ تدفئهم، ولصنع الشاي.

قالت له ريتال بينما هو يعمل على إشعال كومة الحطب:

- ألا تخشى أن نحدث صوتًا قد تسمعه تلك الدوريات التي تمشط الشوارع باستمرار؟

قال لها تيام:

- ربما.

ثم التفت لها مبتسمًا وأردف قائلًا:

- وربما لا.

وبينما يرتشفان الشاي، أحسَّا باسترخاء ممتع؛ فقد كان صوت احتراق الحطب يتوغل شيئًا فشيئًا لعمق وجدانهما، معطيًا إياهما إحساسًا عجيبًا باللذة والدفء.

وبين الحين والآخر كانت تتطاير بعض الشظايا الصغيرة وترحل للسماء، وكأنها تودعهما برقة، مما أضفى على نفسيهما شعورًا غريبًا لكنه مبهجٌ ومريح.

اقتربت ريتال من تيام، فلف ذراعه حولها واحتواها، لتترك رأسها ترتاح على كتفه.

وبعد عدة دقائق قالت له هامسة:

- من أنت يا تيام؟

قال لها:

- كنت إنسانًا مجهولًا

عن روحي أجول

وعن نفسي أتكلم

بلا أمل في الوصول

حتى رأيتك أول مرة، ففهمت نفسي وعاد لي الأمل.

ثم أردف قائلًا:

- أوتعلمين يا ريتال، يوجد شعور غريب يلازمني.

وكأنني قطار لم يكن أحد من الراكبين يكمل رحلته معه حتى محطته الأخيرة أبدًا، كانوا يصعدون ويهبطون طوال الطريق، حتى المحطة قبل الأخيرة، وبعدها يتركونه وحده، لم يكن هذا القطار يعلم لماذا؟

في الحقيقة هو لن يعلم أبدًا.

لأنه في الأساس يأتي حتى المحطة الأخيرة وينسى أن يقف، ويتخطاها سريعًا إلى المحطة الأولى، ليصعد الركاب ويبدأ من جديد، وهكذا دواليك.

كان الجميع يعلمون هذا ويتركونه دومًا قبل المحطة الأخيرة، إلا هو لم يكن يعلم، أو لعلَّه يعلم ويخشى شيئًا ما في المحطة الأخيرة.

قالت له ريتال:

- ستصل يا تيام.

أنا أعرف أنك ستصل، لأن الحب هو قدرنا.

وشدت على يده قائلةً بصوت خافت:

- حبيبي.

كاد أن يرد ولكنَّها وضعت يدها على شفتيه وأكملت قائلةً:

- هل تحب الأرجوحة التي تصعد في الملاهي؟

هل تشعر بالفرح أثناء صعودها؟

هل تحب أن تظل تصعد وتطير بك إلى ما لا نهاية؟

حبيبي.

الحب هو أرجوحة في صعودٍ دائم، فدعنا نحلق معها ولا نخف أو نفكر في الهبوط إلى هذا العالم مرةً ثانية.

تعال إليَّ فمعي تذكرةٌ إلى تلك الأرجوحة، منذ الوجود وإلى الخلود هي لك، فتعال.

تعال نلهو.

نثرثر كالحمقى،

أو نصيح كالمجانين.

لا سطوة لهذا العالم علينا.

لا يحكمنا سوى قانون الحب.

لنسمو عاليًا،

كأرواح وجدت لتحب وتعشق.

دعنا نتحرر حتى ننسى كل شيء،

إلا أننا عاشقين.

ثم رفعت رأسها لتتلاقى أعينهما في صمت يحمل معانٍ أعمق من أية كلمات.

وبعد برهة عادت تقول:

- أريدك أن تبقى معي دائمًا، لأكون شمسك، أدفئك بحبي نهارًا، وقمرك، أنير لك بحبي ليلًا.

فقال لها:

- اتركيه ينهمر عليَّ.

أريد أن أغرق تحت زخات هذا المطر المتساقط، مطر الحب من عينيك.

وقبَّلها قبلةً طويلةً ثم احتضنها بشدةٍ وعاد ينظر في عينيها قائلًا:

- يسألونني كيف صار، وأين كان.

عن قلوب ترتقي فوق الكمال،

عن عيون في لقائها،

ترتوي بالحب أزهار الجمال.

كنت في عقلي أراه ضربًا من خيال.

كنت أحسب أن إدراكه محال.

حتى أضاء الكون شعاعُ نور،

من صدى شمس تشرق من ريتال.

***

دعها تذهب يا تيام

مرت هذه الأيام كلحظاتٍ عابرةٍ، خاض كل من ريتال وتيام خلالها مغامرةً جميلة، على إثرها استطاعت ريتال أن تشفي جراحًا عميقة، ونجحت في تغييره؛ بل وأقنعته بالانضمام للمقاومة.

وبموافقة وترحيب من خالها يوناس، الذي كانت قد أخبرته هو ويندا بحبها لتيام.

استعد الأخير للتوجه خارج المملكة بصحبة أحد رجال المقاومة لتلقي التدريبات المكثفة، قبل إشراكه في العمليات الهامة التي كانت تجهز لها المقاومة.

وقبل الرحيل ودعته ريتال قائلةً:

- أذكرك بكلماتٍ قرأتُها بدفترك ذات مرة يا حبيبي:

"لكي تكون حرًا خفيفًا، تنفس بعمق.

عش بكل جوارحك ومشاعرك في كل لحظة، كأنها غايتك وسبب وجودك.

انسَ ما مضى، ولا تفكر فيما هو قادم؛ فهذه اللحظة هي كل ما تملك.

انظر بتركيز واستمع بانتباه، لتكون حاضرًا فيكتمل بناء الحياة فيك،
شاعرًا بها تسري داخلك وتتوغل، حتى تصبح أنت الحياة.
إننا لا نعيش الحياة، بل الحياة هي التي تعيشنا.
نحن رقصتها، والحياة هي الآن.
وأيًا ما كان ينشأ في هذه اللحظة الآن، فتقبله".
وأنهت كلامها قائلةً:
- قد لا نجتمع كما تعودنا، ولكننا لن نفترق أبدًا يا تيام.
ولكن تيام الذي بدأت دموعه المحبوسة تظهر شيئًا فشيئا من مقلتي عينيه، نظر إلى السماء قائلًا:
- صدري يزفر هُونًا هُونًا، كسفينةٍ بخاريةٍ نفد الفحم منها.
نعم، كل شيء معادٌ ومكرر، ولكننا ننسى.
كتلك السفينة البالية، التي بقت من أسطولٍ قديم.
لا تريد أن تستسلم، حتى الآن.
ما زالت تصر على أن تواجه أمواج البحر الهادرة، مع إنها واقفةٌ تزمجر بضعف، واقفةٌ مُذ انتهى أسطولها، ولكنها نسيت أن ترحل معهم إلى النهاية، فظلت عالقةً بين الحلم والموت..
كصدرٍ يزفر ولا يلقى شهيقًا.
قالت له ريتال مرددةً بصوتٍ عميقٍ بدا وكأنه يأتي من عمق هذا الكون الفسيح:
- دعها تذهب يا تيام.. دعها تذهب يا حبيبي.
ودنت منه ممسكةً يديه تشد عليهما برقة ووداعة، ثم قالت له هامسةً:
- سيفتح لك الباب يومًا يا تيام، فإن كنت صبرت حتى الوصول إليه، فالأولى لك أن تصبر حتى يفتح لك؛ فقد أوشكت أن تدخل.

ثم تعانقا للمرة الأخيرة وذابا في قبلةٍ طويلةٍ قال عنها (المتنبي):

"قَبَّلتُها وَدُموعي مَزجُ أَدمُعِها

وَقَبَّلَتني عَلى خَوفٍ فَمًا لِفَمِ

فَذُقتُ ماءَ حَياةٍ مِن مُقَبَّلِها

لَو صابَ تُربًا لَأَحيا سالِفَ الأُمَمِ".

***

الميدان

كانت المقاومة قد عادت للعمل على قدم وساق من جديد، ونجحت بالفعل في توزيع منشوراتها في كل مكان استطاعوا الوصول إليه في الممالك الثلاث، فازدادت حالات التمرد، وبدأت الحشود بتنظيم صفوفها والتوافد على الميادين، وأصبح التحالف في مأزق كبير.

ودأب حكام الممالك على عمل اجتماعاتٍ مستمرةٍ للتباحث في الطريقة التي سيستعيدون بها السيطرة على إرادة الشعوب مرةً أخرى، وإيجاد حلٍ لضعف تأثير المصل؛

فقد كانت قوات التحالف تبذل قصارى جهدها لإعادة الناس للمصانع، ولكن دون جدوى.

كان كل شيء يوحي بأن عصر چواد والتحالف برمته على وشك الانهيار.

وذات ليلة دخل يوناس جناحه في القصر فقال لزوجته ولريتال:

- جيدٌ أنني وجدتكما معًا، الآن اتبعاني إلى الغرفة بسرعة.

وما أن تأكد من غلق الباب خلفهما حتى تحدث فرِحًا قائلًا:

- لقد انتشرت حالات التمرد في كافة أرجاء الممالك.

ونظر لريتال قائلًا:

- لقد أثمر دورك أيما إثمار أيتها البطلة الصغيرة.

ردت ريتال قائلةً:

- وما الذي سيحدث بعد ذلك؟

رد يوناس قائلًا في حماس:

- لقد اقتربت ساعة الصفر التي سيقوم فيها التنظيم بالسيطرة على أهم وسائل الإعلام، ومن ثم إنهاء كافة وسائل التأثير على الشعوب، بالتزامن مع حالات التحرر من المصل.

وهنا توقف يوناس عن الكلام فجأة؛ فقد شعر أن فرحته الشديدة جعلته على وشك الإفشاء بأمر خطير.

ولكن ريتال التي لم تفوت الفرصة قالت متسائلةً:

- ساعة الصفر؟!

رد يوناس قائلًا:

- هذا أمر ستتسنى لك معرفته في حينه، ولا أستطيع إلا أن أقول إن عهد الشر، قد آن وقت زواله.

ثم استطرد قائلًا: ستقوم المقاومة ببثٍ تلفازيٍ لقناةٍ أعدوا لها طويلًا، وسوف يبدأ إرسالها بالعمل الليلة أو غدًا، فكوني على استعداد يا ريتال لمواكبة الأحداث، لتقرَّ عيناك برؤية حصاد سنين طويلة من المقاومة والنضال، تتوج أخيرًا على يديك.

نهضت ريتال مغادرةً وهي تقول:

- سأظل ساهرةً أمام التلفاز، ولن أنام حتى يبدأ البث.

***

وبالفعل وفي الساعات الأولى من الصباح بدأ بث قناة المقاومة.

وكانت تلقي بيانًا يتكرر باستمرارٍ بلغات الممالك الثلاث، يتحدث عن المصل، وعن دور المؤثرات الخارجية، ويحث الناس على التجمع بالميادين الرئيسية لكل الممالك، لتكون ثورة حاسمة تنهي عصر الظلم والاستعباد.

***

وفي ظهر هذا اليوم انهمكت ريتال في قراءة نسخة من أوراق العلماء، كانت قد دونتها واحتفظت بها لنفسها، في الليلة التي سبقت تسليمها للمقاومة.

بعد ذلك أخذت تعمل على تلخيص أهم نقاطها بأسلوب يسير، وحسمت أمرها على تنفيذ خطتها؛ فقد وصلت الحشود لأعدادٍ كبيرة في الميدان الرئيسي الذي لم يكن يبعد عن القصر كثيرًا.

وبالرغم من أن چواد كان قد شدَّدَ على ريتال بعدم الخروج من القصر نهائيًا في تلك الأيام، إلا إنها استغلت انشغاله بعقد اجتماعات مستمرة للتنسيق مع حاكمي مملكتي أورشاليا وكروسلاند، حول الكارثة التي حلت بهم، وقامت وفي غفلة من زوجة خالها ويندا بالتسلل من القصر، في حوالي الساعة الثالثة عصرًا.

ومضت في طريقها إلى الميدان الرئيسي للمملكة، عازمة على القيام بمغامرة جديدة غير محسوبة بتاتًا هذه المرة.

وصلت ريتال للميدان، وقطعت الحشود دون أن يدري أحد بحقيقة من تكون، حتى وصلت لنقطة مرتفعة وسط الميدان، وكان معها أداة تكبير للصوت، أخرجتها من حقيبتها الصغيرة، ونادت في الحشود قائلةً:

- اسمعوني من فضلكم، اسمعوني.

أنا ريتال، ابنة چواد، حاكم المملكة.

وهنا ساد صمتٌ تامٌ من وَقْعِ المفاجأة، وقبل أن يصدر أي رد فعل أو قول من الجماهير المحيطة، بدأت ريتال في التحدث بصوتٍ مرتفعٍ قائلةً:

- في البداية نوةُ هواءٍ في الكونِ تدور

وعلى شاطئ البحر موج يعلو ويثور

وأخيرًا في قلب الميدان هذا نور.

وارتفعت نبرات صوتها أكثر وهي تقول:

- إن النباتات لو غُطيت بصندوق معتم فيه ثقب، لخرجت من هذا الثقب متتبعة للضوء، فما بالنا لا نتبع النور؟!

ثم عادت تقول لهم:

- صحيح أنني ابنة الحاكم، ولكنني ضده وضد كل ما فعله، وأعجز عن وصف عمق أسفي وحزني على ما تجرعتموه طوال هذه السنين من ظلم واستعباد.

ثم أردفت قائلةً:

- نحن هنا، ليس فقط للمناداة بظروف عمل عادلة؛ فلقد أفقنا أخيرًا وأصبحنا قادرين على اتخاذ خطوات إيجابية لتغيير هذا الواقع.

نحن هنا لإنهاء هذا النظام القديم، وبدء حياةٍ جديدةٍ تمامًا، حياة نستعيد فيها إرادتنا وكرامتنا، ونقرر فيها مصيرنا.

كان الجميع يستمع إليها مشدوهًا وقد تعلقت عيونهم بها.

فصاحت بصوت جَهْوَريٍ قائلةً:

- يا أيتها الشمس الغائبة، احضري بقوة وابسطي شعاع نورك على أجسادنا المتهالكة، فتذوب ثلوج الخنوع والاستكانة التي تراكمت عليها، لننهض من جديد.

وهنا علا الهتاف وارتفعت صيحات الجموع بانفعال شديد.

فتحمست ريتال أكثر وتابعت قائلةً:

- أخاطب كل فردٍ منكم، فأقول له:

لا تفقد الشغف، لا تفقد التلقائية، ولا تخف من المحاولة أبدًا؛ لأنك لن تصل حتى تحاول، ولن تحاول حتى تتخطى مخاوفك.

ولكي تتخطى مخاوفك لا بد أن تفهم وتتعلم.. أن الخطأ هو جزء من الصورة.

لا تحاول أن تتفاداه؛ بل تقبل أن تخطئ، ولا تندم، بل ابتسم وأكمل.

اكتب قوانين حياتك فهي حياتك أنت، واقفز كالطير الصغير الذي يحاول أن يطير، ومهما وقع فهو يعاود المحاولة، وإلا فكيف سيعرف أنه يستطيع؟!

وسكتت قليلًا ثم عادت تقول:

- نحن لا نتحرر حتى نرى القيد، ولا نراه حتى نشعر بتأثيره في قوى الجذب التي تحرك بواعثنا الكامنة.

ولا يكون التحرر سهلًا، بل إنه لا يحدث إلا في شدة التجاذب والتدافع بين تلك القيود وبين الحقيقة، فقاوم القيود بكل قوتك إلى أن تتحرر منها كليًا، وبعدها لن تعود في حاجة لمحاربتها مرة أخرى؛ لأنك ستعرف حينها أنها كانت مجرد فقاعةٍ هشةٍ تحمل أوهامًا، وقد تحررت من سطوتها على عقلك، فتحررت كل حواسك حتى لامست جدار تلك الفقاعة، فتلاشت وتلاشت معها أوهامها.

وسكتت برهة قبل تعاود الحديث قائلةً:

- إن رفضك لما تراه خطئًا وغير منطقي، لا بد أن يكون رفضًا مستقلًا، نابعًا من رؤيةٍ نقيةٍ متجردةٍ، ناتجةٍ عن مقارنته بما ارتأيته صحيحًا ومنطقيًا، وفق تجرِبةٍ ذاتيةٍ خالصة، فرفضك لا بد أن يكون حرًا من هيمنة العقل الجمعي، لكي يتسق ظاهرك مع باطنك، فتعيش في توازن وصدق مع نفسك.

ثم انتقلت للحديث عن وسائل الإعلام وغيرها من المؤثرات الخارجية، فأخذت تشرح أساليبها وألاعيبها، حتى ختمت كلامها قائلةً:

- والحقيقة لا تقدم مثلما يقدم الوهم، وإلا صارت طبقًا مرًا ثقيلًا على النفس.
الحقيقة تحتاج عقولًا أدركت فجاعة الوهم، واصطدم وعيها النقي بهشاشة منطقه.
ولا يضير الحقيقة المعرفة بها من عدمه، فهي دائمًا حاضرة؛ بل هي الحضور نفسه، أما الوهم فيتحدث كثيرًا ليملأ فراغ فضائه الحالم.
وأردفت تقول:
- كل ما أرجوه منكم هو التوقف عن تصديق أي شيء يبث عبر قنوات التحالف، ورفض إعلامهم المضلل وخطبهم السامة، حتى نحافظ على وعينا سليمًا نقيًا.
ثم تحدثت عن المقاومة ورجالها وكيف أنهم يضحون بأنفسهم من أجل تحرير الشعوب.
وختمت حديثها قائلةً:
- إن القادم أفضل، ولا بد من الاستعداد للَّحظة الحاسمة للقضاء على التحالف، فقد اقتربت نهايته و...
وهنا توقفت، وقد ساد هرجٌ ومرجٌ في الميدان، وبات يُرى بوضوحٍ تجمعًا كبيرًا لقوات التحالف يقترب من الميدان.
وفي تلك اللحظة صعد شخصٌ بسرعةٍ إلى المكان الذي كانت تقف فيه ريتال ليخبرها أنه من المقاومة، وأن خالها يوناس طلب منه أن ينقلها لمكان آمن، ولكنه ما كاد يصعد حتى فوجئ أنها قد اختفت ولم يعد لها أي أثر!

***

وفي مملكة أورشاليا، وأثناء ما كنت ريتال تخطب في الميدان، كان هناك اجتماع لقادة التحالف، للبحث في خطورة ما يحدث من تجمعات، وما جد من أمر تلك القناة التي بدأت المقاومة بثها صباح هذا اليوم.

فبدأ چواد بالتحدث قائلًا:

- أعتقد أن الوضع جدٌّ خطير، وقد أكد لنا علماؤنا وباحثونا أن المصل بالفعل بدأ يفقد تأثيره وأنه إلى زوال، لهذا فلا بد من توجيه كافة جهودنا للوقوف على حلٍ عاجل.

قال حاكم مملكة أورشاليا معقبًا على كلامه:

- أعتقد أنه لا بد من ابتكار مصلٍ جديدٍ أقوى في تأثيره، ولا بد أن يتم هذا في أسرع وقت وقبل أن تحدث الكارثة.

وقبل أن يهم چواد بقول شيء، قاطعه دخولٌ مفاجئ لأحد ضباط التحالف متوجهًا ناحيته ومتحدثًا برعبٍ شديدٍ قائلًا:

- سيدي الحاكم، حدث أمر بالغَ الخطورة.

قاطعه حاكم مملكة كروسلاند قائلًا:

- تحدث بسرعة، ما هو هذا الأمر الخطير؟

وهنا أخبرهم الضابط بما حدث في الميدان من ريتال ابنة چواد، وكيف أنها حرضت الحشود على الانضمام للمقاومة لعمل ثورة ضد التحالف.

صدم چواد أيما صدمة، ولم يستطع أن يتمالك نفسه وهو ينهض صائحًا في عنف بكلمات غير مفهومة، قبل أن يصرخ في الضابط قائلًا:

- أمجنون أنت، ابنتي؟ لا.. هذا لم يحدث أبدًا.

وبعد برهة هدأ قليلًا فاستجمع رباط جأشه وهو ينقل نظراته بين حاكمي المملكتين بعدما تخطى عقله حالة الإنكار لما أُلقي للتو على مسامعه، وبادر بسؤال الضابط عما تحدثت به ابنته.

فسرد عليهم وقائع ما قالته ريتال بالتفصيل، فأمره بالانصراف.

ثم عاد جالسًا في موضعه، وتحدث إليهما بنبرة لا تخلو من الاستعطاف قائلًا:

- أعدكما أنني سوف أعاقبها وأعاقب من حرضها على فعل ذلك. دعا أمرها لي، اتفقنا؟

ثم عاد وقال بتأثرٍ واضح:

- لقد عبثوا بعقل ابنتي، وسوف يدفعون الثمن غاليًا.

تدخل حاكم مملكة أورشاليا قائلًا:

- إن ما قيل في هذه الخطبة ينم عن عدة أمورٍ خطيرة، كمسألة التحريض ضد وسائل الإعلام، والحديث عن اللحظة الحاسمة التي اقتربت.

وأردف بخبث دون أي اعتبار لحالة چواد الذي كان منهارًا في مقعده، فقال:

- ولكن من ناحية أخرى فلا بد أن ننظر لما حدث بشكل إيجابي؛ فقد أزال الغشاوة عن أعيننا.

وهنا عقَّب سريعًا حاكم مملكة كروسلاند لتهدئة الموقف قائلًا:

- إن الأمر أكبر من ابنتك يا چواد، فتمالك نفسك حتى نستطيع التفكير بتركيز فيما يحدث للوقوف على ماهيته بالضبط، ولا بد من التحرك السريع لإفشال مخططاتهم، والتي يبدو أنها تمكنت من قصور حكمنا دون أن ندري.

أخذ چواد يتفحص نظراتهما إليه وقد شلت المفاجأة عقله تمامًا، وكان الكلام ثقيلًا على لسانه بشدة عندما نطق أخيرًا قائلًا بهدوءٍ مصطنع:

- نعم، لا بد أن نفكر، والآن.

وسكت برهة لالتقاط أنفاسه، ثم عاد وطلب منهما أن يجريا اتصالاتهما الآن بأشد معاونيهما إخلاصًا، لعقد اجتماعٍ موسعٍ ووضع خُطةٍ عاجلة لتجديد الحرب على المقاومة،

وقام بدوره بالاتصال بيوناس آمرًا إياه بالحضور هو ومجموعة من أهم قيادات الجيش إلى أورشاليا.

ثم التفت إليهما قائلًا بجديةٍ شديدة:

- من هذه اللحظة ستبدأ الخطة (ب)، وأنتما تعرفان استراتيجيتها بالضبط، والتي تعتمد على تغيير تكتيك تمركزات قوات التحالف على أطراف الممالك وداخلها كل بضعة ساعات، من خلال ثلاثتنا نحن فقط.

ثم نقر بأصابعه على الطاولة التي أمامه قائلًا:

- ولنرَ كيف ستكون تلك اللحظة الحاسمة التي تعتقد جبهة المقاومة أنها قد حانت.

***

وبطائرةٍ سريعةٍ حضر يوناس وقادة الجيش إلى الاجتماع، الذي تمخضت عنه عدة قرارات عاجلة، أهمها البدء الفوري في تنفيذ هجمات جديدة على كل أطراف الممالك، وسرعة السيطرة على الحشود التي تتزايد أعدادها، وأيضًا تحديد مكان بث قناة المقاومة.

استمر الاجتماع قرابة الساعتين، لينتهي في تمام التاسعة مساءً.

وعقب ذلك مباشرةً استطاع يوناس وقبيل عودته لمملكة أرابيتا أن يختفي عن الأنظار بضع دقائق، ليجري اتصالًا مقتضبًا بيزن عبر موجة الاتصال المشفرة، أخبره فيه أن كل المعلومات التي أرسلها إليهم سابقًا عن نقاط تأمين المنشآت الإعلامية وتمركزات قوات التحالف على الحدود، أصبحت بلا جدوى، وأنه لن يستطيع معرفة الاستراتيجية الجديدة التي ستعمل بها قوات التحالف بأي حال من الأحوال.

وأخبره عن تقدم قوات التحالف إلى أطراف الممالك في هجمةٍ جديدةٍ أقوى وأشرس من أية هجماتٍ سابقة، وأكد عليه ضرورة التراجع إلى أبعدِ نقطةٍ ممكنة، وإيقاف كل شيء في التوِّ والحين.

***

عاد جواد من أورشاليا ليلًا بصحبة يوناس منزعجًا ثائرًا، ووقف في غرفة مكتبه يصيح بأعلى صوته آمرًا بإحضار الحارسين المكلفين بملازمة ريتال عند خروجها من القصر، وبدون أية مقدمات وعلى الفور أرداهما قتيلين أمام صاحبه الذي صاح مستنكرًا:

- ما هذا؟

ثم أردف قائلًا:

- اهدأ يا جواد، لن نجد ريتال بهذه الطريقة، لا بد أن نفكر بعقلانية أكثر فالعنف ليس حلًا على الإطلاق.

صاح جواد قائلًا:

- أنا أكاد أجن.

ثم استطرد بصوت مرتفع موجهًا كلامه ليوناس:

- وأين كانت ويندا عندما خرجت ريتال؟

رد عليه يوناس بعصبيةٍ قائلًا:

- كانت ريتال تفضل البقاء في غرفتها مؤخرًا، ولم نشأ أن نثقل عليها؛ لا سيما وأن تلك الأيام توافق ذكرى وفاة أمها.

صرخ جواد قائلًا:

- ومتى وكيف وأين عرفت ريتال بكل ما تفوهت به في الميدان يا يوناس؟

رد يوناس قائلًا:

- يبدو أنها صادفت شيئًا من منشورات المقاومة أثناء خروجها للتنزه، تلك المنشورات التي امتلأت بها الممالك في الأيام الأخيرة.

فصاح جواد غاضبًا:

- نعم، المتنزه.. المتنزه الذي ظللت تخبرني أنه آمن وأنه لا خوف عليها من الخروج إليه.

قال له يوناس:

- اهدأ يا چواد ولا تخلط الأوراق ببعضها، أنت تعلم جيدًا أنه من المستحيل أن تحبس ريتال في القصر إلى الأبد.

صاح چواد قائلًا:

- كان لا بد أن أحبسها.

قال هذا ثم أخرج جهاز اتصاله، متحدثًا إلى قوات التحالف الذين اقتحموا الميدان، آملا أن يعطوه أية أخبار عن ريتال.

وعندما لم يحظَ بجوابٍ شافٍ أنهى الاتصال ثم انهار باكيًا على نحو مؤثر.

فقال له يوناس وهو يقترب منه ليربت على كتفه:

- سنجدها يا چواد، سنفعل كل ما بوسعنا، سنجد ريتال.

ولكن الأخير لم يسمعه ولم يعد يشعر بوجوده مطلقًا؛ فقد كان في هذه اللحظة -التي أعادت له ذكرى فقدان زوجته- في عالمٍ آخرَ تمامًا.

***

وبعد منتصف ليل هذا اليوم العصيب، دخل يوناس إلى جناحه في القصر، فدلف سريعًا إلى الغرفة الداخلية تتبعه زوجته، وما إن أغلقت الباب وراءها حتى صاح مستنكرًا:

- أكنت تعلمين بما تنوي ريتال فعله؟

قالت ويندا:

- فعل ماذا؟ لا أعلم عن أي شيء تتحدث. لقد كنت على وشك أن أسألك عنها؛ فأنا خائفة عليها بشدةٍ ولا أعلم أين ذهبت طوال اليوم.

واستطردت قائلةً

- وما أمر تلك الطلقات التي تردد صداها قبل قليل؟

رد عليها يوناس متجاهلًا سؤالها الأخير، فقال:

- ريتال ذهبت للميدان اليوم تخطب في الناس هناك وتحرضهم ضد أبيها وضد التحالف.

وأردف معاتبًا إياها فقال:

- ألم أؤكد عليك مرارًا أن تحتوي حماسها الزائد هذا؟ خاصةً في هذه الأيام؛ لأننا لم نعد نفهم كيف تفكر وإلى أي مدىً سيصل تهورها بعدما وجدت تلك الأوراق.

تحدثت ويندا بذعرٍ شديدٍ قائلةً:

- لم أكن أتصور أن تقوم ريتال بهذا الفعل المتهور. إن آخر شيء قامت به هو لقاؤها بتيام، وقد عاهدتني بألا تنساق وراء أفكارها المجنونة تلك مرةً ثانيةً وقد صدقتها.

ثم أردفت قائلةً بحسرة:

- يا لكِ من حمقاء يا ويندا.

صاح يوناس قائلًا:

- الآن قد تغير كل شيء؛ فقد عدت للتو من اجتماعٍ عاجل تم انعقاده لبحث خطورة الموقف وما جدَّ عليه، وقد جن جنون چواد وقادة التحالف، وأقسموا على شن حربٍ ضروسٍ من جديد على جبهة المقاومة، وإرسال قواتٍ إلى أطراف الممالك في التوِّ مهمتها البحث والفتك بأي عنصر من عناصرها.

وتم إصدار الأمر بإلقاء القبض على كل الحشود التي تجمعت في كافة الممالك، وصدرت أوامر أيضًا بتشديد الحراسة على مؤسسات الإعلام الكبرى بإشرافٍ ومتابعةٍ من چواد نفسه، وقد بات الآن يستميت في إرضاء حاكمي أورشاليا وكروسلاند لتخفيف وقع ما فعلته ريتال.

ثم استطرد بحزنٍ شديدٍ قائلًا:

- لقد ضاعت مجهودات مضنية، وخطط كبيرة انتظرنا كثيرًا جدًّا لتنفيذها يا ويندا، فعلى إثر أحداث الميدان تحول الاجتماع إلى مجلس حرب، وقاموا بتغيير استراتيجيتهم للخطة

(ب)، وهي خطة تتغير باستمرار بأوامر من حكام الممالك فقط؛ مما أدى إلى توقف تنفيذ خطة الزحف التي كان من المقرر البدء فيها فجر اليوم التالي لبث القناة، أي بعد ساعاتٍ قليلةٍ من الآن.

تلك الخطة التي أُعدت بناءً على التسريبات التي أوفدتها إلى الجبهة سابقًا عن تمركزات الكمائن ونقاط التفتيش على أطراف الممالك وداخلها، وحول المنشآت الإعلامية الكبرى.

صاحت ويندا قائلةً:

- ماذا، ألهذه الدرجة؟!

رد يوناس قائلًا:

- نعم، لأن ظهور ريتال كان كالقنبلة التي انفجرت في عقولهم فأضاءت لهم كل شيء، وهدمت بناء الوهم والشعور بالسيطرة الذي عاشوا فيه طويلًا.

ثم أردف قائلًا:

- لقد بدءوا يشكون في كل من حولهم حتى أقرب المقربين منهم، لقد تحولوا إلى وحوشٍ ضاريةٍ الآن يا ويندا، وغيروا أوراقهم بسرعةٍ بعدما باتوا على يقين بخطورة المقاومة، المقاومة التي كانوا واثقين قبل خطاب ريتال أنهم قد تخلصوا من شبحها إلى الأبد، وأن أقصى ما يمكنها فعله هو القيام بتوزيع بعض المنشورات خفيةً هنا وهناك، ولكن الآن تغير كل شيء، وكل هذا بسبب طيش ريتال واستعجالها.

وهنا صاحت ويندا وكأنها للتو تذكرت فقالت:

- وأين ريتال الآن يا يوناس؟

طأطأ يوناس رأسه في أسىً قائلًا بمرارةٍ شديدة:

- لقد حاول رجالي إنقاذها قبل انقضاض القوات على الميدان واعتقال كل من فيه، ولكن...

وسكت يوناس عاجزًا عن النطق.

فصاحت ويندا قائلةً:

- ولكن ماذا، أين ريتال يا يوناس؟ تكلم.

قال يوناس وهو يكاد أن يبكي:

- ولكن رجالي أبلغوني أنهم عندما صعدوا لنفس المكان الذي كانت تقف فيه ريتال، لم يجدوها، وبالرغم من أنها لم تغب عن أعينهم لحظةً واحدة، إلا أنها اختفت فجأةً دون أن يعملوا كيف.

ارتخى جسد ويندا في مقعدها على نحو يدعو للشفقة، وقالت وكأنها تتحدث إلى ريتال:

- أين أنتِ يا ابنتي الجميلة، ماذا تفعلين الآن؟

ثم أجهشت بالبكاء، فاحتضنها يوناس وقد انهمرت الدموع من عينيهما.

***

النانو تكنولوجي

ومرت عدة أسابيع، حاول فيها چواد معرفة مكان ابنته ريتال بكل الطرق، وأمر أتباعه بالبحث عنها في كل مكان لكن دون جدوى.

حتى وصلت له أخيرًا معلومة من أحد جواسيسه في مملكة أورشاليا، يبلغه فيها أن أحد المندسين في الميدان يوم ألقت ابنته الخطبة -وكان من أكفأ ضباط الاستطلاع والمهام الخاصة الذين يعملون لصالح حاكم أورشاليا- قد اختطفها من وسط الحشود، وإنها الآن قابعة في سجنٍ خاصٍ وذي حراسةٍ مشددة، يقع في قلب عاصمة أورشاليا.

أخذ چواد يفكر كثيرًا..

وفي اليوم التالي قرر التواصل مع حاكم كروسلاند لمعرفة نوايا حاكم أورشاليا بخصوص ابنته.

وبعدما أنهى اتصاله جلس في مكتبه، منتظرًا على أحر من الجمر ردًا من أحد رجاله من قادة الجيش، والذي أوكله بإيجاد حل عاجل لإنهاء تلك الكارثة التي حلت بالممالك.

وبعد برهة دخل عليه دايمون مستبشرًا، فبادره چواد قائلًا بعصبية:

- هل توصلت لحل؟

قال دايمون:

- بالطبع، يوجد شيء سيكون بمثابة الحل الجذري لما يحدث؛ ألا وهو تقنية النانو تكنولوجي. [1]

قال له چواد باستغراب:

---

[1] **تقنية النانو تتصل بعلوم الفيزياء والهندسة الحيوية والهندسة الميكانيكية والهندسة الكيميائية، ومنذ فترة بدأت محاولات جادة في تقنينها لخدمة الطب والعلاج الحديث.**

- أليست هذه تقنية علاجية؟!

رد دايمون قائلًا:

- بالفعل هي كذلك، ولكن إذا استطعنا برمجة جزيئات النانو تكنولوجي بأوامر للتحكم في العقل والجسد بدلًا من الأوامر الخاصة بالمهام العلاجية، فحينها نستطيع إخضاع كافة أفراد الشعب وإيقاف كل موجات التمرد والعصيان تلك.

قال له چواد:

- كيف؟

أخذ دايمون يسرد عليه التفاصيل العلمية عن كيفية عمل جزيئات النانو، حتى ختم حديثه قائلًا:

- ولكن لا بد من إحضار علماء أفذاذ في تقنية النانو، ليحولوا الفكرة إلى واقعٍ قيد التنفيذ.

قال چواد:

- حسنًا، سأرسل في طلب أهم علمائنا في هذا المجال، وسوف تكون المشرف التنفيذي لهذا المشروع.

أذن چواد لدايمون بالانصراف.

وعاد يفكر مهمومًا فيما يحدث؛ فلم يكن في حقيقة الأمر -وقبل معرفته باختطاف ريتال- ينوي مشاركة حاكمي أورشاليا وكروسلاند بما سيصل له دايمون من نتائج، ولكنه الآن بات مضطرًا لذلك.

فقال في نفسه: "سأضع هذه المرة الأمور واضحةً أمامهما بالشكل الذي يبهرهما تمامًا، وبعد أن يطمئنا لي كل الاطمئنان وأنجح في استعادة ابنتي، سأرى ما أستطيع أن أفعله بشأنهما؛ فقد أصبح الثأر ثأرين".

وبعد برهة قام باستدعاء صهره يوناس، وكان الأخير قد درس في أعلى جامعات أرابيتا كفاءةً، وحصل على ماجيستير على أيدي أساتذةٍ عظامٍ في هذا المجال.

ولما دخل يوناس عليه بادره قائلًا:

- هل ما زلتَ على اتصالٍ بأساتذتك في الجامعة يا يوناس؟

فرد يوناس قائلًا:

- نعم وكما تعلم، فما زلت أتردد على الجامعة من آن لآخر لأستمع لمحاضراتهم.

قال چواد:

- حسنًا، أريد منك أن تُحضر لي لائحةً بأهم العلماء في مجال النانو تكنولوجي على وجه السرعة.

تملك القلق من يوناس وقال بتردد:

- ولكن لماذا؟

قال چواد:

- عرض عليَّ دايمون فكرةً بخصوص تطوير هذا المجال، لاستخدامه في إعادة السيطرة على الشعوب وإيقاف كل ما يحدث.

كاد يوناس يغشى عليه ولكنه تمالك نفسه وعاد يقول:

- ولكن يا چواد هذا المجال يستخدم في النواحي العلاجية، وليس من الحكمةِ توجيهه لمثل تلك الأمور.

فرد چواد قائلًا:

- لا وقت لهذا النقاش الآن يا يوناس؛ فالممالك تحتاج بديلًا للمصل، وحلًا عاجلًا لهذه الكارثة التي حلَّت بنا.

قال يوناس:

- ولكنَّك بالفعل قد بنيت ترسانتك الحربية على أكمل وجه، ولا أعتقد أننا في حاجةٍ ملحةٍ لإعادة تلك الكرة مرة أخرى، وأعتقد أن تهدئة الناس وإقناعهم بالعودة للعمل في إعادة إعمار المملكة وفق قوانين عادلة ومرضية لهم، سيكون هو الحل الأمثل في هذه الأوقات العصيبة.

وبهذا تكون قد حققت الغرضين، القوة العسكرية، وبناء حضارة متقدمة، كما كنت تطمح من البداية وقبل أن تستولي على مقاليد الحكم بالمملكة.

رد چواد قائلًا:

- إن بقاء السلطة يتطلب بقاء السيطرة يا يوناس وأنت أعلم مني بهذا؛ لهذا لن نرضخ لمطالب الشعوب ويجب أن تظل إرادتهم بين أيدينا.

والأهم من ذلك أنه لا يوجد حل آخر لاستعادة ابنتنا ريتال من سجنها، وأنت تعلم وكما اخبرتك أمس أن هذا لن يحدث، إلا بإرضاء قوى التحالف، ووضع حلٍ حقيقيٍ بين أيديهم يعطينا الحق في طلب العفو عنها.

فسكت يوناس وقد طرأ على باله شيء، أخذ يفكر فيه لبضع ثوانٍ قبل أن يتحدث قائلًا:

- حسنًا، سوف أذهب إلى الجامعة لألتقي بهم مباشرةً، وسأعد لك التقرير اللازم غدًا.

ثم أردف قائلًا:

- سأنصرف الآن.

ومضى في خطواتٍ سريعة.

***

عاد يوناس إلى زوجته، وبانفعال أخبرها بما دار بينه وبين چواد.

فقالت ويندا:

- إن شيطان چواد لا يلبث يعود في ثوبٍ جديد.

وأردفت قائلةً:

- وماذا ستفعل يا يوناس، هل ستشاركه مجددًا في هذه الجريمة؟

قال لها يوناس:

- أنا أفكر في شيء ما، وسوف أذهب ليزن الليلة، في المكان الذي اتفقنا على الالتقاء به في حالة الطوارئ القصوى، وسنرى ماذا يمكننا أن نفعل بهذا الصدد.

***

وبعد عدة ساعات توجه يوناس إلى أحد الأماكن المهجورة البعيدة عن الأعين، لملاقاة يزن الذي كان في انتظاره بالفعل.

فبادره يزن قائلًا:

- ماذا حدث يا يوناس، ولمَ المخاطرة بهذا اللقاء الآن؟

وبعد أن أطلعه يوناس على ما يفكر به چواد، تحدث بانفعال قائلًا:

- وإذا لم نتحرك الآن فسيعني هذا ضياع كل شيء للأبد وتحول العالم إلى جحيم، لا بد من إيقاف هذا المشروع الذي يعكف الآن چواد على بناء أركانه بين دهاليز عقله المظلم.

فقال يزن:

- ليس أمامنا سوى تعطيل مسعاه، لاكتساب بعض الوقت للوصول لحلٍ ما يحول دون تحقق هذا الأمر.

قال يوناس:

- لقد فكرت في هذا بالفعل، وأرى أن نستعين بأستاذ چافيد ليختار لنا بعض العلماء الأكفاء ممن يثق بهم؛ لأضع أسماءهم في اللائحة التي سأقدمها لچواد غدًا، فما رأيك؟

فقال يزن:

- إن أمرًا كهذا لا يجب أن نوكله لأحد غير چافيد نفسه، لهذا ينبغي أن يكون على رأس تلك اللائحة، فأنا أثق بقدرته على عمل اللازم لتعطيل هذا المشروع.

صاح يوناس مستنكرًا:

- أستاذ چافيد! هل سندخله في هذا الأمر؟!

أنت تعرف ما يعانيه من مرضه، وتعرف ماذا يمكن أن يحدث له إن ساءت الأمور، أتريد أن تضحي بأنبغ وأنبل العلماء المناضلين في الممالك كلها يا يزن؟!

ثم أردف قائلًا:

- أنا أرى أن تتوقف مساعدته لنا عند ترشيح بعض العلماء ممن يثق بهم.

رد يزن قائلًا بإصرار:

- لا يوجد حل آخر يا يوناس، ولا تجعل عاطفتك تنسيك حقيقة ما نحن فيه من خطر، وأؤكد لك أن چافيد سيصر بنفسه على هذا عندما تتحدث معه غدًا، ولن يتوانى عن تقديم أية تضحيةٍ لإيقاف تلك المؤامرة التي يخططون لها الآن.

لقد رُفعت المرساة، وبدأ صفير سفينة چواد يعلو وقد بدأت تشق طريقها، ولن تتوقف حتى تصل لهدفها.

وافق يوناس مضطرًا وغادر الاثنان.

ليقوم يزن على الفور وأثناء عودته بالاتصال بأستاذ چافيد لإطلاعه على الأمر، فطمأنه الأخير، وأبلغه باستعداده التام لهذه المهمة، وأكَّدَ عليه بأن حياته في كفة، وإيقاف هذا المشروع في كفة أخرى.

***

في مملكة أورشاليا، وفي الاجتماع الثاني الذي جمع حكام التحالف بعد أحداث الميدان الأخيرة بدأ چواد بالتحدث قائلًا:

- لقد أمنَّا كل المصانع ومخازن السلاح وجميع منشآتنا الإعلامية، وأحكمنا قبضتنا على شتى أرجاء الممالك، وبات تحرك المقاومة مستحيلًا حتى في ظل حالات العصيان والتمرد التي تتزايد.

ثم أردف قائلًا وهو ينظر لحاكم أورشاليا شزرًا:

- إن التعامل بشدةٍ وعنفٍ يُعدُّ مطلوبًا الآن، وواقعًا فرضته علينا الأحداث الأخيرة، ولكن باتت مشكلة ازدحام السجون والمعتقلات في كافة الممالك معضلةً كبيرة، ولم تعد الأوضاع في صالحنا أبدًا.

وأخرج ورقة صغيرةً من جيبه، عبارة عن جزء من محادثة تم التقاطها بين اثنين من أفراد شعبه، يقول فيها أحدهما للآخر:

"إنني لا أستطيع أن أتوقف عن البكاء منذ أن دلفت إلى منزلي.

لقد رأيتهم بعيني وهم يقعون أرضًا واحدًا تلو الآخر، صامدين ومصممين على الموت أكثر من رغبتهم في الحياة.

كم كنا مخدوعين وكم كانوا صادقين".

تابع چواد قائلًا:

- لقد بات انتهاء أمرنا وشيكًا يا سادة. ها هي مشاعر الناس تنتفض وتهتز وتتحرر من تلقاء نفسها.

لقد سجلنا هذه المحادثة مباشرةً بعد القضاء على مجموعة من عناصر المقاومة أمام مرأى ومسمع الناس، وتوجد محادثاتٌ مثلها تسجَّل كل يوم، تذكر فيها كلمات مثل "الثورة"، و"القضاء على حكم التحالف".

وأردف قائلًا:

- لم تعد المقاومة هي الخطر الآن، بل هؤلاء الذين كانوا في استكانةٍ وخضوعٍ طوال سنوات ولم تكن يحركهم أي من هذه الأمور، فما كبحناه من إرادةٍ طوال الأربعة عشر عامًا الماضية، يبدو أنه يولد من جديدٍ أقوى ألف مرةٍ ليفتك بنا وبالتحالف كله في لحظة واحدةٍ ليس أكثر.

ثم استطرد قائلًا:

- لم يعد كافيًا كما كان في السابق، أن ننشر الدعايات والملصقات في الطرقات وأماكن التسوق وكل وسائل الإعلام، لجلب الناس إلى حظيرتنا، وتحذيرهم من التواصل مع المتمردين أو الاستماع إليهم.

ولن تنجح مزيد من الخطب والكلمات الرنَّانَة في وصف رجال المقاومة بالخونة وأعداء التقدم والنجاح، وإيهام الناس بالخير العظيم الذي ينتظرهم بعد ذلك إذا استمروا في العيش في طاعةٍ وخنوع، كل هذا لم يعد يفلح على الإطلاق.

وقد خدعنا العلماء الثلاثة وأوقعونا في فخٍ عظيمٍ لا فكاك منه، عندما لم يذكروا لنا أن عقول الناسِ جميعها مع مرور الزمن، تعتاد المصل الذي ابتكروه، وتنشئ أجسادهم مناعةً ضده مما يضعف تأثيره فيهم.

وختم حديثه قائلًا بعصبية:

- نحن في أزمةٍ يا سادة، وإن لم نجد حلًا عاجلًا فلا تنتظروا من شعوبكم إلا أن تنهض مرة واحدة، ودون الحاجة لمن يقودهم هذه المرة، فتزيحكم بكل قوة.

وهنا قاطعه حاكم أورشاليا قائلًا بلهجةٍ استفزازيةٍ واضحة:

- وما هو الحل في رأيك، أيكون شيئًا يعكف عليه علماء مملكتك في الخفاء من فترة طويلة، وكنت تحضّره لنا مفاجأة، كهدية في عيد ميلادنا مثلا؟!

انفعل جواد بشدة لوقاحة أسلوب حاكم أورشاليا وقال مستهجنًا:

- نعم، يعكف علماء أرابيتا كما أبلغك جواسيسك على إيجاد حل.

ثم أردف قائلًا:

- ويجب أن تعلما علم اليقين أننا في مركبٍ واحد، وأن العلماء في مملكتي يعملون لصالح جميع أطراف التحالف، وإن كنت قد تأخرت في إبلاغكما فهذا لأننا لم نكن قد توصلنا لشيء بعد.

ونظر في عيني حاكم أورشاليا قائلًا:

- إن نبرة التهديد التي تلوح في كلامك لا تعجبني، وإياك أن تعتقد أن تربصك بابنتي واختطافك لها سيمر دون عقاب، وحذارِ أن تمس...

وهنا قاطعه حاكم كروسلاند:

- اهدأ يا چواد، إن ابنتك مصانة عندنا حتى تهدأ الأوضاع، وستعود إليك سالمة، هذا أمر لا جدال فيه كما أخبرتك في اتصالنا الأخير، فلا داعي لتصعيد الأمور الآن، لقد اجتمعنا للسيطرة على الوضع، لا لزيادته سوءًا؛ لهذا فالأجدى لنا جميعًا أن نتحدث عن حل للخروج من هذا المأزق.

عاد چواد يتحدث قائلًا:

- الحل الذي سأضعه بين أيديكما لن يصحح الأمور فقط، بل سيجعلها أفضل مما كانت، لو طبقناه كما ينبغي.

ثم وجه نظرةً ذات مغزى لحاكم أورشاليا قائلًا:

- ويجب أن تعلما أنه بنجاح خطتنا الجديدة سأستعيد ابنتي، ويكفي ما ذاقته خلال الفترة الماضية من حبس وإهانة، وأؤكد لكما أنه بعد نجاحنا، لن تعود لجبهة المقاومة أية أهمية ولا أي تأثير.

بل لن تكون هناك مقاومة من الأساس، فسوف يخضع الجميع.

نظر حاكم كروسلاند إليه قائلًا:

- فليكن هذا، ولكن يجب أولًا أن تحقق ما تعدنا به، وأن تعود الأمور كلها لنصابها.

هدأ چواد نوعًا ما واستعاد رباطة جأشه أمامهما، ثم نظر إليهما بثقةٍ وغرورٍ قائلًا:

- سأقص عليكما من البداية.

قبل أشهر مضت، أبلغني بعض مشرفي المصانع والمراقبين لعمل الأفراد أنهم لاحظوا بعض التصرفات البسيطة منهم، والتي تنم عن استثقال العمل، وبالرغم من أنها لم تكن ملحوظةً خطيرةً وقتها، ولم أكن أدري أنها بداية لشيء أكبر؛ إلا إنني أوصيت القائد دايمون (وهو أحد رجالي المقربين في الجيش، والذي أستعين به دومًا في العديد من الأمور لحنكته وذكائه الشديدين؛ فضلًا عن كونه المسئول الأول عن تطوير الأسلحة

ودمج العلم الحديث بآلة الحرب) بالبحث عن حلٍ لزيادة تأثير المصل، وقد عكف على ذلك مستعينًا ببعض علماء المملكة كما تسرب الخبر إليكما.

ولكن لم تسفر نتائج عملهم عن أية زيادةٍ ملحوظةٍ في تأثير المصل.

لذا ومع ازدياد حالات التمرد في المصانع، فقد أمرت دايمون بالبحث عن أية طريقة أخرى غير المصل لإعادة السيطرة من جديد.

وبالفعل وضع بين يدي مؤخرًا تصورًا حقيقيًا لما قد يكون مركب النجاة لنا جميعًا.

وعلا صوته وهو يقول بحماس:

- النانو تكنولوجي.

ثم تابع حديثه قائلًا:

- وكما تعلمان، فهي عبارةٌ عن جزيئاتٍ مبرمجةٍ يتم إدخالها للجسد، فتقوم ببعض المهام العلاجية.

وإذا استطعنا أن نوحِّد الجهود من كل الأطراف، ونطور تلك التقنية لنسخِّرها لهدفنا، فسوف نصل لأداةٍ جديدةٍ للتحكم والسيطرة، تعدُّ أقوى بكثيرٍ من هذا المصل، وستعمل فور حقنها بالأجساد.

والأهم من هذا أنها تقنيةٌ متطورةٌ جدًّا لتحفيز الجسد، وستمكننا من استغلال طاقات شعوبنا بصورة غير مسبوقةٍ لبناء مشروعاتٍ عملاقةٍ يستحيل تصورها.

واستطرد قائلًا بانفعالٍ وتأثرٍ شديدين:

- هذا هو مستقبل البشرية يا سادة، وبداية حضارة عظيمة فعلًا ستنير العالم كله، وستكتب أسماؤنا في التاريخ الإنساني بحروف من ذهب.

نظرا إليه نظرةَ شكٍّ وترددٍ تتخللها لهفةٌ إلى تصديقه، ثم قالَ لهُ حاكم كروسلاند:

- حسنًا، فإن كل جهودنا ستسخر لهذا، ولن نبخل عليك بعلمائنا وما توصلوا له في هذا المجال.

فقال جواد:

- من ناحيتي لم أُضِع أي وقت، وقد انتقيت من علماءِ مملكتي مجموعةً نابغةً جدًّا، ومن الضروري أن صيتهم قد ذاع في مملكتيكما، وغدًا سيكونون في طريقهم لأحد المعامل بعاصمة أرابيتا، ليبدءوا في العمل على صياغة الفكرة، تمهيدًا لنقلهم مع علماء مملكتيكما إلى إحدى الجزر، التي تقع في البحر الذي يمر عبر حدود الممالك.

ولن يستغرق تجهيز المكان هناك وقتًا بالمرة؛ حيث إن تلك الجزيرة تحتضن منشأةً علميةً ضخمة، ورغم أنها مهجورة منذ عشرات السنين الآن، إلا إن مبانيها وأسوارها الخارجية سليمةٌ تمامًا، ولن تحتاج إلا لبعض الإضافات التأمينية، التي سيلتزم دايمون مستعينًا بقوات التحالف، بضمان توفيرها في أسرع وقت ممكن.

ثم نادى على أحد الضباط، وفور دخوله أمره باستدعاء دايمون الذي كان منتظرًا بالخارج.

وقال لهما وهو يهم بالنهوض مغادرًا:

- سأترككما مع دايمون ليوضح لكما كل النقاط التي تريدان الاستفسار عنها، وأرجو أن تقدما له يد العون، وأن توفرا له كل ما يلزم لكي نتمكن من تهيئة الجزيرة لاستقبال العلماء في أقرب وقت.

***

ومرة أخرى ثلاثة علماء

كانت اللائحة التي أعدها يوناس تضم ثلاثةً من أنبغ علماء مملكة أرابيتا في مجال النانو تكنولوجي.

أستاذ چافيد ومساعديه: د. (غادي)، ود. (راسل).

كان چافيد قد تخطى عامه السبعين، ويبدو أن الزمن كان قاسيًا عليه جدًّا؛ فقد ترك آثارًا في كل ملامح وجهه، فضلًا عن انحناءةٍ بسيطةٍ في ظهره، ولكنه رغم ذلك كان حاضر الذهن سريع البديهة.

أما غادي فكان في أوائل الأربعينات، متوسط الطول، وتبدو عليه سمات النحافة، أبيض البشرة، أشقر الشعر، وله عينان زرقاوان، ووجه مستديرٌ تمامًا يتوسطه أنف طويل مدبب.

كان كلٌ من چافيد وغادي من أشد الباغضين للتحالف وفكرة السيطرة على الشعوب.

وكان ثالثهما راسل الذي في نفس عمر زميله غادي، وكان طويل القامة، يمتاز برأسٍ كبيرٍ نسبيًا وبجسد ممتلئ، وكان ذا بشرةٍ داكنة، ووجهٍ مستطيلٍ، وأنفٍ عريض، وله عينان بنيتان تلمعان بشدة دلالة على ذكائه الشديد.

وبالرغم من معرفته بتوجهات أستاذه چافيد؛ إلا أنه كان يجهل تمامًا ما يقدمه من خدمات للمقاومة.

كان چافيد يعلم أن راسل لا تعنيه كثيرًا سياسات التحالف، ويعلم أيضًا أنه يغار بشدةٍ من زميله غادي، لقرب الأخير منه في أغلب الأحيان، وقد بات مترددًا في اختياره، ولكن لضيق الوقت لم يكن أمامه حل آخر، لا سيما وراسل قد نشأ على يديه منذ أن كان طالبًا بالجامعة، وهو يعده ابنًا من أبنائه.

وبطبيعة الحال لم يكن چافيد ينوي إطلاع راسل على أي شيء، أما بالنسبة لغادي فقد عقد العزم في قرارة نفسه على إشراكه في الأمر، ولكن في حالة الضرورة القصوى فقط، وكان يأمل ألا يحدث هذا أبدًا.

وفور وصول ثلاثتهم للمعمل، دهشوا من شدة التأمين وإجراءات الحيطة والحذر المتَّخذة، لكن چافيد كان أقلهم دهشةً فقد كان يعرف ما وراء كل هذا.

وعند لقائهم بدايمون الذي أطلعهم بكل وضوح على سبب إحضارهم، تحدث چافيد بحماسٍ مطمئنًا إياه بأنهم سوف يبذلون كل طاقاتهم من أجل الوصول لنتائج مرضية، ووافقه غادي الذي كان يثق في أستاذه أشد الثقة ولم يشك لحظة في نواياه.

أما راسل فقد بات مستغربًا من نغمة أستاذه الجديدة تلك والتي لم يعتد عليها سابقًا، لكن ما زاد حقًّا من استغرابه هو رد فعل غادي السريع في مجاراته لأستاذ چافيد، فأخذت الهواجس تدور في عقله، وقد ظهر هذا جليًا في لغة جسده وتعبيرات وجهه أثناء تحدثهم مع دايمون، والذي استشف أن راسل يحمل ضغينةً ما لغادي، وقد تأكد له ذلك عندما لمح أكثر من مرةٍ نظرةَ الغيظ تلك التي كان يرمق بها راسل زميله غادي، لذا فبعد انتهاء اللقاء لم يفوت دايمون الفرصة وقرر ممارسة ما كان بارعًا فيه، فاستغل انشغال الاثنين الآخرين بتفقد أرجاء المكان، وانفرد براسل محاولًا تجنيده، علَّه يفوز بعين له داخل المعمل؛ خاصة وأنه لم يرتح كثيرًا لأستاذ چافيد، وقد تبين له من حديثه أنه حويط للغاية وأن التعامل معه لن يكون سهلًا بالمرة.

بدأ دايمون حديثه مع راسل قائلًا:

- لقد أسعدنا انضمام عالمٍ بقيمتك إلينا، وأرجو ألا أكون مثقلًا عليك، ولكن حاكمنا چواد يستعجلنا في الوقوف على بحث دقيق، حتى نبدأ في تنفيذ المشروع في أسرع وقت.

واستطرد بسرعة قائلًا:

- وحاكمنا رجلٌ عادلٌ يقدر الكفاءات جيدًا.

قال راسل:

- سنبذل قصارى جهدنا، وأؤكد لك أن هذا الأمر بات شغلنا الشاغل من الآن وسنحقق ما طلب منا في القريب العاجل.

وهنا تحدث دايمون بخبثٍ شديدٍ فقال:

- بكل صراحةٍ أنا أطمئن لك كثيرًا وأثق جدًّا بقدراتك، لهذا فسأعتمد عليك في الفترة المقبلة بشكلٍ كبير، وسيكون لك الدور الأهم في هذا المشروع.

كانت لهذه الكلمات أثر السحر على راسل، فتنفس الصعداء وشعر بسعادةٍ بالغة، لم يستطع أن يخفيها عندما حانت منه دون قصد تلك الابتسامة العريضة.

وبهذا استطاع دايمون بدهائه أن يصل لهدفه، وكأن كلماته القليلة تلك قد عملت كوقود سريع الاشتعال، حث راسل بسرعة عجيبة على الخضوع التام له وكسب ثقته، للحصول على مزيد من هذا الشعور بالتميز.

وحينئذٍ تعجب راسل من نفسه عندما رد باندفاعٍ شديدٍ قائلًا:

- وأنا تحت أمرك وأمر الحاكم في أي شيء.

فقال دايمون:

- بدءًا من هذه اللحظة ستكون أنت المشرف على زميليك، ولكن من الأفضل ألا يلاحظا ذلك بشكل مباشر.

ثم أخرج ورقةً من جيبه وناوله إياها قائلًا:

- وهذا رقمي الخاص. حدثني في أي وقت تريده.

لم يدم حوارهما أكثر من دقيقتين أو ثلاثة، ليمضي بعدها دايمون واثقًا مطمئنًا أن راسل سيلعب دوره بإتقان، وسيحرص على الاتصال به قريبًا.

أما راسل فقد سرت في جسده رعشةٌ غريبةٌ وانتابته حالةٌ من النشاط العجيب، وكأن تلك الدقائق القليلة قد أشبعت غروره تمامًا، وشفت غليل سنينٍ من إحساسه بالقهر، نتيجةً لاعتقاده الدائم بأن أستاذه چافيد يفضل غادي عليه.

وفي مرآةٍ معلقةٍ بإحدى حوائط المعمل نظر إلى نفسه بإعجابٍ شديدٍ وقال:

- للمرة الأولى يا راسل ستكون أنت مركز الأحداث الذي يدور حوله كل شيء، بعيدًا عن غادي، بل وعن چافيد أيضًا.

ودقق النظر برهة في المرآة، ثم ما لبث أن أشاح بوجهه بعيدًا عنها، وكأنه لا يستطيع أن يكمل النظر فيها، وعاد يحدث نفسه قائلًا:

"لا أكمل النظر في شيء،

ولا شيء في نظري مكتمل.

إلا الزيف فإنه يحوط بأركانه كل ما حولي.

إنني مزيف..

ولا أعلم متى أصبحت هكذا.

إنسانًا هشًا ومغتربًا عن كل الحقيقة التي أشعر أنني أعرفها.

ولكنه أيضًا شعور مزيف،

لا يسمن ولا يغني من جوع.

كان أستاذ چافيد يخبرني دومًا أن الحياةَ عادلةٌ في كل مرة أرجِّح فيها كفةُ ضميري.

وأنا أعترف بهذا.

ولكن الاعتراف هنا لن يغير القضية،

وهي أنني لن أفهمها أبدًا.

ولا أستطيع أن أفهم أيضًا إلى متى سنظل ندافع عن هذه الحقيقة، دفاع الشاةِ عن ذئب ذبحها بمخالبه، رغبة في الحياة، لا سعيًا وراء الموت.

لا توجد إجابة على كل ما سبق سوى أنني لم يكن ينبغي أن أفهم أو حتى أحاول.

لأن شهدَ الحقيقةِ هذا الذي ذقته على يد أستاذ چافيد، كان لاذعًا كالخل، ولم يزدني إلا عطشًا، وقد نهلت منه كثيرًا إبان مصاحبتي له، وقد كان لي داءً لا دواء.

ولم تستطع تلك الحقيقة أن تحرق الزيف داخلي أو من حولي؛

بل هي ستقتلني يومًا، كما اغتالت من نهلوها قبلي.

لهذا لا بد أن أتلون،

وأتعلم كيف أخلط الزيت بالماء.
أتعلم كيف أزيف الزيف والحقيقة معًا، وأحلق بجناحين مائعين أشق بهما هذا النسيج المهترئ، دون أن أنظر حولي أو أقف مرةً أخرى باحثًا،
فيما ينبغي..
وما لا كيف تكون وازدهر.

***

وفي المعمل كان چافيد وغادي على غير عادتهما مقلين في الحديث نظرًا لانتشار كاميرات المراقبة، أما راسل فكان قد بدأ يلعب دوره كمشرفٍ عليهما، وقد أحب ذلك بشدة، فبدأ أسلوبه معهما في التغير بشكل تدريجي ولكنه ملحوظ جدًّا.
وهنا بدأ چافيد يفهم حقيقة الدور الذي يلعبه راسل، ورغم أنه كان يعرف طبيعته، إلا أنه لم يكن يتوقع أن يرسب سريعًا هكذا في الاختبار، وأن يلتقط الطعم الذي أُلقي له بتلك السهولة، فندم أشد الندم لاختياره.
وبعد عدة أيام لاحظ راسل أن أستاذه چافيد يعطل مسار البحث ويقوم بعملٍ منفردٍ على تجارِب لم يعطه المجال للمشاركة فيها.
وعندما حاول راسل أن يفهم أخذ چافيد يتحجج بأسبابٍ كثيرةٍ لم يقتنع بأي منها، فبدأ يشك في حقيقةِ ما يفعله چافيد داخل المعمل، وكان يود أن يبلغ دايمون بشكوكه تلك، إلا أنه قرر الانتظار ريثما يجد دليلًا ملموسًا.
وفي اليوم التالي جلس چافيد في أحد أركان المعمل، بطريقةٍ يستحيل معها على الجالس خلف شاشات كاميرات المراقبة رؤية ما سيكتبه، وأخذ باهتمام وتركيز شديدين يدوِّن على عدة أوراقٍ أمامه.

وبينما كان چافيد منشغلًا فيما يفعله، وقف راسل يراقبه من بعيد، فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها أستاذه بهذا، لذا فقد عزم أمره على الاطلاع على تلك الأوراق في أقرب فرصة، لكي يقف على حقيقة ما يفعله أستاذه في المعمل، وبالتالي وإن صدقت ظنونه سيكون بين يديه دليل فعلي يقدمه لدايمون.

وبعد أن عادوا لغرفتهم ليلًا وتمددوا في أسرتهم استعدادًا للنوم، انتظر چافيد حتى تأكد أن راسل قد غطَّ في نومٍ عميق، ثم نهض واقترب من غادي ووكزه برفقٍ حتى انتبه، فهمس في أذنه بشيء ثم خرج من الغرفة.

وبعيدًا عن كاميرات المراقبة، توجه چافيد إلى غرفةٍ مهملةٍ كانت تستخدم قديمًا كمخزن لأدوات المعمل ومعداته، وبعد أن دلفها وتأكد أن الجو خالٍ تمامًا، قام بإخراج جهاز اتصاله ليتحدث مع يزن.

وعندما جاءه رد الأخير من الناحية الأخرى بادره چافيد قائلًا:

- اسمعني جيدًا يا يزن، إن الوضع يتأزم، فمن ناحيةٍ يوجد هنا راسل الذي بات يراقبني عن كثب، وأتوقع أنه قد تم تجنيده من قبل دايمون المسئول عن سير العمل، ومن ناحيةٍ أخرى فنحن على بعد أيامٍ قليلةٍ وربما ساعات من انتقالنا لمعملٍ جديدٍ جارٍ تجهيزه في إحدى الجزر، والتي تقع في قلب البحر الذي يمر عبر المثلث الحدودي للممالك، وهناك لن أستطيع أن أعرقل مشروعهم.

وقطع چافيد استرساله في الحديث قائلًا بقلقٍ عندما لم يجد صوتًا من الطرف الثاني:

- يزن، أأنت معي؟

فقال يزن بسرعة:

- أنا مصغٍ إليك يا أستاذ چافيد، وبالفعل فقد شاهد رجالنا تحركاتٍ كثيرةٍ ونقل معدات وجنود على إحدى الجزر هناك.

عاد چافيد يقول:

- على كلٍ لقد بدأت منذ اليوم الأول لي في التفكير في حلٍ لإيقاف مؤامرة التحالف تلك، ولم أجد إلا حلًا واحدًا، وهو تقنية نانو مضادة لتلك التقنية التي يريدون حقن الناس بها، وبالفعل فقد كونت نموذجًا أوليًا لتلك التقنية المضادة، سأرفقه مع الأوراق البحثية التي وضَّحت بها كل شيء عن كيفية تصنيعها.

وستعمل تلك التقنية المضادة كتحصين للعقل ولكل أجهزة الجسد، من أية جزيئات نانو قد يحقن التحالف بها الشعوب للسيطرة عليهم.

وقد حرصت على أن تحتوي تلك التقنية أيضًا على علاجاتٍ متقدمة، وبذلك فإن تزويد الناس بها يعني استعادة صحتهم ووعيهم كاملين، وبالتالي الفرصة الكافية للنهوض لاسترجاع حرياتهم وحقوقهم المسلوبة.

رد يزن قائلًا:

- عظيمٌ يا أستاذ چافيد.

وعاد چافيد يتحدث بسرعةٍ قائلًا:

- يجب أن ترسل في أسرع وقتٍ ممكن أحد رجالك كي يتسلم الأبحاث والعينة، وبعد ذلك سيكون عليك تجميع علماءٍ من المقاومة، للبدء في العمل فورًا على تصنيع كمياتٍ كافيةٍ من تلك التقنية المضادة، لكي تكون الشعوب مستعدةً لمواجهة شرِّهم هذه المرة والانتصار عليه.

فرد يزن قائلًا:

- سأرسل لك أحد رجالي غدًا ولكن.

قاطعه چافيد:

- توجد بالجامعة التي أقوم بالتدريس فيها أجهزةٌ وأدوات ستكون كافيةً وستؤدي المطلوب لإتمام تصنيع تلك الجزيئات المضادة، وقد وضَّحت في الأوراق التي دونتها طريقة التسلل إلى الجامعة لإحضارها دون أن يلاحظ أحد.

ثم تابع چافيد قائلًا:

- أما عن كيفية إيصال الأوراق والعينةِ للرجل الذي سترسله، فيوجد هنا أسفل غرفة المعمل مخرج كان معدًا لحالات الطوارئ، وقد اختفى غطاؤه تمامًا أسفل أثاث المعمل، وبحكم عملي قديمًا في هذا المبنى فأنا الوحيد الذي يعلم بأمره.

وأكمل چافيد قائلًا:

- هذا المخرج يقود إلى خارج المبنى في الجهة الخلفية منه، وقد تفقدت المكان هناك قبل يومين دون أن يلاحظ أحد، فوجدت أن الباب الذي ينتهي إليه مخرج الطوارئ قد بات مخفيًا تمامًا، خلف الأشجار التي نمت وانتشرت هناك بشكل عشوائي، وسيستخدم رجلك هذا الباب في الدخول إلى المبنى، ثم سيتجه يمينًا ويعبر طرقةً طويلةً تنحدر قليلًا بشكل تصاعدي، وستنتهي به إلى حجرة مخرج الطوارئ الكائنة أسفل المعمل تمامًا، وهناك سيجد الأوراق والعينة.

وختم چافيد كلامه قائلًا:

- قبل أن ننهي حديثنا يجب أن أخبرك شيئًا هامًا، أنا أثق بد. غادي تمام الثقة، فإن حدثت في الأمور أمور فسوف يكمل هو المهمة، ويجب حينها أن تتواصلوا معه أثناء عمله على تلك الجزيرة وسيمدكم بكل المستجدات، وأيضًا سيمدكم باستراتيجية تحركهم لتوزيع جزيئات النانو خاصتهم.

أنهى چافيد المكالمة ثم عاد إلى الغرفة وألقى نظرةً على راسل، فوجده على الحال الذي تركه عليه، فاطمأن وتمدد في فراشه لينال هو الآخر قسطًا من النوم.

***

وفي مقر المقاومة عقد يزن اجتماعًا عاجلًا ببعض قيادات المقاومة لينبئهم بالتطورات الأخيرة، بعد أن ظلوا طوال أيام يفكرون في طريقة لإيقاف مسعى التحالف الأخير هذا.

فبدأ حديثه قائلًا:

- جاءني اتصال من أستاذ چافيد قبل قليل، أعطاني خلاله أملًا كبيرًا؛ فقد أبلغني بأنه تمكن بالفعل من ابتكار عينةٍ من جزيئاتٍ مضادةٍ لتلك الجزيئات التي يريد التحالف التوصل لها، وأكد عليَّ بضرورة إرسال أحد رجالنا خلال الساعات القادمة إليه، لإحضارها وإحضار أبحاثه.

ثم استطرد قائلًا

- ووفقًا لتوصياته سنقوم بإنشاء معملٍ هنا، وسنحضر أنبغ علماء المقاومة في مجال النانو من الثلاث ممالك لتصنيع جزيئاته المضادة.

وتابع قائلًا:

- وأعتقد أنه لن تكون هناك صعوبة في إقناع الناس بضرورة حقنهم بها لتحصينهم من مؤامرة التحالف الجديدة.

فقال أحد قادة المقاومة:

- هذا صحيح، فبرغم الآثار السلبية الخطيرة التي ترتبت على أحداث الميدان، إلا إن ريتال ابنة چواد استطاعت بعفويتها أن ترسم الصورة كاملةً للحشود الكبيرة التي اجتمعت حينها، مما أدى ليقظتهم التامة وانتشار عدوي تلك الصحوة بسرعة في الثلاث ممالك مع انتهاء تأثير المصل، بالإضافة لردود أفعال التحالف العنيفة، وهذا جعل الناس في صفنا في النهاية، وذلك أفضل ما كنا نأمله طوال مشوار كفاحنا.

رد يزن قائلًا:

- لقد علمت أنها الآن محبوسة في سجن شديد الحراسة بعاصمة أورشاليا، وبمجرد الانتهاء من الإطاحة بالتحالف سنعمل على إخراجها منه.

وهنا سكت برهةً وأخذ يفكر وقد لمعت عيناه بشدة، فعاد يقول لهم:
- لقد وجدت الرجل المناسب لمهمة إحضار الأوراق والتركيبة.
ثم أردف قائلًا:
- إذا كان يجب أن نختار رجلًا يستطيع التنقل بسهولةٍ والوصول إلى المبنى القديم الذي يحتوي المعمل، فالشخص المناسب هنا هو تيام من عاصمة مملكة أرابيتا، لأنه وكما وصلني من أخباره كان يقطن في حيز قريب جدًّا من تلك المنطقة، لذا فهو الوحيد في عناصرنا الذي يستطيع الاقتراب نوعًا ما من الشوارع المحيطة بمبنى المعمل دون مخاطر كبيرة؛ ذلك لأنه منضمٌ حديثًا للمقاومة، فضلًا عن ثقة يوناس الكبيرة به، فما رأيكم؟
عقَّب أحد قادة المقاومة قائلًا:
- كما تعلمون فرجالي يعملون باستمرار على فرز المنضمين حديثًا، وذلك لاختيار الأجدر على خوض العمليات الخطرة والحساسة للمقاومة، ولقد لفت هذا الرجل انتباههم بالفعل، فهو خفيف الحركة جدًّا، وتخطى معظم التدريبات القتالية بنجاحٍ تام.
وابتسم لهم ثم أردف قائلًا:
- حتى إنهم يلقبونه بالفهد لإعجابهم بسرعته ومرونته العالية، وقد أنهى بالفعل التدرب على استخدام بعض الأسلحة، وهو يتمتع بمهارةٍ فطريةٍ في إصابة الأهداف، وأنا أرشحه بكل ثقةٍ لتلك العملية.
وهنا تحدثت چايدا قائلةً:
- لقد تقابلت وتيام قبل عدة أيام أثناء مروري المعتاد على بعض نقاط التدريب، بصفتي متخصصةً في العلاج الطبيعي والتأهيل البدني، وتقييمي له أنه شخصٌ شجاعٌ للغاية وحاد الذكاء.
ونظرت إلى يزن وهي تستطرد قائلةً:

ـ وأعتقد أن حبه لريتال حافزٌ قوي جدًّا، ولا شك أنه سيحرص على إحضار العينة والأوراق كحرصه على حياته أو أكثر، لأنه يعلم جيدًا أن ذلك سيكون خطوةً مصيريةً في طريق تحريرها، لذا فأنا أجده مناسبًا تمامًا وأضم صوتي لصوت يزن.

نظر الأخير للجالسين أمامه برهةً قبل أن يعتدل في جلسته مخرجًا جهاز الاتصال الآمن من جيب سترته وينقر عليه عدة مرات.

وهنا هم يولاند بقول شيء ما، ولكنه تراجع وآثر السكوت في تلك اللحظة التي سمع فيها يزن يطلب من قائد المجموعة التي يتدرب معها تيام التحدث مع الأخير.

***

قريبًا جدًّا يا تيام

وبالقرب من إحدى نقاط تدريب المقاومة، الكائنة في عمق المثلث الحدودي بين الممالك، كان تيام يتمشى بمفرده على شاطئ البحر، وبعد برهة أحسَّ برغبةٍ ملحةٍ في ملامسة تلك الرمال المشبعة بماء البحر، فخلع حذاءه وأكمل سيره حافيًا، تغوص قدماه كلما خطا بهما وكأنهما تقبلان الأرض من تحته، فتعطيانه شعورًا دافئًا بالراحة، يتماهى معه قليلًا فتتساقط عنه همومه، كحبات الرمل التي تتناثر من قدميه في كل خطوة يخطوها.

وبعد قليلٍ جلس على صخرةٍ يراقب غروب الشمس ويفكر في حبيبته ريتال، فقد بعث إليه يوناس برسالةٍ قبل يومين مع أحد عناصر المقاومة، أبلغه فيها بأنهم قد عرفوا مكانها بعد اختطافها من الميدان، وبأنها بخير، ولكنها محبوسةٌ في سجنٍ مشددٍ بعاصمة أورشاليا.

وأحس وكأنه يسمع صوتها بين ثنايا الأمواج التي كانت تتهادى ببطء إلى أحضان الشاطئ، تحدثه بكلمات كانت تكررها له دومًا لتهوّن عليه معاناته فتقول:

- "ستتمكن من تذوق الحب لكل الناس، إذا استطعت أن تسامح البعض منهم، والذي تشعر أنه ظلمك، وستحب الحياة كلها إذا سامحت كل الظروف التي بنيت عليها مظلوميتك.

ففي حياة كل منا مظلومية كبيرة تظل تقيده وتبلور قصته بشكل مزعج، وعندما تتصالح مع نفسك أولا ثم مع الناس أو الظروف التي نَشَأت فيها تلك المظلومية، وقتها ستتغير قصتك، وستتوقف رحى تلك الحرب عن الدوران داخلك،

لتبدأ بالاستمتاع بالحياة، وحينها ستتقبل بنفس راضيةٍ أية مصاعب،

لأنه بإزاحتك لتلك الحجرة الكبيرة، سيكون من السهل جدًّا المضي قدمًا في خضم أية ظروف أو معضلات، والتي ستصبح فيما بعد مجرد حصوات صغيرة ستتخطاها دومًا بكل مرونة".

وهنا ودَّ تيام لو استطاع إخبارها أن تلك الأيام القليلة التي قضاها مع المقاومة أثبتت صحة كلامها، وأنه تخطى معاناته القديمة بشكلٍ حاسم، وبات يشعر بعِظَم القضية التي يدافع عنها، وأنه الآن قد أصبح يعي تمامًا معنى الحب والتضحية اللذَين كانت تحدثه عنهما.

وأخرج من جيب سترته رسالة يوناس يعيد النظر فيها، وأخذ في خياله يسترجع آخر مرةٍ التقى بريتال، قبل أن تودعه وينطلق مع عناصر المقاومة إلى أطراف المملكة.

كانت كل كلمة في الرسالة تدور في ذهنه، كلحنٍ كئيبٍ يطارده ولا ينفك يثير في نفسه شجونًا لا تنقطع.

وأخذ يتذكر كيف قابلها وكيف تغيرت حياته بعدها.

فأخذ يلوم نفسه قائلًا: "كيف تركتها ورحلت عنها، لماذا لم أبق، لماذا؟".

وعند هذه اللحظة شعر بضيقٍ وثقلٍ شديدين في صدره، فأخذ نفسًا عميقًا سامحًا لكل مشاعره في هذه اللحظة أن توجد كما هي، واستسلم ولم يحاول منع دموعه التي أخذت في الانهمار بغزارة، حتى بدأ يهدأ شيئًا فشيئًا.

وخلال عدة دقائق كانت الشمس قد غابت تمامًا، وبدأت أشعة القمر في الانسدال، فبدت صفحة المياه مع التموجات الهادئة كلآلئ تعكس نورًا ساحرًا، في منظرٍ خلابٍ سرح تيام مع جماله، بينما أخذت تجول في خاطره كلمات لـ (كارل يونغ)، حدثته بها أخصائية التأهيل البدني التي ترك لقاؤه بها انطباعًا مؤثرًا داخله:

"ليس هنالك شجرة، كما يقال تنمو حتى تبلغ السماء، إن لم تمتد جذورها إلى الجحيم".

وبينما هو كذلك فإذا به يلمح بطرف عينه قدوم أحد الأشخاص من بعيد، والذي تبين له عند اقترابه أنه قائد مجموعته.

اقترب منه الأخير وكان في يده جهاز اتصالٍ ناوله إياه، ثم انصرف بعدما أبلغه بأن هناك من يريد التحدث معه.

وخلال لحظاتٍ دق الجهاز فسارع تيام بالرد، ليجد على الناحية الأخرى صوتًا ارتاح له كثيرًا يقول:

- أهلًا يا تيام.

وبعد أن عرَّفه بنفسه أسهب في الحديث قائلًا:

- كثيرًا ما كنت أفكر حائرًا في أمر ريتال. كيف ظهرت، وكيف اختفت، ولماذا؟ حتى هذه اللحظة يا تيام.

ثم أردف قائلًا:

- لقد عرفَت ريتال أن داخلك إنسانًا جميلًا وفارسًا نبيلًا لن يتوانى عن التضحية بنفسه في سبيل الحق والخير، فنجحت بحبها فيما لم نستطع أن نفعله، وهو ضم رجل مثلك إلينا.

ثم استطرد قائلًا:

- يبلغني رجالي دومًا عن لياقتك العالية واجتيازك لتدريباتٍ واختباراتٍ عديدةٍ في وقت قياسي، لهذا فقد اخترتك لأهم عمليةٍ للمقاومة وللشعوب جميعها.

وأخذ يزن يشرح له تفاصيل المهمة المكلف بها مؤكدًا على عدة نقاط، حتى أنهى حديثه قائلًا:

- وأعدك أن تجد ريتال قريبًا، وسيتم لم شملكما، قريبًا جدًّا يا تيام.

ثم أنهى المكالمة.

***

حجرة الطوارئ

في اليوم التالي في المعمل، كانت الساعة تقترب من الرابعة عصرًا، عندما وقف غادي في المكان الذي أخبره چافيد أن يقف عنده، حين همس في أذنه في الليلة السابقة، بينما اصطنع الأخير تعثره بمنضدةٍ في أحد أركان المعمل ليقع ما عليها، وبسرعة دلف أسفل المنضدة وأزاح قطعةً من السجاد ورفع غطاء مخرج الطوارئ، ثم أخرج أوراقًا مطويةً بعنايةٍ من جيب سترته وألقاها بحرص، ثم أغلق الغطاء ثانيةً وأعاد تهيئة قطعة السجاد، لينهض بعدها ممسكًا ببعض الأدوات وكأنه كان يلتقطها بعد تبعثرها.

حدث كل هذا في بضعة ثوانٍ.

وكان دور غادي هو التغطية على إحدى الكاميرات لكي يستطيع چافيد إتمام المهمة دون أية شكوكٍ فيما يفعله.

وفي تلك الأثناء كان راسل يفتش بين ثنايا سرير چافيد ويتنقل بين أدواته باحثًا عن أي من تلك الأوراق التي شاهده يدونها على مدار تلك الأيام.

ولمَّا لم يجد ضالته اتجه للمعمل وعلى وجهه علامات الغضب وبادر چافيد قائلًا:

- أستاذ چافيد، لقد كنت أراك تدوِّن كثيرًا هذه الأيام، فهل تسمح لي بالاطلاع على هذه الأوراق؟

وهنا وقع الخوف في قلب ڤافيد وتحدث بتردد قائلًا:

- إنها بعض الملاحظات عن تجارب أجريتها سابقًا، ولا أتذكر أين وضعتها بالضبط.

ثم استطرد قائلًا:

- ألا تعرف طريقة عمل أستاذك يا راسل؟

أنا أحاول ترتيب أفكاري على الورق -كعادتي- وتمحيصها جيدًا قبل البدء في التجارب العملية.

وأردف بصوت يملؤه الحزن:

- أنسيت يا بني؟

رد راسل الذي انتفخت أوداجه واحمرت عيناه غضبًا، قائلًا بصوت مرتفع:

- دعك من هذا الأسلوب أرجوك، ولتوفره لغادي.

ثم مضى بخطواتٍ سريعةٍ خارجًا من المعمل.

وقف ڤافيد متأثرًا بشدةٍ من طريقة تحدث راسل معه، فاقترب منه غادي قائلًا:

- هوِّن عليك يا أستاذ ڤافيد، فيبدو أن راسل قد وصل لقمَّةِ حمقه هذه الأيام، وقد أعمته غيرته كثيرًا، فلم يعد يرى حقيقة ما يفعله وما أصبح عليه.

واستطرد قائلًا:

- ولكن ما هي أهمية تلك الأوراق التي يتحدث عنها، ولماذا جعلتني أقف أمام إحدى كاميرات المراقبة قبل قليل، ولماذا هو غاضب هكذا، ماذا يحدث؟

رد ڤافيد قائلًا:

- ستعرف يا بني، ستعرف قريبًا.

وبعيدًا عن المعمل كان راسل يجري اتصاله بدايمون، فقال له بعد أن رحب به الأخير:

- إن تصرفات أستاذ چافيد تزداد غرابة؛ فقد قام بالتدوين أكثر من مرة على عدة أوراق، ويزعم الآن أنها مجرد ملاحظاتٍ لا قيمة لها، ولكنني لا أصدقه، فقد كان في شدة تركيزه بينما يفعل ذلك، ولقد بات تعطيله للمشروع واضحًا جدًّا.

رد عليه دايمون قائلًا:

- حاول أن تكتشف ما كان يدونه يا راسل ولا تجعله يغيب عن ناظريك حتى أمرَّ عليكم الليلة، وبالنسبة لتعطيله للعمل وحججه الواهية تلك، فسوف ينتهي هذا الأمر قريبًا، وسيكون مجبرًا على العمل وفق نظامٍ محدد، في معمل الجزيرة الذي ستنتقلون له خلال يومين على الأكثر، حيث ستكون أنت المشرف أيضًا على كل شيء هناك، ولنرَ كيف سيكون أداؤك حينها.

رد راسل قائلًا بحماس:

- أعدك أنني سأبذل قصارى جهدي ولن يحدث أي تلاعب، وسننجز المشروع في أقرب وقتٍ، وستكون النتائج مبهرة لحاكمنا چواد وللتحالف بأكمله.

وهنا توقف راسل عن الحديث فقد أغلق دايمون الاتصال معلنًا انتهاء المكالمة.

***

وعند الساعة العاشرة والنصف فوجئ كل من چافيد وغادي بدخول راسل بصحبة دايمون، وقد بدا الغضب جليًا على وجه الأخير عندما سأل چافيد بحدةٍ عن مدى التقدم الذي وصل إليه في المشروع.

فرد چافيد قائلًا:

- ما زال العمل مستمرًا وقريبًا ستكون هناك نتائجٌ مبشرةٌ جدًّا.

فتحدث راسل قائلًا:

- أستاذ چافيد لم يبدأ إلى الآن في الخطوات الأولية، ويظل يطلب منا أن نحضر له تركيباتٍ غير مهمة وتجارب روتينية، لكي يجعلنا أنا ود. غادي مشغولين عن ملاحظة ما يفعله، وحتى ما يدونه من أفكارٍ نظرية لا يريدنا أن نطلع عليه.

فقال دايمون موجهًا حديثه لچافيد:

- أريد ردًا مقنعًا على ما قاله د. راسل.

وهنا وبرغم نظرات چافيد الحادة لغادي والتي لا تحمل إلا معنىً واحدًا، تجاهله الأخير تمامًا وتدخل قائلًا:

- إن طريقة أستاذ چافيد في العمل تعتمد على تدوين خواطر وملاحظاتٍ حول التجارب المراد تنفيذها، ولا تمثل تلك الكتابات التي دونها أية أهمية؛ بل هي مجرد خطوةٍ هامشية، وما يهمكم فعلًا هو النتائج النهائية والتجارب العملية التي تثبتها.

قال راسل:

- أرى أن د. غادي لا يريد بكلامه المرسل هذا إلا التغطية على شيء مريبٍ يحدث هنا.

فتحدث دايمون بطريقة عصبية قائلًا:

- حسنًا لنحسم هذا الموقف، أريد أن أرى ما دونته يا أستاذ چافيد، أين تلك الأوراق؟

رد چافيد الذي فوجئ بتصاعد الأحداث بشكل سريع قائلًا بتلعثم:

- لا أتذكر، قد أكون تركتها في أي مكان، أعدك بأنني سأبحث عنها وسأجدها قريبًا.

رد دايمون بسخطٍ شديدٍ وقد علا صوته قائلًا:

- لا أقبل تلك الإجابة، أريد منك أن تأتيني بتلك الأوراق الآن.

وفي تلك الأثناء وتحت أرجلهم في الحجرة التي تقع أسفل المعمل، كان تيام قد وجد بالفعل الأوراق البحثية، وتأكد من وجود عبوةٍ بينها كما أخبره يزن أن يفعل، ثم هم بالانصراف عائدًا إلا أنه سمع أصواتًا تعلو، فتوقف لبرهة ليصل إلى مسامعه صوت غادي وهو يصيح قائلًا:

ـ أنا لم أعرف أكثر منك وقاحةً يا راسل، أنت عار على العلم الذي تحمله، وخسارة أن تكون تلميذًا لأستاذ چافيد.

هذا الرجل العظيم الذي لم يبخل عليك يومًا بأي شيء واحتضنك كابن من أبنائه.

رد راسل قائلًا:

ـ ليس لأحد فضلٌ علي، وأنا لست ابنًا لشخص يكره الحاكم، ودومًا ما كانت تلميحاته سلبيةً عن التحالف ونظامه، وأعلم أنك تسير على نفس خطاه أيضًا.

وهنا لم يتمالك غادي نفسه من الغضب، فوجه لكمةً قويةً إلى راسل الذي ترنح بشدة على إثرها وتراجع خطوات للوراء.

فقام دايمون بإخراج مسدسه مطلقًا رصاصتين للتحذير.

سمع بعدها تيام وقع أقدام متسارعةٍ تقترب من المعمل فوقه، فتحفز بشدةٍ وكان قد فهم ما يدور بالأعلى، ولم يستطع تجاهل ما يمليه عليه ضميره الآن من وجوب التدخل علَّه يتمكن من إنقاذ هذين الشخصين اللذين باتا في خطر محدق.

وفي المعمل وبمجرد أن أطلق دايمون الرصاص، حتى دلف ثلاثة أفراد من القوات، فقال لهم الأخير بلهجةٍ آمرةٍ مشيرًا لكل من چافيد وغادي:

ـ أريدكم أن تستجوبوهما بأي شكل لمعرفة مكان الأوراق التي يخبئانها.

ثم خرج مسرعًا يتبعه راسل متحسسًا وجهه وهو يتفوه بكلمات غير مفهومة.

أخذت قوات الأمن تغلظ الحديث لچافيد وغادي وتهددهما ولكن دون جدوى، حتى صاح چافيد بأعلى صوته مخبرًا إياهم بأنه لا فائدة مما يفعلونه.

وفي تلك الأثناء كان تيام قد رفع جزءًا بسيطًا من الغطاء الذي برز فوقه مراقبًا المشهد استعدادًا للتدخل، ليجد أحد الجنود يمد يده محاولًا تفتيش أستاذ چافيد، ولكن الأخير أمسك يده مبعدًا إياها، فانفعل الجندي وضربه بشدة على رأسه بقبضة سلاحه، ليقع چافيد أرضًا

وهو يتأوه بشدةٍ في مشهدٍ مؤثر، فلم يشعر تيام بنفسه إلا وهو يخرج من مكمنه مباغتًا بإطلاق الرصاص، وبسرعةٍ ودقةٍ وفي ثوانٍ أنهى الثلاثة جنود.

ثم توجه حيث وقع چافيد ليجد غادي ممسكًا برأس أستاذه في ذعرٍ وحزنٍ ولا يدري ماذا يفعل.

وهنا رفع چافيد يده بصعوبةٍ بالغةٍ مشيرًا إلى جيبٍ داخل سترته، فسارع غادي بالبحث حيثما أشار ليجد بضع ورقات، تحامل چافيد على نفسه ثانية وأمسك يد غادي يشد عليها قائلًا بكلمات متقطعة:

- لقد حانت لحظة الفراق، ولكنني سأظل حيًا، حيًا بك يا غادي وبكل المخلصين أمثالك.

وسكت هوينةً ثم عاد يقول بصعوبة بالغة:

- في هذه الأوراق ستجد كل ما أردت معرفته يا بني.

قالها ثم فارق الحياة.

كانت الدموع تنهمر من عيني غادي، من شدة التأثر والحزن على أستاذه الذي مات بين ذراعيه.

وهنا قال له تيام في إلحاح:

- لا وقت لذلك، يجب التحرك الآن، هيا بنا.

وبصعوبة استجمع غادي قوته ونهض مع تيام إلى مخرج الطوارئ ليهبطا منه، ثم يمضيان بسرعةٍ هاربين من المبنى.

وبعد لحظات دخل دايمون وراسل إلى المعمل يهرولان بعد سماعهما لإطلاق النار.

أخذ دايمون ينظر حوله في كل اتجاه محاولًا فهم ما حدث، وباحثًا عن غادي ليفسر له الأمر، فلم يجده.

ثم ما لبث أن تذكر الكاميرات، فغادر بسرعة إلى غرفة المراقبة واسترجع ما حدث داخل المعمل.

ليقف مصدومًا وهو يرى غطاء مخرج الطوارئ -الذي لم يكن يعلم عن وجوده شيئًا- يفتح ويخرج منه رجل سريع الحركة بشكل غير عادي، فيردي ثلاثةً من قواته قتلىً في ثوانٍ.
فعاد على الفور للمعمل وفتح غطاء مخرج الطوارئ، وهبط إلى الحجرة التي تقع أسفل المعمل، ليجد طرقةً طويلةً أخذ يعدو خلالها حتى وجد بابًا فتحه، ثم أزاح فروع الأشجار المتدلية وتخطاها، ليجد نفسه خارج المبنى تمامًا.
وقف يلتقط أنفاسه المتصاعدة مدققًا النظر في كل اتجاه حوله، ولكنه لم يجدهما، وكأنهما قد تبخرا في الهواء، فلم يكن هناك أي أثر لغادي أو لهذا الشيطان، الذي بظهوره تحول المعمل إلى جحيمٍ ابتلع جنوده في ثوانٍ.

***

تحرك كل من غادي وتيام مبتعدين عن المبنى.
انحرف تيام إلى شارعٍ جانبيٍ يتبعه غادي، إلى أن وصلا إلى سيارةٍ رياضية ذات لون أزرق داكن، دلفا إليها، لينطلق بها تيام في الحال مبتعدًا عن المنطقة.
كان غادي منهارًا ومشتتًا وبدا في حالة يرثي لها، فآثر تيام الصمت حتى يأخذ وقته اللازم ليفيق من هول الصدمة.
وبعد ساعة أو أكثر كانت السيارة قد تخطت عاصمة أرابيتا واتخذت طريقًا ضيقًا قديمًا غير ممهدٍ على الاطلاق، ولكنه آمن نسبيًا.
وهنا التفت تيام إلى غادي فوجده ما زال شارد الذهن وعينيه مغروقتين بالدموع، فقرر التحدث معه علَّه يستطيع أن يسري عنه.
عاد ثانيةً ينظر أمامه على الطريق المهجور والذي خلا تمامًا من أية مركبات أو مارةٍ وقال:

- كان يوجد في الماضي حلمٌ غريبٌ جدًّا، طاردني كثيرًا وما زلت أتذكره، كم تمنيت لو ساعدني أحد على فك طلاسمه.

نظر له غادي مستفسرًا، فبدأ تيام يتحدث قائلًا:

- كنت أرى فيما يرى الرائي، أن العالم يعيش في كابوسٍ من صنع كائناتٍ شيطانية. الكل نيام، وتم غرس تلك الشرور التي في العالم في أحلامهم، فيتسلون بالطيب والشرير على حد سواء، كرهانٍ تافهٍ في لعبة قمار، في حانةٍ مزرية يخبو نورها مع الزمن.

فكر غادي قليلًا ثم رد عليه قائلًا:

- هذه النوعية من الأحلام، ما هي إلا انعكاس لمقاومة عقلك للمصل، فيبدو أنه لم تطلك نسبةٌ كبيرةٌ منه، ولذلك كان عقلك يقاوم ويستشفى ذاتيًا.

قال تيام:

- هذا صحيح، فلم أتناول المصل إلا من خلال مياه الشرب، حيث كنت أزرع في حديقتي أصنافًا كثيرةً أغنتني عن التبضع من الأسواق.

وحتى الماء فإنني توقفت عن شرائه من الأسواق لاحقًا بعد قراءتي لمنشورات التوعية التي كانت توزعها جبهة المقاومة، واعتمدت على البئر الذي كنت أسقي منه الزرع، بعدما تعلمت تحلية مياهه، وحينها توقف هذا الحلم عن إزعاجي.

وتابع تيام التحدث مع غادي في عدة مواضيع، حتى بدأ الأخير في التجاوب معه بشكل أفضل، وعندئذٍ قال له:

- لا تبالغ في عنونة ما يحدث حولك ولا تحكم عليه سواءً بالسلب أو الإيجاب، حتى لا تجد نفسك منقادًا إلى دراما مزعجة تشتتك، فتصبح أسيرًا للمؤثرات الخارجية.

لذا فكلما أحسست بمشاعرٍ من أي نوع فتقبلها، اسمح لها أن تكون ثم دعها تمر، دع كل شيء يمر كالسحاب دون تعلق، لتصفو سماؤك، ويبزغ جوهرك، وينير وعيك الصافي، فتكون حاضرًا وتشعر بالحياة الحقيقية.

ثم أردف قائلًا:
- أقول لك هذه النصيحة عن تجربة، فهي تنجح معي في أغلب الأحيان.
وهنا ساد الصمت بينهما وكانا قد أنهيا هذا الطريق، فانحرف تيام إلى طريق آخر جبلي على أطراف المملكة، كان يسير بدقة وفقًا للمسار الذي رسمه له قائد المجموعة التي يتدرب معها.
ومع بداية نور فجرٍ جديد، عرج تيام إلى طريق ضيقٍ هو الآخر وغير ممهد، ولكنه مشجر وجميل.
وبعد أقل من ساعة، وصلا في النهاية إلى المنزل الذي سيقابل فيه يزن ليسلمه ما بحوزته يدًا بيد، كما أكد عليه الأخير.

***

الباب

"نحن دومًا نبحث عن الباب،
حتى نجده ونقف أمامه.
ننظر ناحيته بخوف،
ثم ما نلبث أن ندور حوله كثيرًا.
نبتعد تارةً ونقترب تارةً أخرى،
ونعود لنقف أمامه.
نشعر أن وراءه ما نبحث عنه،
ولكننا نخشى أن نفتحه،
لاعتقادنا أن ما وراءه قد يغيرنا.
في الحقيقة نحن نخشى أن نتغير،

فنقاوم التغيير مهما آلمنا ذلك،

وهكذا نظل نعيش متمسكين بجراحنا.

نخشى أن نتهوه عن أنفسنا التي ظننا دومًا أننا عرفناها،

ونتمسك بأدق تلابيب نموذجٍ متهالك،

ونظل واقفين أمام الباب،

حتى تأتي لحظةٌ عظيمة..

لحظة تتجسد فيها أشباح هذا النموذج،

فنشعر بثقل المعاناة التي قيدنا بها نسيجه المتداخل في أعماقنا،

ولا نجد مفرًا من فتح الباب للتحرر من تلك الأغلال.

وفي تلك اللحظة التي يفتح فيها،

يتعادل كل شيء،

يصبح الفرح كالحزن،

تلتئم كل جراحنا وكأنها لم توجد أبدًا،

نعرف أنفسنا، نلمس جوهرنا، ونعيش في النور".

كان نور الصباح قد بدأ في الزحف نحوهما، عندما نزل كل من غادي وتيام من السيارة، وأخذا يسيران بسرعةٍ تزداد وتيرتها نحو بابٍ منزل لا يبتعد عنهما كثيرًا، ولكن لا تكاد تُرى معالمه بسبب كثافة الأشجار المحيطة به.

أخذ تيام يدق الباب ولكن دون مجيب، فبدا وكأنه منزل مهجور ولا ثمة حياة فيه.

حينها تذكر فجأةً كلماتٍ شعر وكأنها تُهمس من أعماقه وتكرر نفسها:

"سيفتح لك الباب يومًا يا تيام، فإن كنت صبرت حتى الوصول إليه، فالأولى لك أن تصبر حتى يفتح؛ فقد أوشكت أن تدخل".

أفاق تيام على صوت غادي وكأنه يأتيه من عالم آخر قائلًا:

- تيام.. تيام ما بك؟

رد تيام قائلًا:

- تذكرت شيئًا، وكأنني مررت بهذا الموقف سابقًا.

قال له غادي:

- التفاصيل دومًا ما تنمحي، لتعاود هي نفسها الظهور في ثوب بالٍ صبغ ببدائيةٍ مقززة للغاية، لا تفكر فيها كأنها معادةً؛ بل تغافل وأكمل حتى لا يموت داخلك الشغف.

ثم أردف قائلًا وهو يهم بالتحرك محاولًا اكتشاف مدخل للمنزل:

- أو نموت نحن الاثنان هنا لو لم ندلف لهذا المنزل سريعًا.

أفاق تيام من شروده قائلًا لغادي -الذي كان يجول ببصره في أرجاء المكان، وقد ابتعد عنه بضعة مترات-:

- عد هنا يا د. غادي، لا تغب عن ناظري.

وقفا خائفين وكأن أشباحًا تتربص بهما، وبعد برهة أخذا يدققان النظر فيما وراء الزجاج المزين للباب، فوقع نظرهما على أثاثٍ قديمٍ متهالك يعلوه تراب كثيف.

قال غادي في تشكك:

- ما هذا؟!

رد تيام قائلًا:

- لا أعلم، أنا مثلك أول مرة آتي لهذا المكان.

لم يكد تيام ينهي جملته الأخيرة حتى أحس فجأةً بتحرك الأرض من تحت أقدامهما، فتنحى جانبًا بخفةٍ جاذبًا غادي من ذراعه.

ونظرا ليجدا بابًا إلكترونيًا خفيًا تمامًا يُفتح ببطء، لتنشق عنه الأرض، معلنًا عن درجات سلم.

ففهما أن باب البيت هذا الذي أوسعاه دقًا كان مجرد تمويه، وإن الباب الحقيقي كان تحت أرجلهما طوال الوقت.

وبسرعة أنهيا درجات السلم، ثم قطعا طرقةً قصيرةً ليجدا نفسيهما أمام باب جديد، ودون أن يدقا عليه أو حتى يفكر أحدهما في ذلك، وجداه يفتح من تلقاء نفسه.

فقال غادي لتيام:

- هناك أبوابٌ لا تُفتح بدوام الطرق، بل بجاهزيتنا نحن لدخولها.



الفصل الثاني



داخل المنزل

كانت الساعة تدنو من السادسةِ صباحًا عندما دلف كل من غادي وتيام إلى المنزل الذي يقع في باطن الأرض، وحينها نظر غادي إلى تيام قائلًا:

- أين أفراد المقاومة؟ لم نر أو نشعر بوجود أحدٍ منهم.

رد تيام قائلًا:

- لمَ التعجل يا د. غادي؟ اصبر وكفاك قلقًا، سيظهرون الآن فربما...

ولم يكمل تيام جملته حتى ظهر يزن قادمًا من إحدى الطرقات.

وكان يزن في أواخر الأربعينات، فارع الطول، عريض المنكبين، ذا بشرةٍ داكنة، وله عنقٌ طويل، ووجهٌ مستديرٌ يتوسطه أنف مفلطح، تبدو عليه سمات الهدوء، ومن عينيه العسليتين يشعُّ بريقٌ غريبٌ يوحي بشخصيةٍ ذات ذكاءٍ كبير، وفطنةٍ وحذرٍ شديدين.

نظر لهما نظرةً خاطفة، وعلى الفور تعرف على تيام من هيئته ومن الوصف الذي قيل له عنه، فقال موجهًا له الكلام:

- لقد تأخرت قليلًا وكنت قلقًا عليك للغاية، لكنني لم أشك لحظةً في نجاحك وقدرتك على إتمام المهمة، وها قد عدت ومعك أيضًا صديق.

ونظر إلى غادي باستغراب، فسارع تيام قائلًا ليزن وقد عرفه من صوته:

- لقد حدث ما قلب الأمور رأسًا على عقب.

وحانت منه التفاتة إلى غادي، ثم شرع في تلخيص ما حدث في المعمل، وختم كلامه قائلًا:

- أنا أتحمل كل اللوم على ما قد تراه تهورًا وعدم التزامٍ بالتعليمات؛ خاصةً وقد بات التحالف متيقنًا الآن من أننا على درايةٍ بمخططاتهم، وهذا يعني...

وهنا أشار له يزن بالتوقف، وقد لفه الحزن بردائه حينما عرف بموت چافيد، وسكت دقيقةً يستجمع شتات نفسه، ثم ما لبث أن تنهَّدَ تنهيدةً قويةً وتحدث قائلًا:

- على العكس تمامًا، إن تقديري لك ولكفاءتك قد زاد كثيرًا بهذا الموقف الشجاع، فإنقاذ الناس بأية وسيلةٍ هي أولى مسئولياتنا.

ثم توجه بناظريه إلى غادي قائلًا:

- آسف لما حدث، ولكنَّ عزائنا ألا يضيع مجهود أستاذ چافيد هباءً، وأن نحقق هدفه الذي عاش ومات عليه، وهو تحرير الشعوب.

ثم نظر لتيام الذي فهم على الفور، فأعطاه ما بحوزته.

فأشار لهما بيده قائلًا:

- آخر تلك الطرقة يسارًا توجد حجرتكما.

لقد تعبتما الليلة كثيرًا، فحاولا أن تنالا قسطًا من الراحة.

قال هذا ثم انصرف.

وكان الاثنان في قمة التعب بالفعل، فبمجرد دخولهما إلى الحجرة أويا إلى فراشيهما وغطَّا في نومٍ عميق.

***

قنبلة

وفي قصر الحكم بأرابيتا وقبل ذلك بعدة ساعات، كان دايمون يقف خائفًا وهو يبحث عن كلماتٍ لإطفاء ثورة الغضب المشتعلة لدي چواد، فقال له:

- أؤكد لك يا سيدي أن أستاذ چافيد لم يتوصل لشيء، وأن كل ما استطاع فعله هو تعطيل المشروع، ود. غادي...

قاطعه چواد بعصبيةٍ شديدةٍ قائلًا:

- تعطيل المشروع فقط، أهكذا تبرر فشلك يا دايمون؟ إن كل خططنا قد باتت الآن على المحك، ولن أطمئن حتى أعرف ما تحتويه تلك الأوراق، وإن صحَّ ظنِّي فإن بها ما قد يعرض المشروع كله للخطر.

قال دايمون:

- إن التجهيزات في الجزيرة تسير على قدمٍ وساق، وقد أكَّد لي راسل أن الموقف سيتم تداركه، وأبلغني بأنه توجد وسيلةٌ سريعة الانتشار سيستخدمها في نشر جزيئات النانو و...

قاطعه چواد قائلًا بجفاء:

- دايمون، أريد التحدث مع راسل الآن.

أخرج دايمون جهاز الاتصال خاصته، وبوجه ممتعض أخذ يقلب فيه حتى وصل لاسم راسل، فدق عليه، ولما جاءه الرد من الجهة الأخرى، وقبل أن ينطق ببنت شفةٍ تحرك چواد تجاهه، ومد يده مختطفًا منه الجهاز ليتحدث بسرعة قائلًا:

- معك الحاكم چواد يا د. راسل.

أريد منك أن تشرح لي كيف ستنجز ما أريد، وكم المدة التي تحتاجها بالضبط، وما هي تلك الوسيلة السريعة التي سنحقن بها جزيئات النانو.

رغم أن راسل كان يحلم بتلك اللحظة، إلا أن المفاجأة أربكته كثيرًا، ولكنه تماسك وأخذ يرتب ما سيقوله ليبهر چواد، فانطلق متحدثًا بثقةٍ قائلًا:

- سيدي الحاكم، بمجرد الانتقال إلى الجزيرة، سنبدأ على الفور بتنفيذ المشروع، وستكون الوسيلة المستخدمة لحقن الناس بجزئيات النانو هي قنبلة.

صاح چواد قائلًا:

- قنبلة! كيف؟

قال راسل:

- أنا أعلم أن الوقت أهم شيء عندك، وأعلم مدى تخوفك بعد هروب د. غادي، والذي قد ينقل شيئًا من أسرار المشروع إلى المقاومة، ولكن لا داعي للقلق مطلقًا، فالفكرة التي عكفت على دراستها جيدًا خلال الأيام الفائتة ستكون حاسمةً للغاية؛ فهي عبارة عن قنبلة صاروخية سيتم إطلاقها إلى أجواء كل مملكة، وستحوي جزيئات النانو لتقذفها في الهواء، فتنتشر بسرعةٍ شديدةٍ لتغطي مساحة كل مملكة بإحداثيات مضبوطة وبشكل دقيق.

وستقوم بمهامها في السيطرة التامة على الشعوب، لتصبح أجسادهم كروبوتات آلية في انتظار الأوامر التي سيبثها كل حاكمٍ إلى شعبه، من خلال جهاز تحكمٍ وإرسالٍ خاص به، تتشابه طريقة عمله مع أسلوب عمل جهاز الاتصال.

تهللت أسارير چواد فقال بلهجة لا تخلو من الانبهار:

- عظيم جدًّا يا د. راسل، اشرح لي أكثر.

فقال راسل:

- ستتم برمجة جزيئات النانو بأرقام متسلسلة، لذا فعندما تنطلق لتصيب الأفراد، سيصبح الأمر ببساطة وكأن كل فرد منهم هو شريحة اتصال لها رقم معين، تستطيع من خلاله تحديد مكانه بطريقة مشابهة للـ(جي بي إس)، وسيظهر ذلك جليًا على شاشة جهاز التحكم، لتصدر له ما تريد من أوامر، فيترجمها عقله على الفور ويبدأ في التنفيذ.

قال چواد:

- آه، فهمت، لكن كيف ستضمن ألا تتداخل أجهزة التحكم والإرسال تلك بين الثلاث ممالك؟

فقال راسل:

- سيتم تقسيم جزيئات النانو إلى ثلاثة أقسام لثلاث ممالك، وسيُشفَّر كل قسمٍ بشفرةٍ خاصةٍ به لا يعلمها إلا حاكم المملكة، وعندما تنتشر الجزيئات وتصيب الأفراد، حينها سيُدخل كل حاكمٍ شفرته إلى جهاز الإرسال، فيستجيب له شعبه الذي أصيب بالقسم الخاص به من الجزيئات.

فقال چواد بسرعة:

- يعني هذا أنه لو تم تشفير الثلاثة أقسام بشفرةٍ واحدة، سيكون التحكم بالثلاثة شعوب لمن يحمل تلك الشفرة؟

رد راسل مستغربًا:

- نعم، هذا صحيح.

فقال له چواد:

- عظيم جدًّا، ولكن ألا ترى معي أن الأمر بتفاصيله المتشعبة تلك، سيحتاج وقتًا ليس بالهين لتنفيذه؟

قال راسل:

- ليس بالضرورة؛ حيث إن العمل سيتم بالتزامن على إعداد كل من جزيئات النانو التي تحمل الأرقام المتسلسلة، وجهاز التحكم والإرسال الذي ستُبث منه الأوامر، وبرنامج التشفير، وأخيرًا والأهم هي القنابل التي ستنقل جزيئات النانو لكل الشعوب.

واستطرد قائلًا:

- وبكل تأكيدٍ فإن هذا النسق الذي ذكرته لك للتو، لا علم لد. غادي به على الإطلاق، لهذا فلا زالت لنا الأسبقية.

فقال چواد:

- أنت عظيم يا د. راسل، ومثلك لا بد أن يحظى بالتقدير الذي يليق به، وسيكون.

قال راسل فرحًا:

- إن إخلاصي لك جعلني أرتب العمل على المشروع بمفردي، ولم أضِع الوقت من أول لحظةٍ لي في المعمل، دون أن أُشعر أستاذ چافيد أو د. غادي بشيء، لذا فمع بدء العمل في الجزيرة، سنكون جاهزين خلال وقتٍ قياسي.. أسبوعان أو ثلاثة، وإن طال سيكون شهرًا على أقصى تقدير.

ولكن يجب من هذه اللحظة البدء في توجيه علماء الأسلحة البيولوجية في الممالك نحو إيجاد حلٍ لدمج جزيئات النانو بالقنابل الصاروخية، وأؤكد لك ثانيةً أن جزيئات النانو تلك ستكون لها قدرةٌ عاليةٌ على اختراق المواد بعد انفجار القنابل مباشرةً، وستصل لكل أفراد الشعوب في الثلاث ممالك خلال بضع ساعات.

قال چواد:

- حسنًا، ولن تكون المشرف على سير العمل فقط؛ بل ومن الآن أنت نائبي على تلك الجزيرة، ولك كل الصلاحيات يا د. راسل، أتسمعني؟ كل الصلاحيات.

ثم أردف قائلًا وهو ينظر لدايمون الذي كان يعض على شفتيه من الغيظ:

- وسيكون دايمون معك خطوةً بخطوة، أخبره بكل ما تحتاجه من أجهزة ومعدات وسوف تكون بين يديك على الفور.

ثم استطرد قائلًا:

- سأرسل لك سيارةً تحضرك للقصر، فأنا أريد التحدث معك في موضوع سيطول شرحه، فاستعد فقد تصل السيارة خلال دقائق من الآن.

ثم أعطى الجهاز النقال إلى دايمون الذي أنهى المكالمة كاتمًا غيظه؛ فلم يكن راسل قد أخبره بكل تلك التفاصيل التي كان يعمل عليها، وشعر أنه كان مجرد جسرٍ عبر عليه الأخير إلى چواد، فاكتسب اهتمامًا ومكانة لم ينلهما هو نفسه.

بعد ذلك عاد چواد وطلب من دايمون أن يتواصل مع حكام المملكتين لعقد اجتماع خلال ساعاتٍ من الآن، ثم أشار له بالانصراف.

وجلس يفكر مليًا..

كان هذه المرة لا يريد أن يهبط بطائرةِ طموحهِ أبدًا مهما كلف الأمر، وقد تولدت في ذهنه أثناء محادثته مع راسل فكرةً خطيرةً جدًّا، لدرجة أنه لم يفكر حينها في مصير ابنته لو طبَّقها.

ويبدو أن شهوته للتحكم قد تضاعفت بشكلٍ كبيرٍ فطغت على أية عاطفةٍ لديه.

***

الرسالة

وفي مقر المقاومة استيقظ كل من غادي وتيام بعد بضعة ساعات، وأخذا حمامًا دافئًا أعاد لهما نشاطهما.

وبعد تناول الطعام في القاعة الرئيسية حضر يزن، وتوجه ثلاثتهم إلى إحدى حجرات المنزل.

كانت الابخرة تتصاعد من أكواب الشاي التي تراصت أمامهم على المائدة التي جلسوا حولها، عندما شرع يزن بالتحدث موجهًا كلامه لغادي فقال:

- بناءً على ما أورده لنا أستاذ چافيد، وبينما نتحدث الآن، فإن رجال المقاومة يتسللون إلى الجامعة لإحضار أجهزةٍ ومعداتٍ ستكون بين يديك أنت وطاقمٌ من العلماء على وشك الوصول إلى هنا، وذلك للبدء في تجهيز معملٍ لتصنيع جزيئات نانو مضادة أحضر بالأمس تيام عينةً منها.

رد غادي قائلًا:

- يبدو أن أستاذ چافيد قد أعدَّ العُدَّة لكل شيء، وكان يعمل في سريةٍ تامةٍ لدرجة أنني كنت معه في أغلب الأوقات ولم أعلم بأي من هذا.

فقال يزن:

- كان يحاول حمايتك يا غادي، ورغم ذلك فقد ورطت نفسك بسبب شهامتك ووفائك لأستاذك، ولو لم يخرجك تيام في الوقت المناسب لانتهى أمرك.

وتابع يزن قائلًا:

- لقد أوصى أستاذ چافيد بضرورة الوقوف على مستجدات العمل في المشروع ومعرفة استراتيجية توزيع جزيئات النانو، حتى يتسنى لنا مواجهة خطة التحالف بشكل فعَّال.

وأخرج من جيبه خريطةً ثم بسطها أمامهما، وأشار إلى إحدى الجزر وأردف قائلًا:

- ومن عدة أيام رصد رجالنا هنا تحركاتٍ عديدةٍ لقوات التحالف، وقد أبلغني أستاذ چافيد في اتصاله الأخير بأنهم يجهزون تلك الجزيرة لاستقبال علماءٍ من كافة الممالك لإتمام مشروعهم.

وهنا تحدث غادي قائلًا:

- نعم، لقد أخبرنا دايمون مسئول المشروع -حين التقي بنا أول مرة- عن الانتقال خلال أيام لمعملٍ على إحدى الجزر لاستكمال العمل هناك.

فتابع يزن قائلًا:

- وكان من المفترض يا د. غادي أن تكون ضمن هؤلاء العلماء الذين سينتقلون للجزيرة، حتى تمدنا بالمعلومات اللازمة في حال انكشاف أمر أستاذ چافيد، والذي كان بالفعل يتوقع حدوثه، وأعتقد أنه كان سيطلعك على ذلك لولا تطور الأحداث الأخيرة في المعمل.

وفجأةً وكأنه تذكر شيئًا، قام غادي بتحسس جيب سترته، ثم مد يده مخرجًا بعض الأوراق قائلًا:

- عذرًا للمقاطعة، ولكنني تذكرت للتو، عندما أشار أستاذ چافيد إلى جيب سترته، أخذت منه تلك الأوراق قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأتذكر كلماته جيدًا حين قال إنني سأعرف منها كل شيء.

فقال له يزن:

- حسنًا فلتقرأ علينا ما بها يا د. غادي.

ثم أردف قائلًا:

- هذا إن لم تكن رسالةً خاصةً بالطبع.

أخذ غادي يفض محتوى الأوراق باهتمامٍ بالغٍ وقد ظهرت عليه علامات التأثر الشديد، وبعد وقت يسير تحدث قائلًا:

- هي بالفعل رسالةٌ كتبها لي أستاذ چافيد، ولكن من يقرأ سطورها الأولى سيفهم أن مضمونها لكل إنسان وهب نفسه للنضال في سبيل الحقيقة.

نطق بتلك الكلمات وشرع يفض لهم مكنون الرسالة:

"صديقي العزيز وابني غادي.. وجود هذه الأوراق بين يديك الآن يعني أن أمري قد انكشف وأن التحالف قد اعتقلني أو أنهى حياتي.

أنا مدركٌ تمامًا لثقل المهام التي سألقيها عليك، وواثق من أنك سوف تضحي بنفسك إن لزم الأمر لإكمالها، لأنك تؤمن بالحب والخير وبضرورة تحرير الإنسانية من قيود الوهم الذي عاشت فيه طويلًا.

في البداية أود أن أخبرك شيئًا عن نفسك.

أنت روح محبةٌ جدًّا ومعطاءةٌ لأبعد الحدود.

أتعلم يا غادي، أنا لا أستغرب أفعال البشر مسلوبي الإرادة والذين تم التلاعب بهم من قبل تحالف الشر هذا.

ولا أستغرب أيضًا معاوني الحكام الذين يطيعونهم طاعةً عمياء بالرغم من خلو أجسادهم من المصل تمامًا لاستثنائهم منه. أنا متفهمٍ لوضعهم لأن ما بداخلهم من أغلال لهي أقوى من المصل بمرات عديدة، حتى إنها قد تسوقهم إلى التضحية بأنفسهم من أجل استمرار مؤامرة التحالف تلك.

لكنني في الحقيقة أستغرب ممن هم مثلك، من يتمسكون باختيار الطريق الأصعب دومًا ويمضون محاولين البحث عن حلولٍ حقيقية للارتقاء بالإنسانية.

فالوعي الإنساني يا غادي قد تراجع على مدى عصورٍ طويلة، حتى أصبح العقل الجمعي لأغلب المجتمعات البشرية مشوهًا على نحو كبير.

وسأحاول أن أشرح لك الأمر بشكل علمي.. الأرض تتحرك بسرعة كبيرة ولكننا لا نشعر بدورانها، لأن سرعتها تفوق إدراكنا، ولذلك لا يشعر الإنسان في مجتمع ما بتأثير العقل الجمعي، إلا عندما يدرك سرعته ومحور دورانه.

والعقل الجمعي هذا يؤثر مباشرةً على أدق تفاصيل حياة الناس، ويشكل أغلب قناعاتهم الخفية منها قبل الملحوظ، فلو أخطأ طريقه فسيقودهم لا إراديًا -كما هو حادث الآن- نحو الكراهية والعنصرية والخوف..

الخوف الذي يجعل الإنسان مهووسًا بالسيطرة والسلطة الكاملة، ويدمر في سبيل ذلك كل شيء، إنها ثقافةٌ جنائزيةٌ تنمو وتتوسع على تكريس الجهل.

حتى بات الإنسان كائنًا يخلد الموت، ويعشق التأبين، يتباهى ببناء المقابر، ويمضي عابسًا في وجه الحقيقة.

الحقيقة الواضحة يا غادي والتي يغفلون عنها دومًا، الحقيقة أنهم في كونٍ فسيحٍ به عدد لا نهائي من المجرات، وكل مجرةٍ تحتوي على عدد لا نهائي من الكواكب، وعلى أحد هذه الكواكب يعيشون في نقطة صغيرة جدًّا، وسنوات عمرهم تلك التي يعيشونها تعد نقطة في بحرٍ نسبةً لزمن الإنسانية، فلماذا إذًا يتعاملون مع فكرهم ومنهجهم على أنه مركز الكون، ويعتبرون فلسفتهم في رؤية وتفسير ما حولهم ثابتةً ومطلقةً دومًا؟

كيف اقتنعوا بهذا مع إن كل شيء حولهم نسبيّ؟

هذا هو المرض.

هذا هو الفيروس الحقيقي الذي أصاب البشرية.

السجن الحقيقي هو السجن الذي أقنعتهم فيه عقولهم أن جنسهم، وعقيدتهم، ولونهم وعرقهم، مميز عن غيرهم.

السجن الحقيقي هو هذا الإحساس الوهمي بمركزيتهم، حتى وصل بهم الأمر في تعظيم أناهم، إلى تحولها لوحوش ضارية، استحوذت على إنسانيتهم كاملة.

وهكذا تظل كل فئة تحاول الفوز بالحق المطلق في الحياة، في معارك عبثيةٍ مستمرة منذ القدم، منذ أن كان البشر يخشون ما يجهلونه، فيقيمون له التماثيل ويصنعون التمائم اتقاءً لشره، ثم ما يلبثون أن يقدسوه فيصبح محور حياتهم.. تنشأ عليه أفكار ودراما، يتماهون فيها ويقتلون بعضهم البعض من أجلها.

أما وقد استطاع البعض منا على مر الزمان من خلال خياله الجميل، أن يسمو بوعيه ويحلق بعيدًا عن هيمنة هذا العقل الجمعي، لا لنتعالى عليه، ولكن لندرك حجم الخلل

الذي يحيط به، فنكسر تلك الحلقة السخيفة، ونؤدي دورنا الحتمي في قيادة الإنسانية نحو التحرر من كل تخبط وجهل.

تذكرت للتو يا غادي عندما كنت أراك نهارًا في أحد أركان المعمل تعمل لإثبات نظريةٍ ما، وعندما يأتي الليل أجدك في ركنٍ آخر ما زلت تعمل في نشاط ودأب، كشمسٍ تغرب هنا وتشرق هناك، تدفئ وتنير حيثما توجهت في سيمفونية عزفٍ جميلة، وآمل يا بني أن تستمر في إشراقك لتنير عقول وقلوب البشرية، حتى يأتي اليوم الذي يبصرون فيه الحقيقة، وهي أن الكون كله قائمٌ على تناغمٍ بين نسبٍ وأجزاء تتكامل بينها في هرموني رائع يحتوي الجميع،

فالكون كله نغم.

وعندما يستطيعون سماع لحنه الخالد،

سيعون معنى الوجود.

ويرون الجمال في كل شيء.

ويدركون أنه من نور واحد.

وعندما يتذوقون هذا النور، سيتحررون من أغلال هذا العقل الجمعي،

وسيعملون على توجيه طاقاتهم نحو العطاء والتعاون، لتوفير احتياجات الشعوب، وإنهاء المعاناة الإنسانية، وبناء عالم جديد.

عالم يعرف معنى الحب، الحب الذي يمحي خطىً ودروبًا أُجبرنا على المضي فيها نحو كل ما يفرقنا، الحب الذي يساعدنا على فهم ذواتنا، ويلهمنا حلولًا لكي نرتقي، ونخلق توجهات جديدة إنسانية الطابع ومسالمة تجاه العالم أجمع.

وقديما قال (نيلسون مانديلا):

"لا يوجد إنسان ولد يكره إنسانًا آخر بسبب لون بشرته أو أصله أو دينه.

الناس تعلمت الكراهية، وإذا كان بالإمكان تعليمهم الكراهية، إذًا بإمكاننا تعليمهم الحب؛ خاصةً أن الحب أقرب لقلب الإنسان من الكراهية".

ثانيًا وكما تعلم يا غادي، فحكام التحالف الآن في خضم تجهيز إحدى المنشآت العلمية القديمة، والكائنة بإحدى تلك الجزر الصغيرة، الواقعة في البحر الذي يمر عبر المنطقة الحدودية للممالك، لإنشاء معمل عليها، وستنتقل للعمل هناك مع مجموعة علماء من كافة الممالك، لذا فلا بد أن تكون يقظًا وعلى درايةٍ بكل ما يحدث هناك، وأن تعد تقريرًا شاملًا بكل التفاصيل حول المشروع.

وقد تحدثت مع أحد قادة المقاومة وأخبرته بضرورة الاعتماد عليك إذا حدث ما يمنعني من إكمال ما بدأته، وسوف يتواصل معك بطريقة أو بأخرى أثناء وجودك على تلك الجزيرة لتسلمه ما بحوزتك من معلومات.

وأخيرًا.. فمهما كان حجم المخاطر التي أنت بصددها، فهذا دورنا الحتمي، ولا يجب الخوف من تأديته.

هذا ما نعيش من أجله وما قد نضطر للموت في سبيل تحقيقه".

أنهى غادي الرسالة وطواها بعناية، ثم وضعها أمامه وقد بدا من عينه بريق دموع محبوسة؛ فقد تأثر بكل كلمةٍ في الرسالة، وأخذ يفكر في كل هذا النبل الذي كان عليه أستاذه، وأقسم في نفسه ألا تذهب تضحيته هباءً.

كان يزن أيضًا حزينًا من داخله ويتحسر على فقدان رجل مثله، ولكنه لم يبدِ شيئًا من مشاعره، فتنفس بعمق واحتفظ بالنَفَسِ قليلًا، ثم أخذ يخرجه رويدًا رويدًا، وبدأ في التحدث قائلًا لغادي:

- والآن بما أن تطور الأحداث قد جعلك بعيدًا عما يدور في تلك المنشأة الكائنة بالجزيرة، وعن طبيعة أبحاثهم فيها، فليس أمامنا إلا إيجاد طريقة لإدخالك هناك، فما قولك؟

وقبل أن يجيب غادي عاد يزن يقول:
- ولن أكون متشائمًا عندما أقول إن المكان هناك مُؤَمَّنٌ جدًّا لدرجةٍ يصعب معها اختراقه، وطبقا لما أبلغنا به رجالنا عن كمية القوات والعتاد التي شاهدوها تُنقل هناك، فمن المؤكد أن تلك المنشأة العلمية قد تحولت الآن من الداخل إلى ما يشبه الثكنة العسكرية.
رد غادي (الذي كان قد استعاد رباطة جأشه بسرعةٍ عجيبةٍ لم يكن هو نفسه يتخيلها) قائلًا:
- بالرغم من أن فكرة دخول الجزيرة تصيبني بالخوف لأنها على حد قولك قد تكون عمليةً انتحارية؛ إلا إنه لا مناص من ذلك، لأنه وكما أوصى أستاذ چافيد، فلا بد من معرفة استراتيجية عملهم، وخاصةً خطة نشر جزيئات النانو وإدخالها في أجساد الشعوب.
ثم تغيرت نبرة صوته وهو يستطرد قائلًا:
- من ناحية أخرى فلا شك أن ما فعله راسل مؤخرًا قد أكسبه مكانةً كبيرةً عند حكام التحالف، وبالتالي سيكون له شأن كبير على تلك الجزيرة، ويجب أن نضع هذا في الحسبان جيدًا؛ لأنه وبالرغم من كل شيء فأنا أعُدُّه من أذكى العقول التي صادفتها في حياتي، فهو عالم فذٌّ جدًّا في مجاله وحويط للغاية، ويجب أن نقترب منه بشدةٍ لمعرفة ما يفكر فيه وما هو بصدده.
ونظر في عيني يزن بثبات قائلًا:
- لذا فأنا مستعدٌ من الآن لخوض تلك المهمة مهما كانت خطورتها، لأن كل شيء يتوقف عليها.
رد يزن قائلًا:

- حسنًا، سيقوم رجال العمليات في المقاومة بوضع خطة دخولك للجزيرة، وصولًا إلى المعمل، وبالطبع سيرافقك أحد رجالنا المدربين تدريبًا خاصًا، وعلى أعلى درجات اللياقة والمهارة في التعامل مع المواقف الصعبة.

واستطرد قائلًا:

- ولكن قبل ذلك سنحتاجك لتضع لمساتك على المعمل الذي نُعِدُّه الآن لتصنيع الجزيئات المضادة.

والتفت إلى تيام قائلًا:

- بالنسبة لك يا تيام فستبقى هنا للتدرب مع عناصر المقاومة، فسوف تكون هناك عمليات كبيرةُ جدًّا، وسنحتاج رجالًا بمثل كفاءتك فيها.

رد تيام قائلًا:

- أعتذر عن تدخلي، ولكن إذا كانت المقاومة تثق في قدراتي، فلماذا لا أرافق د. غادي في مهمته على الجزيرة؟

رد يزن قائلًا:

- بالرغم من حداثة عهدك بالمقاومة، إلا أن ثقة يوناس الكبيرة بك، وتميزك في التدريبات، وضيق الوقت، وسكنك بالقرب من منطقة المعمل، كانت هي العوامل التي أهَّلتك للمهمة الأخيرة تلك، والتي أعترف بنجاحك فيها بامتياز.

ثم اعتدل وهو يستطرد قائلًا:

- لكنَّ المهمة القادمة ليست عادية؛ فهي تحتاج لرجلٍ مارس عملياتٍ ميدانية ومواجهات عديدة، بالإضافة لمهاراتٍ ضروريةٍ مثل الإلمام بلغات الممالك الأخرى ومعرفةٍ مسبقةٍ بجغرافيا تلك الجزيرة و...

وهنا دق جهاز اتصاله، فنهض متحركًا عن المائدة وهو يقول مبتسمًا كنوع من الاعتذار:

- هذه ضريبة أن يكون جهاز الاتصال الوحيد الآمن بالمكان معك دائمًا.

وبعد لحظات تخللتها ردودٌ مقتضبةٌ سريعةٌ أنهى المكالمة وعاد مكملًا حديثه لتيام فقال:
- ما أود قوله أنه حتى لو كنت أراك مستعدًا، إلا أن قرار اختيارك ليس بيدي وحدي، ولكن أعدك أن أطرحه للنقاش اليوم مع قادة المقاومة.
ثم توجه بالحديث إلى غادي قائلًا:
- لقد نجح رجالنا في جلب الأجهزة والمعدات اللازمة من الجامعة، وسنتجه الآن إلى القاعة التي نُعِدُّها لتكون مقرًا للمعمل، وأعتقد أن العلماءَ كذلك على مشارف الوصول.
وهنا سأله تيام عن الصالة الرياضية فوصف له يزن مكانها، وأثناء خروجه من الحجرة التفت الأخير محدثًا تيام فقال:
- ما مدي إلمامك باللغات الأم لمملكتي أورشاليا وكروسلاند؟
قال تيام:
- معرفتي بلغة كروسلاند متواضعة، لكنني أتحدث لغة مملكة أورشاليا بشكل جيد.
نظر له يزن بتركيز شديد لبرهةٍ وكأنه يتفحصه جيدًا، قبل أن ينصرف بصحبة غادي إلى مقر المعمل المزمع إنشاؤه.

***

ما تفهمه، تتحرر منه

عاد غادي ليلًا إلى الحجرة ليجد تيام قد سبقه، فبادره الأخير قائلًا:
- من يراك الآن يظن أنك شخص آخر غير الذي ركب معي السيارة بالأمس.
قال له غادي:

- أنا مدينٌ لك بالكثير يا تيام؛ ففضلا عن إنقاذك لحياتي فقد أخرجتني من غياهب الحزن، وساعدتني على تخطي لحظات صعبة للغاية، فشكرًا لك.

ابتسم له تيام قائلًا:

- وكيف كان يومك؟

فقال غادي:

- إن يزن ورجال المقاومة لا يتوقفون عن العمل، فقد بدأنا بالفعل في تصنيع جزيئات النانو طبقًا للعيّنَة التي ابتكرها أستاذ چافيد.

ثم أردف قائلًا:

- وأنت؟

قال تيام:

- يومٌ عاديٌ كثَّفت فيه التمرينات، حتى أكون في كامل لياقتي للمهمة القادمة التي آمل أن يتم اختياري لها، وبعد الغداء جلست أقرأ في المكتبة.

قال تيام -الذي كان قد جفاه النوم حينها- جملته الأخيرة ثم آثر الصمت، ليدع غادي الذي كانت جفونه تتثاقل يرتاح من تعبه.

وأخذ يفكر كيف كانت حياته هادئةً وبسيطةً كإداري في إحدى المدارس، وكيف أصبح الآن هذا الرجل الذي يسعى للانضمام لمهام خطيرة، كما لو أنه اعتاد لحظات الخطر والمغامرة التي عاشها أمس عوضًا عن تلك الحياة الرتيبة التي تمسَّك بها طوال تلك السنين، أو لعلَّه نوعٌ من جلد الذات، لاعتقاده بأنه السبب فيما حدث لحبيبته.

وسرح قليلًا وأخذت الأفكار تتضارب في رأسه.

- لم يكن ينبغي بأي حالٍ من الأحوال أن أغادر يا ريتال.

قالها تيام بصوتٍ منخفضٍ لكنَّ غادي الذي لم يكن قد راح في النوم بعد قد سمعه، فالتفت إليه قائلًا:

- ماذا؟!

قال تيام بحزنٍ شديد:

- لا عليك يا د. غادي.

تأثر غادي بنبرة الحزن الظاهرة في كلمات تيام الأخيرة، فاعتدل جالسًا وقال محاولًا التخفيف عنه:

- ستكون حبيبتك بخير يا تيام.

ثم أردف قائلًا:

- لم لا تحاول الاطمئنان عليها من خلال جهاز الاتصال الآمن الذي بحوزة يزن؟ أعتقد أنه لن يبخل عليك بشيء مثل هذا أبدًا.

قال تيام:

- هذا مستحيل تمامًا يا د. غادي.

فقال له غادي متعجبًا:

- ولكن لماذا؟

وبعد أن أخبره تيام بأن حبيبته هي ريتال ابنة الحاكم التي خطبت في الميدان، وما تلاه من أمر اختطافها من قبل حاكم أورشاليا، عقَّب غادي قائلًا في ذهول:

- ولكن كيف ترك چواد المعروف بسطوته وجبروته ابنته حبيسة هكذا في سجون أورشاليا؟

أطرق تيام برأسه في أسىً قائلًا:

- لا أعلم يا د. غادي، لا أعلم.

ثم رفع رأسه ونظر بعينين مغروقتين بالدموع لغادي قائلًا:

- لا بد أن تنجح في هذه المهمة يا د. غادي حتى أتمكن من إنقاذها، فأنت لا تعلم ما تمثله لي ريتال، هي ما أتنفسه، هي الحقيقة التي تعطي لوجودي معنى.

لقد كنت أقرأ عن الحب، أكتب عنه، لكنني لم أعرف معناه الحقيقي إلا حين لامست قلبها. هي الحب اللامشروط، الذي حررني من قيود الحزن الذي عشت فيه طويلًا.

وهدأ قليلًا ثم أردف قائلًا:

- لقد زرعت ريتال داخلي حديقةً أجمل من تلك التي كنت أزرعها في فناء بيتي، حديقة يمتد عبير زهورها بلا حدود.

ثم نهض متوجهًا ناحية مرآة معلقة على أحد حوائط الحجرة ونظر خلالها قائلًا:

- أتعلم يا د. غادي.. الإنسان مثل تلك المرآة،

تعكس روحه العالم بصفاء،

ولكن أحيانًا تكسرنا أشياء،

فنعكس كل شيء مكسورًا حتى ولو كان كاملًا.

يحاول البعض أن يعوض هذا فيختار ركنًا صغيرًا من مرآته لترى به روحه العالم، ثم ما يلبث أن ينكسر هذا الركن أيضًا،

وهكذا يظل يتنقل بين بقايا مرآته حتى لا يبقى فيها ما يعكس أي صفاء،

فيرى العالم أمامه حلمًا غريبًا لا نهايةَ له.

وريتال هي التي أصلحت تلك المرآة وأعادت لها رونقها، فأصبحتُ أرى الجمال في كل شيء.

ثم أردف قائلًا:

- قديما قال رجل يدع (جدو كريشنامورتي): "ما تفهمه، تتحرر منه".

وريتال جعلتني أفهم نفسي وأتحرر.

قال جملته الأخيرة ثم توجه إلى الحمام ليطفئ سخونة وجهه بالماء البارد، ويزيل عنه آثار الدموع.

وعندما عاد إلى فراشه قال له غادي:

- آسف جدًّا فيبدو أنني قلبت عليك المواجع.

قال له تيام:

- بالعكس، أنا الذي يجب أن يعتذر، لأنني أثقلت عليك.

ثم أردف قائلًا:

- وأود أن أقول لك أنني شعرت براحةٍ كبيرةٍ أثناء الحديث معك، وها قد بدأ يداعبني النوم بالفعل بعدما كنت أنشده قبل قليل، فشكرًا لك.

ثم سكتا وتمددا في فراشيهما ليغوصا في نوم عميق.

***

الجزيرة

كان العمل على تجهيز المنشأة العلمية في الجزيرة لاستقبال العلماء والمهندسين، يسير بسرعةٍ جنونية.

وفي هذا الصباح وبعد مرور يومٍ وليلةٍ على أحداث المعمل الأخيرة، وقف راسل على متن سفينةٍ حربيةٍ في اتجاهها للجزيرة يفكر في كل شيء يحدث له.

وأخذ صوت ضميره يذكره بفظاعة هذا الجرم الذي يساهم بشكل كبير في ارتكابه، فيبدو أنه ما زال هناك بعضٌ من النور، الذي مس روحه المظلمة إبان مصاحبته لأستاذه چافيد.

وبعد برهة مسح بيده على خده الذي تلقي اللكمة، وكأنه يريد أن يمحو آثارها كما كان يحاول أن يمحو من ذاكرته تلك النظرة التي ظل چافيد يرمقه بها آخر مرة، فقد كانت تحرقه من الداخل للخارج، وتشعره بمدى قسوته وخيانته لهذا الرجل الذي لم ير منه سوى الحب والعطف.

أخذ يحاول الهرب من كل هذا ولكن دون جدوى.

كان يعتقد أن سعيه لنيل رضى چواد وكسب منصبٍ كبير في الحكم، سيشبع تلك الفجوة التي تركها تنمو داخله من سنين، تلك الفجوة التي منذ نشأتها وإلى الآن لا تنفك تنهش في صدره.

وهنا ترددت في ذهنه كلمات لأستاذه چافيد قالها له في إحدى المناسبات:

"إن مشكلة الإنسان في كثير من الأحيان هي أنه لا يهمه صحة ما يعتقده، بل في حقيقة الأمر وفي نقطةٍ عميقةٍ جدًّا داخله، يثقل عليه تهميش تأثره الشديد بهذا الاعتقاد، فكأنما أصبح الكسل والغرور هو ما يعتقد وليس شيئًا آخر".

وتساءل في نفسه قائلًا:

- "هل أصبحت الآن مثالًا حيًا لتلك الكلمات؟

فأنا بالفعل بتُّ لا أفكر مطلقًا في صحة ما أفعله، لم لا وقد تركت غروري وكرهي يتمددان داخلي، وكأن كل تلك السنوات التي زاملت فيها أستاذ چافيد وغادي، كانت هناك بذرة شر تنبت يوم بعد يوم، وقد سمحت لها أن تنمو، بل وبسذاجةٍ مطلقةٍ أخذتُ أغذيها في الخفاء، كمن يربي وحشًا في قبو منزله يعرف أنه سيأتي يومٌ ويلتهمه بضراوة".

ومع اقتراب الزورق من غايته، بدأت الصورة تتضح، ليجد راسل نفسه أمام منطقة شديدة الحراسة ومحاطة بالمتاريس، وقد ساعد في تحصينها تلك التضاريس الوعرة المحيطة بالجزيرة.

وبعد نزوله من القارب استقل سيارةً حربيةً شقت طريقها نحو بوابةٍ ضخمةٍ فُتحت آليا، فأخذ يدور ببصره في المكان، وهنا أخذته الرهبة من منظر تلك الأسوار العالية وأبراج المراقبة، وأحس حينها مع عودة البوابة للانغلاق وكأنه يدخل سجنًا لن يخرج منه أبدًا.

ومع سيره متجهًا لجناح معيشته، كان يشعر جيدًا أنه لا ينتمي بقيمته العلمية لهذا المكان، ولكن سبق السيف العزل ولم يعد هناك سبيل للتراجع.

بدا كل شيء بالنسبة له في هذه اللحظة ككابوس، كابوس مرعب سلم له روحه طواعية، فعاد يحدث نفسه قائلًا:

- "ها قد أصبحت الآن جزءًا من جريمةٍ شنعاء يا راسل، وها أنت تدنس علمك وتاريخك بوصمة عار لن تنمحي أبدًا، ولا حتى بموتك.

يكفيك إثمًا الغدر بأستاذك چافيد وزميلك غادي".

وكاد يبكي.

وهنا كان قد وصل غرفته دون أن يدري حينها كيف حملته قدماه إليها، فخلع هندامه واستلقى في فراشه تاركًا جسده فريسة للنوم، آملًا بهذا أن يوقف ضميره الذي ما انفك يصر على جلده بسياطه بلا هوادة، هذا الضمير الذي استيقظ فجأة عندما لاحت له الجزيرة من بعيد، فبدا له مع اقترابه من شاطئها وكأنه سلحفاةُ صغيرةُ تنتقل لأول مرةٍ من اليابسة إلى الماء، لتغمرها أمواج البحر المنعشة فتزيل عنها كل ما التصق بها منذ ولادتها، وكأن روحه قد تذوقت إحساسًا جديدًا، فحلقت عاليًا في سماءٍ جميلةٍ طاهرة، سماء قذفته نحوها أمواج البحر العاتية التي قابلتها سفينته بعيد إقلاعها، وكأن تلك الأمواج لم تكن سوى صرخات، صرخاتٍ اصطدمت بوجهه بقوة، وتغلغلت لثنايا روحه فحررتها من سجن الأنا، مذيبة تلك الأغلال التي كبلتها.

***

بهو الأعمدة

وفي هذه الأثناء وفي مقر المقاومة وبعد تناول الفطور، جلس كل من غادي وتيام يحتسيان الشاي، وبينما هما كذلك سمعا دقاتٍ على الباب ثم فُتح ليجدا يزن يبادرهما بابتسامةٍ هادئةٍ وهو يقول:

- أرجو أن تكونا مستعدين.

فردا قائلين في صوتٍ واحدٍ وهما يهمان بالنهوض:

- تمامًا.

فقال يزن وهو يشير لهما بالجلوس مرةً ثانية:

- بعدما تنتهيان من احتساء الشاي، سأكون بانتظاركما في القاعة الرئيسية.

بعد برهة وجدهما يزن مقبلين عليه في حماس.

وتحرك ثلاثتهم يتقدمهم يزن عبر القاعة الرئيسية إلى طرقة طويلة ليصلوا إلى المصعد الذي هبط بهم طابقين.

خرجوا من المصعد إلى قاعةٍ مركزيةٍ ضخمةٍ جدًّا، تشبه بهو الأعمدة في "معبد الأقصر"، كانت الأعمدة رخاميةً ولها حضورٌ مبهرٌ وجليل، وقد حُفرت عليها نقوش وزخارف تمثل معالمَ فنيةً وقصصًا ملحميةً لحضاراتٍ متنوعة.

كان منظرها جد مهيب وهي تقف شامخةً كشاهد على تاريخ الإنسانية، وغموض تلك الحياة التي احتوت كل هذه الأحداث والتقلبات، دون أن يكون هناك حل للغزها.

قال يزن الذي لاحظ ذهولهما:

- نحن نعمل على إنشاء هذا المكان منذ عدة سنوات، وساعَدَنا في بنائه وتجهيزه أمهر رجالنا؛ فقد كان أكثر النازحين من خيرة العقول والمفكرين والعلماء وأصحاب الذوق الرفيع من كل الفنون.

ثم أردف قائلًا:

- بالمناسبة أنتما محظوظان، فمن وصلوا لتلك القاعة يعدُّون على الأصابع؛ فمنها كانت تدار أشد عمليات المقاومة خطورة وسرية.

قالها ونظر لتيام الذي فهم على الفور فقال معقبًا:

- أيعني هذا أنه تم اختياري لـ...

ولم يكمل تيام حيث قاطعه يزن قائلًا:
- نعم يا تيام، وسوف يبدأ تدريبكما على الخطة بدءًا من اليوم، لتكونا جاهزين في وقت قياسيٍ فتكون لنا الأسبقية، لأنه حتى وإن كانوا يتوقعون منا تحركًا مضادًا، فلن يأتي في مخيلتهم أن يكون بهذه السرعة.
وهنا دق جهاز اتصال يزن فقال:
- المعذرة.
وقبل أن يهم بالتحرك نظر إليهما قائلًا:
- أرجو أن تستمتعا بالفنون التي تحيطكما بينما تستطيعان ذلك، لأنه لو نجحت خطة التحالف، فلن نتمكن بعدها من تذوق أي جمال في الحياة.
ثم أردف مازحًا:
- لكن لعل هذا من ناحية أخرى يريحنا من شقاء الحب.
وهنا لاحت على وجوههم ابتسامة خفيفة.
كان كل منهم ينظر إلى الآخر آملا أن تدوم ابتسامته أطول فيركن إلى ظلها قليلًا، لتزيح عنه وقع هذه الفكرة العبثية.
عاد يزن بعدما أنهى المكالمة سريعًا ليتوجه بهما إلى الحجرة التي سيبدآن فيها التعرف على خطة اختراق الجزيرة.
وفي تلك الحجرة جلسوا جميعًا حول مائدةٍ مستطيلةٍ حيث كان ينتظرهم أحد أهم رجال المقاومة ويدعى (يولاند أليكساندر) من مملكة كروسلاند، والذي كان رغم بلوغه سن الخامسة والستين في كامل قوته وعافيته، وقد اتسمت ملامحه بالهدوء والوُدِّ الشديدين.
وبعد الترحيب السريع بدأ في التحدث مباشرةً في الخطة قائلًا:
- إن دخول الجزيرة والتسلل إلى المنشأة العلمية هناك قد لا يمثل المعضلة الكبرى، لكن المشكلة الحقيقية هي أن تواجدكما وتحرككما داخل أسوار تلك المنشأة لا بد أن يكون

نظاميًا.

وأخرج مجموعةً من الصور والأوراق من حقيبته ورصَّها أمامهما، ثم عاد يقول:

- قامت مصادرنا في الممالك الثلاث بإمدادنا بصورٍ ومعلوماتٍ حول بعض العلماء الذين تم اختيارهم للعمل على الجزيرة.

وبينما يقلب غادي ناظريه في الصور، توقف عند إحداها برهةً وقال مبديًا اندهاشه:

- هذا العالِم يكاد يشبهني تمامًا، لولا اختلاف شكل الأنف والحاجبين قليلًا.

ثم عاد يقول:

- شيء غريب!

رد يزن قائلًا:

- ما هو؟

قال غادي:

- مكتوبٌ هنا أنه من مملكة أورشاليا، وبالرغم من معرفتي التامة بكل علماء أورشاليا الذين ذاع صيتهم في مجال النانو تكنولوجي ولقائي بهم في عدة مناسبات، إلا إنني لا أتذكر رؤيته على الإطلاق.

رد يزن قائلًا:

- ذلك لأنه ليس عالمًا في هذا المجال.

ثم أردف قائلًا:

- بل في المجال العسكري، وبالتحديد تكنولوجيا الأسلحة البيولوجية، وله أبحاث غاية في السرية لم نستطع الحصول على أية تفاصيل بخصوصها، ولا ندري السبب المحدد وراء استعانتهم به.

ثم استطرد قائلًا:

- لكن الشيء المهم أن هذا الشخص قريب الشبه بك، وسنعتمد على ذلك كليًا في مهمتنا.

عاد يولاند للتحدث قائلًا:
- طبقًا لما ورد في أوراق أستاذ چافيد البحثية، فتصنيع جزيئات النانو لن يستغرق وقتًا طويلًا، أي إنه قريبًا ستكون بين يدي التحالف كمية كافية لحقن كل الشعوب،
لهذا أعتقد أن استراتيجية استخدام ونشر تلك الجزيئات هو الشغل الشاغل الآن للتحالف، وبالتالي فهدفنا في هذه المهمة هو معرفة آخر ما توصلوا إليه بهذا الشأن، وخلال الأيام القادمة سنكون قد تمكنَّا من زرع أحد عناصرنا بين أطقم العمال على الجزيرة ليمدنا بتفاصيل أكثر حول المكان، لكي نتمكن من وضع خطتنا كاملةً وفقًا لاستراتيجيةٍ تضمن دخولكما للمكان وتحرككما به، بشكل آمنٍ نسبيًا.
ثم أردف قائلًا وهو يهم بالنهوض:
- والآن سنتوجه إلى قاعة التدريبات، حيث ستبدآن في التمرن على المهارات البدنية التي نتوقع أنكما ستحتاجانها في مهمتكما المقبلة.
نهضوا جميعًا متوجهين إلى القاعة المركزية ومنها إلى المصعد.
صعدوا طابقًا واحدًا ثم خرجوا إلى مكانٍ شاسعٍ جدًّا، أو بالأصح إلى تجويفٍ جبليٍ يختلف تمامًا عن طابع المكان؛ حيث ترك بلا أية تعديلات، سوى حمام السباحة الموجود في أقصى اليمين، وقد انتشرت في المكان شتى المعدات الرياضية من أجهزة تدريبات بدنية وأدوات تسلق وغيرها.
عاد كل من يولاند ويزن إلى المصعد، بينما بقي الاثنان الآخران مع مجموعة من عناصر المقاومة، الذين سيبدءون من هذه اللحظة في تجهيزهما للمهمة.

***

الكل إنسان

وبعد مرور بضعة أيام من التدريبات البدنية الشاقة، عاد كل من غادي وتيام إلى

حجرتهما وقد بلغ التعب من الأخير مبلغه، فعمل تيام على إعطائه بعض النصائح للتعافي السريع من ضغوط التمارين على عضلاته، ثم توجه إلى سترته مخرجًا منها دفتره الصغير، وجلس في فراشه ممسكًا بالقلم، وأخذ يكتب.

وبعد قليل قال له غادي الذي استلقي في فراشه هادئًا، بعدما اغتسل بماءٍ دافئٍ أراحه على نحو عجيب:

- أتدون هنا تعليمات عن المهمة أم ماذا؟ فقد رأيتك أكثر من مرةٍ منهمكًا في الكتابة، ولكنني لم أشأ أن أزعجك.

التفت إليه تيام قائلًا:

- بل هي بعض الخواطر التي ترد على ذهني من حين لآخر.

ثم ناوله الدفتر وهو يبتسم قائلًا:

- لقد بتنا أصدقاءً الآن يا د. غادي ولك الحق في إزعاجي متى تشاء.

أخذ غادي يقلب في الدفتر قائلًا بود:

- حسنًا، فلنرَ ما يدور في خاطرك الجميل يا صديقي.

ثم أخذ يقرأ ما كتب في الصفحات الأخيرة:

"حكيم في ثنايا القلب أعطاني،

مفاتح نهر موصول بشريان.

وأبلغني شهادة حقٍ،

بأن الكل إنسان".

"عندما كنت صغيرًا،

كنت أرى في عائلتي العالم.

وكنت أعتقد أن فرحنا وحزننا وحياتنا أعمق وأخص من أية عائلة أخرى.

ثم كبرت قليلًا، فوجدت الناس يفرحون ويحزنون مثلنا، فكبر عالمي قليلًا،

إلا أنني كنت ما زلت أرى أن الاحتفالات في بلدنا هي جوهر البهجة، وإيماننا هو جوهر صفاء النفس، وحياتنا هي النموذج الأسمى.

ثم بدأت أشاهد في التلفاز أناسًا من لغاتٍ مختلفة، وبلاد أخرى تفرح وتحزن، وتمتلك من المشاعر ما أمتلكه وأحيانًا كثيرة أفتقده، فكبر عالمي أكثر.

حتى بدأت أقرأ فكبر عالمي جدًّا، وفهمت أنني وعائلتي وبلادي وطقوس فرحنا وحزننا وإيماننا، إنما هو نمط من أنماط ممارسات الإنسانية وحركة تفاعلها حول العالم، يظهر بشكل ما وفقًا لتطور بيئتنا، وليس شيئًا تميزنا به.

لذلك فأنت على الطريق الصحيح، ما دام عالمك يكبر، وما دام تفكيرك يزداد اتساعًا لتكون المساواة هي القاعدة الأساسية في فكرتك عن العالم والإنسان".

ابتسم غادي وقد فهم أن صديقه تأثر بشدة بالمعاني التي تحدث عنها أستاذ چافيد في رسالته.

فأعاد له الدفتر، وخلد الاثنان إلى النوم.

***

اللحظة الحالية

وبعد مرور أسبوعين، كانت قد انتهت مرحلة التدريبات البدنية الخاصة بالمهمة على أكمل وجه.

وفي مساء هذا اليوم كان غادي وتيام متفائلين جدًّا؛ فقد جددت المهارات المتنوعة التي اكتسباها خلال التدريبات ثقتهما بأنفسهما في القدرة على تعلم الجديد واجتياز الصعاب، وكأنها أعطت لكل منهما روحًا جديدةً، وخاصةً غادي الذي قال لصاحبه:

- لم أكن أتوقع أن أنهى كل تلك التدريبات في أسبوعين فقط.

ثم تغيرت نبرة صوته وهو يردف قائلًا:

- ولكن لا يجب أن ينسينا هذا إخفاقي أكثر من مرة في الوصول للوقت المحدد في تدريب الهبوط بالأحبال، وأخشى أن تتأثر سرعتك المذهلة كثيرًا ببطئي الملحوظ.

قال تيام:

- أرجو ألا تقلق من تلك المسألة، وإن حدث واضطررنا لها فسأكون بجانبك.

ثم ابتسم بودٍ قائلًا له:

- ولا تخف، فسيكون على الموت مواجهتي أولًا قبل الوصول إليك يا صديقي.

قال غادي:

- حرصي على نجاح المهمة يأتي أولا و...

قاطعه تيام قائلًا:

- بل يجب أن تحرص على حياتك بنفس المقدار أو أكثر. هذا شيء طبيعي.

ثم اعتدل في جلسته وقد أصدرت الغلاية صفيرها معلنةً وصول الماء لدرجة الغليان، فصب كوبين من الشاي، وأردف وهو يناول غادي كوبه قائلًا:

- في الحقيقة يا غادي وعلى عكس ما يدندن حوله الناس دائمًا، فقد وجدت أن أكثر الناس طهرًا هم أكثرهم تمسكًا بالحياة حتى آخر رمقٍ لهم فيها، لكنهم لا يظهرون ذلك وكأنه لا يليق بهم.

تشعر بهذا في آخر لحظاتهم وأيامهم، لا لسببٍ معين ولكن حبًا في الحياة ذاتها، وهذا أجمل وأندر ما يمكن أن تهبه الحياة لإنسان، وهو أن يحبها بلا سبب، وأن يلمس جمال معناها ويشعر بحقيقتها.

ونحن نولد متصلين بهذه الحقيقة، ثم تختفي تدريجيًا داخلنا، فنمضي نبحث ونبحث عما يجعلنا مكتملين، لنجد في النهاية أنه لم يكن ينقصنا سوى الحياة نفسها، وهي ليست ببعيدة عنا.

بل هي تلك اللحظة الحالية، والباقية دومًا.
فالحياة الحقيقية يا صديقي تقع في الخلفية، تشعر بها في الجمال الذي يحيط بزهرة صغيرة.
ولكل شيء جماله مهما كان بسيطًا.
ستشعر بهذا إذا كنت حاضرًا في اللحظة، اللحظة التي يضيعها عقلنا بالأفكار التي تمثل سحبًا كثيفةً تحجب شمس الحقيقة عن الظهور في سماء روحنا.
ثم اعتدل في جلسته ومد يده ممسكًا بكوب الشاي، وأخذ رشفةً منه ثم قال لغادي الذي كان يستمع إليه بإنصات شديد:
- ما رأيك أن تتوقف عن التفكير في المهمة هذه للحظات وتقوم بالتركيز على جسدك وتتنفس بعمق، فسوف يساعدك هذا على التخلص من توترك، وسيعمل وعيك الفطري على إيجاد الحل لأي مشكلة، فقط لا تفكر الآن، كن حاضرًا.
واعلم أنه لا توجد شروط زمنية أو مكانية للحضور الواعي، ولكل لحظةٍ جمالها وقيمتها طالما نعيشها بكل جوارحنا، سامحين لمشاعرنا أيًا كانت بالتواجد.
ومن هنا يأتي السلام، الآن هو الحياة، الآن هو الحقيقة، وكل لحظة تستحق، وبالتقبل ستشعر بفرح الكينونة في كل لحظة وكأنها ميلاد جديد لك.
الآن انظر حولك وتقبل كل ما ينشأ في هذه اللحظة دون أن تُعَنْوِنَه أو تحكم عليه، أو حتى تضع له اسمًا، وسيمر كل شيء، ليبقى السكون اللانهائي.
وهنا كان قد أنهى تيام آخر رشفة من كوبه وتمدد في فراشه.
أما غادي فقد عمل بنصيحة صاحبه وجلس متأملًا جسده ومركزًا على حواسه، فأخذ يتنفس بعمقٍ لعدة دقائق كان تيام فيها قد راح في النوم، ومن ثم تمدد هو أيضًا في فراشه بعد أن زال توتره، وقد شعر براحة تسري في كل خلاياه، لينام ليلتها نومًا هادئًا عميقًا لم يكن يعتقد أنه سيحظى به في مثل هذه الأيام.

***

القهوة

وفي الصباح نهض غادي من فراشه وهو يشعر بقوةٍ ونشاطٍ في جسده، فجلس على حافة سريره يملأ رئتيه بالهواء قبل أن يبدأ بالتحرك، وبينما هو كذلك قال لتيام الذي كان منشغلًا بإعداد الفطور:

- شكرًا لك يا صديقي، فقد أتاني الحل بالفعل، وبالرغم من أنني لم أكن أفكر في أي شيء؛ إلا أنه أضاء في عقلي فجأة قبل أن أذهب في النوم مباشرةً، ولم أشأ أن أوقظك حينها لأبلغك.

قال تيام مبتسمًا:

- خيرًا فعلت.

أخذ تيام يحضِّر المائدةَ بحماسٍ قائلًا لغادي:

- طبق الخضراوات من فضلك.

كان غادي يجفف وجهه ويده بالمنشفة، وما لبث أن أحضر الطبق من ثلاجةٍ صغيرةٍ في أحد أركان الحجرة.

ثم جلسا يتناولان الطعام.

وبعد الفطور قال له غادي:

- بالرغم من اكتسابي لمهارات جيدة خلال تلك الأيام، إلا إنني كنت آمل أن تتطور مهارتي في الهبوط، ولكن يبدو أن هذا يحتاج لوقتٍ أطول أو لمعجزة.

ثم أردف قائلًا:

- ونحن لا نملك الوقت، ولكن لدينا المعجزة، فكيف لم أتنبه لذلك؟

نظر له تيام متعجبًا دون أن يعقب.

فعاد غادي يقول:

- الحل في جزيئات النانو التي ابتكرها أستاذ ڤافيد: حيث إنها ستجعل جسدي يعمل بكامل طاقته.

قال تيام:

- هل تريد أن تكون أول من يجربها؟ أقول هذا لأن المهمة خلال أيام ولا يجب أن نغامر.

قال غادي:

- يا تيام، إن تقنية النانو تم ابتكارها من الأساس لتحسين وظائف الجسد وزيادة قدرته الاستشفائية.

فقال تيام وقد بدا أنه غير مقتنع بالفكرة:

- حسنًا، ولكن لا بد من التشاور مع يزن في هذا الأمر، فربما له رأي آخر.

- بالتأكيد، فلن أقدم على خطوة مثل تلك دون علمه.

تحرك تيام بخفةٍ فيها شيءٌ من التمرد قائلًا لغادي:

- ما رأيك ببعض القهوة؟

- في وقتها يا صديقي.

ثم أردف قائلًا وهو يتوجه ناحية دفتر تيام، وقد نما فضوله وازداد شغفه لقراءة بعض الخواطر (خاصةً وإن اليوم حتى منتصفه سيكون راحةً لهما قبل البدء في المرحلة الثانية من التجهيز للمهمة):

- هل تسمح لي؟

قال تيام:

- بالطبع.

أخذ غادي يقلب في الصفحات الأولى، حتى توقف عند بعض الكلمات وبدأ يقرأ:

"حياة لم تكتمل..

استيقظت وكالعادة نفس الشعور بأنني لم أكمل نومي.

أعددت فطوري، لكنني لم أكمل رغيفي.

نظرت حولي قليلًا ثم سارعت إلى ريموت التلفاز، وجدت فيلمًا، لكنني لم أكمل مشاهدته، فنزلت إلى الطرقات، أنظر في وجوه الناس،

متسائلا..

هل أكملوا نومهم؟ هل أكملوا رغيفهم؟

فلم أجد جوابًا.

الشوارع أراها غير مكتملة،

بيوتٌ بلا أسقف،

ورداء لا يدفئ.

أنفاس متقطعة،

ونقاش لا يكتمل.

في كل بقعةٍ جهدٌ لم تظهر ثمرته.

لا أرى شيئًا أمامي يكتمل.

الكل يخشى أن يكمل ويسارع إلى البدء في شيء جديد لن يكمله أيضًا، هل نخشى النهايات؟!

ومن بعيد،

وجدت حشودًا تهتف..

أخذت أعدو وتلهث أنفاسي،

حتى اقتربت منهم،

وسألت..

فوجدتهم مثلي،

لم يكملوا نومهم ولا رغيفهم،

ولكنهم يهتفون ليزعجوا النائمين،

كي لا يكملوا نومهم،

حتى يعرفوا طعم الحياة التي لم تكتمل".

وبينما كان غادي يهم بمطالعة صفحةٍ جديدةٍ في الدفتر، إذا بباب الحجرة يدق ثم يُفتح ويدلف يزن قائلًا:

- هيا أسرعا، ستبدآن المرحلة الثانية الآن بدلًا من المساء؛ فقد تجددت أمور خطيرة.

ارتديا ملابسهما في عجالة وخرجا معه.

وفي طريقهم ابتسم غادي لتيام قائلًا:

- يبدو أن نبوءتك تتحقق، فلم تكمل عمل القهوة.

سمعه يزن الذي قال باسمًا:

- أعدكما بكوبين مميزين من القهوة ساعدهما لكما بنفسي.

ثم استطرد قائلًا:

- أبلغنا عنصرنا على الجزيرة بأنه شاهد صباح اليوم صناديق خشبية عملاقة متدلية من طائرات عسكرية، ولكنه لم يستطع أن يحدد أو حتى يتكهن بما تحتويه، وقد اجتمع قادة المقاومة قبل ساعة وعزموا أمرهم على تقديم موعد المهمة، لأنهم اعتبروا أن ما حدث مؤشر خطير.

ثم أردف قائلًا:

- ولهذا يجب أن تكونا جاهزين خلال يومين لا أكثر للتنفيذ.

وهنا كانوا قد وصلوا للمصعد فدلفوا إليه، ليهبط بهم طابقين إلى القاعة ذات الأعمدة

الرخامية، ومنها إلى إحدى الحجرات التي سوف يتلقيان فيها التدريبات التكتيكية وتعلم التنكر.

وبمجرد دخولهما الحجرة قابلهما يولاند وعرَّفهما على عناصر المقاومة التي ستتولى تدريبهما.

طفق أحد عناصر المقاومة يشرح لهما تفاصيل الخطة على (البروجيكتور)، الذي كان يعرض أمامهما بالتتابع صورًا دقيقةً لتضاريس الجزيرة، وأبراج المراقبة، والأسوار العالية المحيطة بالمنشأة العلمية هناك، وقد تم التقاط تلك الصور خفيةً بكاميراتٍ حديثةٍ من على أحد الشواطئ القريبة من تلك الجزيرة.

بعد ذلك تم عرض رسومات كروكية تفصيلية للمكان من الداخل، كخرائط للشوارع والمباني وأماكن تمركز القوات هناك حسب الوصف الذي أمدهم به العنصر المندس داخل المنشأة العلمية.

وكان يولاند يصر على إعادة شرح كل صورة تعرض أكثر من مرة، حتى يتمكن كل من غادي وتيام من استيعاب أهميتها بالنسبة لهم، وخاصةً تلك الصور المتعلقة بالنقاط الآمنة حول المنشأة، والتي سيستخدمانها للهروب من الجزيرة في حالة الطوارئ، أو إذا ما تم كشف أمرهما.

لم يخرج غادي ولا تيام من تلك الحجرة إلا بعد منتصف الليل بساعتين أو يزيد، ليتوجها بعدها مباشرة إلى حجرتهما فيغوصا في النوم خلال دقائق من استقرارهما في سريريهما وقد بلغ التعب منهما مبلغه تمامًا.

***

إذا فاض القلب حبًا، ذاق العقل نورًا

وفي اليوم التالي أخذ المدربون يعرفونهما بكل تفاصيل الشخصيتين اللتين سيتنكران

لهما، وحتى أبسط لازماتهما كحركة الأيدي أثناء التحدث. لم يتركوا شيئًا للصدفةِ أبدًا، فقد أكدت المقاومة سابقًا على عنصرهم المندس في الجزيرة بضرورة رصد حركات هذا العالم ومساعده قدر المستطاع.

ولأن غادي قريبَ الشبه من هذا العالِم العسكري؛ فقد كانت الإضافات التنكرية له بسيطة جدًّا.

ومن معلوماتهم عن مجريات العمل في الجزيرة أن هذا العالم نادر الاحتكاك بالعلماء الآخرين لأنه يعمل في مبنىً خاصٍ بعيدًا عن المعمل، وقد كان ذلك مطمئنًا من عدة نواحٍ أهمها مسألة اختلاف نبرة الصوت بينه وبين غادي.

كان يجب أن يتم كل شيء كما خُطط له وأن يكون التنكر متقنًا، لأنهما سيبقيان ليوم أو يومين في الجزيرة، وقد يستدعي الأمر التعامل مع راسل، لذا فقد كان لزامًا على غادي أن يتقن دوره بامتياز حتى لا ينكشف أمامه.

وبالنسبة لتيام فمن حسن الحظ أيضًا أن مساعد العالم العسكري هذا كان يُرى دومًا مرتديًا نظارةً ضخمةً تخفي معظم معالم وجهه، لذا فكان تنكر تيام يعتمد على الزي العسكري وباروكة الشعر، وبعض السمات الظاهرية التي لم يكن من الصعب عليه تقليدها.

وفي نهاية اليوم كان تيام قد أتقن بالفعل وضع اللمسات التنكرية له ولغادي.

وفي المساء وبعد أن عادا إلى حجرتهما، كان غادي مستلقيًا في فراشه شارد الذهن، فقاطعه تيام قائلًا:

- أخائف يا غادي؟

رد عليه غادي:

- بل أفكر، لو تصادف وقابلت راسل، كيف سأقف وجهًا لوجهٍ أمامه؟

أنا لا أعرف كيف ستكون ردة فعلي عندما أنظر لعينيه اللتين لا ينبعث منهما إلا الغدر،

فأتذكر ما كان منه.
قال له تيام:
- حاول أن تسترخي الليلة جيدًا لتريح جسدك وذهنك من إرهاق التدريبات، ولا تقلق، فمهما واجهنا من مصاعبٍ وتحديات، فسيضيء لنا هدفنا النبيل نورًا لتخطيها.
ثم أردف قائلًا:
- وخلال هذه الدقائق وحتى يغلبك النوم، لا تضع في مخيلتك إلا صورة الشعوب وهي تستعيد حريتها من جديد، وتنهض لتحيا بكل إرادتها وعفويتها، بعد نجاحنا في هذه المهمة.
أومأ غادي برأسه علامة على الموافقة دون أن يعقب بشيء، وقد بدا له أن تيام كان يحاول إقناع نفسه هو أيضًا في حديثه الأخير هذا، أو لعل معايشته ليزن ورجاله خلال هذه الأيام قد غيرته بالفعل، فأصبح مهتمًا بالقضية بقدر اهتمامه بتحرير حبيبته، حبيبته التي لم يكن يفكر في شيء غيرها قبل عدة أيام.
وقال في نفسه أخيرًا قبل أن يغلبه النوم: "لا شك أن الحب الحقيقي في النهاية يقود الإنسان نحو الكمال في كل شيء".

***

بادر الآن
وفي ظهر اليوم التالي دلف كل من يزن ويولاند إلى قاعة الاجتماعات، ليجدا غادي وتيام قد سبقاهما بالحضور.
بدأ يولاند بالتحدث قائلًا:
- الآن وقد اكتمل تدريبكما، بدءًا من خطة التسلل للجزيرة وحتى طرق خروجكما منها،

مرورًا باستراتيجية التحرك داخل المنشأة العلمية، فقد تم تحديد مساء اليوم للانطلاق، فهل توجد أية أسئلة أو استفسارات لديكما؟

فرد غادي قائلًا:

- إن المعمل هناك مبني على قمة تلٍ مرتفعٍ نوعًا ما، وطبقًا للاحتمالات التي درسناها فقد نضطر للهرب منه في حالة ما انكشف أمرنا أثناء وجودنا به، خاصةً وإن هذا التل يعد من أهم النقاط الآمنة للانسحاب، ولا شك أن تدريبنا البدني قد تم على أكمل وجه، لكن مسألة الهبوط من هذا الارتفاع قد تستغرق مني وقتًا أطول، ولا أريد أن أكون عائقًا لتيام ولا سببًا في تعطل المهمة.

وسكت برهة ثم أردف قائلًا:

- لذا فأقترح أن يتم تزويدي بجزيئات النانو التي صنعها أستاذ چافيد؛ فهي تحفز الجسد والعقل للتأهب لمثل تلك المواقف وتزيد من فرص النجاة.

نظر يولاند إلى يزن نظرةً ذات مغزى، ثم توجه بالتحدث لغادي قائلًا:

- لقد فكرنا في هذا يا غادي، وأعرف جيدًا مدى المشقة البدنية الملقاة على عاتقكما في هذه المهمة، ولكن هذا الأمر محفوفٌ بالمخاطر، فلو تم الإيقاع بكما، وبشكل أو بآخر تم كشف أمر تلك الجزيئات المضادة، فسيكون هذا بمثابةِ الضربةِ القاضية لكل ما بنيناه وضحى أستاذ چافيد بحياته من أجله، لأنهم وقتها سيغيرون كل استراتيجياتهم، وسيكون ردهم غير متوقعٍ تمامًا.

وأردف قائلًا:

- إن جزيئات النانو المضادة تلك هي الميزة التي تجعلنا نسبقهم بخطوة، لذا لا يجب إهدارها على الإطلاق.

ثم اقترب منه واضعًا يده على كتفه قائلًا:

- يحاول الطفل الصغير أن يصعد على المنضدة، فيأتي بشيء يصعد عليه.

تمر الايام ويكبر الطفل، أصبح يمتلك الطول المناسب، ولكنه ما زال يضع أي شيء ليعاونه على الصعود.

أي شيء، حتى لو كان مجرد ورقة؛ لأن عقله لا يتخيل الصعود بدون شيءٍ يساعده، ولو نجح في التحرر من قيد عقله، لصعد مباشرةً.

هذا حالنا أمام مخاوفنا، دوما ما يقيدنا عقلنا عن المبادرة، فنعيش عاجزين عن تحقيق ما نريد، منتظرين شيئًا خارجيًا يساعدنا، وهكذا سيطر عقلنا على مخيلتنا.

وبالرغم من أننا نعلم أنه باستطاعتنا القيام بالفعل؛ إلا أننا لا ندرك كيف نتخطى وجود العامل المساعد الذي تعودنا عليه.

لا تحاول أن تفكر في مقدرتك على الفعل، بل فقط افعل.

بادر الآن.

ثم سكت برهةً ونظر في عيني غادي قائلًا:

- صدقني أنت تستطيع إنجاز هذه المهمة بكل تفاصيلها، فقد تابعت تدريبك، وأرى أنك مؤهل تمامًا بدنيًا، والأهم من ذلك حماسك وإقدامك على خوض التدريبات الشاقة، هذا يجعلني أقول لك بكل ثقةٍ أنه مهما كانت الصعوبات فستتغلب عليها، لأنه حينها ستنمحي مخاوفك تلك، أمام شجاعة قلبك، وإيمانك بنفسك.

شعر غادي بروحٍ عظيمة تسري في جسده، وتبين له أن مخاوفه تلك كانت مجرد فكرة، فكرة ظلت تخيم على عقله حتى أتى يولاند وأزاحها، فانكشفت له الرؤية تمامًا، وصفي ذهنه، وترسخ لديه شعور قوي بأنه في كامل استعداده للمهمة بالفعل.

وهنا ساد الصمت بينهم برهةً فنهض يزن قائلًا:

- أظن أننا جميعًا في حاجة إلى بعض القهوة.

ونظر لغادي مبتسمًا وقال:

- ولكي تعرف أنني أفي بوعودي.

فابتسم الأخير وتحرك لمساعدته.
وهنا نظر يولاند إلى تيام قائلًا:
- إن اختيارك لمهمةٍ خطيرةٍ كهذه كان ضربًا من المقامرة، ولكنَّ يزن يثق بك كثيرًا.
ثم أردف قائلًا:
- لقد تابعت تدريباتك وأعي تمامًا مدى إمكانياتك وحجم ذكائك، ومتأكد من جاهزيتك لهذه المهمة، ولكنني أريد أن أنصحك نصيحة أخيرة.
انظر داخل نفسك، واعرف ثغراتك، وافهم ضعفك.
وتذكر جيدًا أن ميزتك ليست في مكامن قوتك،
ولكن في قدرتك على احتواء ضعفك وشتاتك.
قال له تيام:
- أنا ممتنٌ لكل شيء، وخاصةً ثقتكم بي.
عاد كلٌ من غادي ويزن، واتخذا مجلسيهما بعدما ناولا أكواب القهوة للاثنين الآخرين.
وهنا نظر يزن لكلٍ من غادي وتيام نظرة ذات مغزى وقال:
- بقي أمر أخير.
ثم أخذ رشفة من القهوة وشرع في التحدث:
- يقول قدماء المصريين:
"لكي تتغلب على نفسك، سيطر على عقلك، ولكي تتغلب على الآخرين، سيطر على قلبك".
لا أريد أن أكرر كلامي عن مدى أهمية هذه العملية، ولكن يجب أن أذكركما أنه لا يوجد مجالٌ لأي خطأ أو ارتجال.
واعتدل في جلسته ثم وضع كوب القهوة أمامه مكملًا حديثه قائلًا:
- أعلم أنك يا تيام لا تنفك تفكر في حبيبتك التي في حوزة التحالف الآن، وأعرف أيضًا

يا د. غادي مدى العداوة التي نشأت بينك وبين د. راسل كونه السبب في مقتل أستاذ چافيد. أعلم أن بداخل كل واحد منكما صرخةُ غضبٍ يكتمها، وهذا ليس في صالحنا الآن على الإطلاق.

واستطرد قائلًا:

- لذا يجب أن تهدآ؛ لأنه عندما يعيش الإنسان في تناغمٍ ويسير وفق هدفٍ ورؤيا، فسيصبح أيقونة وعيٍ نشطةٍ وليس مجرد رد فعل للأفعال الغوغائية، ولا بد للإنسان أن يتوقف عن التفكير المبالغ فيه كي يتمكن من خلق عالم سوي حوله ينبع من جوهره، فيكون صدى للوعي الصافي وليس فريسةً للأنا التي لا تشبع.

ثم أخذ نفسًا عميقًا وأخرجه ببطء وهو يردف قائلًا:

- في لحظاتٍ معينة ستجدون تلك الصرخات تعلو داخلكما، وستشعران بألمٍ ممزوج بغضبٍ شديد، لذلك فاعلما جيدًا أن السعي لتخطي هذا الألم أو تجنبه هو ما يجلب المعاناة، ولكن إذا تم تقبل هذا الألم والسماح له بالعبور خلال مشاعركما باستسلام تام، فسيضمحل حتى يختفي أثره تمامًا، مخلفًا سلامًا داخليًا وسكونًا لا نهائي.

ثم نظر إلى يولاند الذي فهم على الفور، وعلى خريطةٍ كبيرةٍ موضوعةٍ أمامهم، بدأ في مراجعة الخطة كاملةً.

وبينما كان يولاند يسرد تفاصيل العملية ويصف مداخل ومخارج الجزيرة، كان كلٌ من غادي وتيام في أقصى درجات التركيز، وكانا لا يقاطعان حديثه إلا لتوضيحاتٍ بسيطة.

كانا يتلقيان التعليمات الخاصة بالخطة وكأنهما ينقشانها بحبرٍ سري في عقليهما.

مضت بضعة ساعات راجع معهما فيها كل من يولاند ويزن تفاصيل العملية كاملةً.

وكان يولاند يتوقف من آن لآخر ليبادرهما بأسئلةٍ عن بعض التفصيلات الصغيرة، فكانا يجيبان بدقةٍ متناهيةٍ؛ مما ينبئ عن سرعة بديهة عالية وإتقان لكل جزيئات الخطة من قِبَلِهما، حتى اطمئن هو ويزن تمامًا.

وهنا أخرج الأخير من جيبه جهازين صغيرين ونظر لتيام قائلًا:

- انتبه إليَّ جيدًا.

وأشار إلى الجهاز الأول وهو يقول:

- هذا الجهاز، تبقيه في جيبك طوال الوقت.

وأشار إلى زرٍ باللون الأحمر قائلًا:

- وعندما تنتهي المهمة أو تشعر بأي خطر، اضغط هنا ثلاث مرات، وسيأتي الزورق لانتشالكما من نفس مكان إنزالكما في المياه.

ثم أشار إلى الجهاز الآخر قائلًا:

- أمَّا هذا فمستشعر للحركة، ستبقيه في الغرفة وستقوم بتشغيله قبل خروجك منها مباشرةً، وهو متصل بالجهاز الأول الذي سيكون في جيبك، وسيرسل له إنذارًا صامتًا في صورة اهتزازاتٍ متتاليةٍ إذا شعر بأية حركة في الغرفة، والتي لن يتردد عليها إلا أنتما، وعنصر المقاومة المدرب على إيقاف الجهاز فور دخولها، وإعادة تشغيله قبل خروجه منها، لهذا فلا بد أن تركز جيدًا عندما يرسل الجهاز إنذاراته لك، فاذا توقف بعد أقل من خمسة اهتزازات متتالية فاطمئن، لأن عنصر المقاومة هو من سيكون بداخل الغرفة.

ثم عاد يقول بجديةٍ شديدة:

- أما إذا ظل الجهاز يهتز في جيبك أكثر من خمس مرات، فاعلم أن شخصًا آخر موجود بالغرفة، أو أن العالم والمساعد قد أفاقا وأنكما أصبحتما في خطرٍ محدق، وعليكما في تلك اللحظة أن تنسحبا من المهمة على الفور ودون أي تفكير.

ونظر لساعته ليجدها قد قاربت السادسة والنصف، فأخذ نفسًا عميقًا وهو ينقل عينيه بين عيني كلا من غادي وتيام ثم قال بهدوء:

- حان الوقت.

***

الغرفة الزجاجية

وقبل ذلك بعدة ساعات، كان الجميع في معمل الجزيرة يعملون على قدم وساق، فقد عرفوا أن زائرًا هامًا جدًّا في طريقه إليهم لمتابعة النتائج النهائية للمشروع.

كانت طائرة چواد قد هبطت إلى مدرجها في مطار الجزيرة، فنزل منها متجهًا على الفور إلى التل الكبير الذي يعلوه معمل الأبحاث.

دلف إلى المصعد ليصعد به إلى المعمل، حيث استقبله راسل الذي بادره چواد قائلًا:

- كيف تجري الأمور يا راسل؟

رد راسل قائلًا:

- كل شيء يسير وفق التخطيط والجدول الزمني اللذيْن أعددناهما.

ثم أردف يقول:

- هل تم الانتهاء من تشييد الحجرة المحصنة؟

وعاد يقول سريعًا:

- ويجب أن تبنى بحرصٍ يا سيدي حتى لا تؤثر بك الجزيئات؛ فهي ستستمر في الجو مدة ثلاث ساعات أو يزيد قليلًا.

قال چواد: تم، ولا تقلق فستكون معي وقت الإطلاق.

ثم استطرد قائلًا:

- هل تمت تجربة الجزيئات؟

رد راسل قائلًا وهو يشير إلى غرفةٍ زجاجيةٍ بها بعض الأفراد واقفين في ثبات عجيب:

- نعم، وها هم أمامك في انتظار أي أمر لتنفيذه.

ثم أشار لمجموعةٍ تجلس حول جهازٍ في ركن المعمل قائلًا:

- وهنا يقوم مهندسو الاتصالات ببث الأوامر إلى أجسادهم.

وفي خطوات وطيدة اقترب چواد من زجاج الغرفة قائلًا لراسل:

- أعطهم أمرًا بقتال بعضهم.

نظر إليه راسل باستغراب شديد، فقال له چواد بغضب:

- هيا أعطهم الأمر يا راسل، فأنا أريد أن أرى إلى أي مدىً سيستجيبون.

فقام راسل بإبلاغ المهندسين بذلك، ثم عاد ليقف بجواره، وخلال لحظات بدأ الأفراد في الغرفة الزجاجية بالاشتباك مع بعضهم البعض بصورةٍ عنيفةٍ.

ضحك چواد ضحكةً صاخبةً تردد صداها في أرجاء المكان، ثم قال لراسل وكأن هذه الضحكةَ كانت إرهاصة لنوبة جنونه:

- آهٍ لو أستطيع أن أجمع العالم كله في تلك الغرفة الزجاجية، لأراقبهم جميعًا وهم مستعدون للقتال فيما بينهم من أجلي، وبضغطة زرٍ بسيطة.

نظرا له راسل متعجبًا وقال في نفسه:

"كيف وصل به جنون السيطرة لهذا الحد، وما هو الممتع في ذلك؟!".

قاطع چواد أفكاره قائلًا في نشوة سعادته:

- هذا عظيم يا راسل، عظيمٌ جدًّا.

ثم أردف قائلًا بصوتٍ عالٍ سمعه كل من بالمعمل:

- سيكون لكم جميعًا شأنٌ كبيرٌ معنا.

ثم توجه بنظره إلى راسل الذي فهم مراده، وعلى الفور انسحب برفقته خارج المعمل.

وبعد أن هبط بهما المصعد توجها لمكان مستتر، وبدأ چواد حديثه بانفعال شديدٍ قائلًا:

- هل وجدت حلًا يا راسل؟

فرد عليه الأخير قائلًا:

- ما فهمته من اتصالك الموجز أمس أن تغيير الجزيئات داخل قاعدة الإطلاق بات

مستحيلًا، ولكن لماذا؟!

عاد جواد يقول بغيظ شديد:

- بعدما كنت أنوي السيطرة على القاعدة العسكرية لتبديل الجزيئات هناك، لتحمل الصواريخ الثلاثة جزيئاتنا المشفرة بشفرتنا نحن فقط قبل إطلاقها، فوجئت البارحة بقيام حاكمي أورشاليا وكروسلاند بإرسال عدة كتائب من قواتهما إلى هناك بحجة زيادة التأمين.

قال راسل:

- يبدو أنهما قد شعرا بالخوف، ففعلا ذلك لضمان توازن القوى، بعدما لاحظا توافد أعدادٍ من قوات أرابيتا الخاصة، والتي قمت بإرسالها إلى القاعدة على دفعات صغيرة خلال الأيام السابقة.

رد جواد في حنق قائلًا:

- يبدو هذا، وبالرغم من أنني لم أخبر قواتي تلك -والتي انتقيتها بعنايةٍ تامة- بدورهم في الاستيلاء على القاعدة، وكنت أؤجل هذا حتى صباح يوم الإطلاق كما تعلم، حفاظًا على سرية العملية كلها، وحرصت كل الحرص على أن أجعل الأمر يبدو وكأنه شيء روتيني؛ إلا أن وجودهم أزعج بشدة حاكمي أورشاليا وكروسلاند.

وأردف قائلًا:

- والآن فقد تعقدت الأمور للغاية، وأية محاولة لتبديل جزيئات النانو في تلك القاعدة العسكرية ستشعل بالتأكيد حربًا طاحنةً بين قواتي وقواتهما هناك، ولن يستقيم لي الأمر حينها أبدًا.

واستطرد قائلًا:

- لم يعد لدينا وقت، فما العمل يا راسل؟

أنا أثق بشدةٍ في رجاحة عقلك من ناحية، ومن ناحية أخرى أنا لا أريد أن أجتمع بالقادة

لدي لآخذ مشورتهم؛ لأنني أخشى حدوث أي تسريب للمعلومات، خاصةً بعد ما حدث.

- لا تقلق، فأنا لم أنم البارحة حتى وجدت الحل.

قال چواد بسرعة:

- وما هو؟

- القنابل الصاروخية قد تم الانتهاء من تهيئتها تكنولوجيًا بالفعل بواسطة عالم أورشاليا العسكري، والذي سيقوم بفحصها للمرة الأخيرة غدًا قبل أن تنقل إلى قاعدة الإطلاق، وبعد أسبوعٍ من الآن وصباح يوم الإطلاق، سيقوم مهندسو كل مملكةٍ بإيضاح طريقة التشفير للحكام، ليقوم كل حاكم بعد ذلك وفي غرفةٍ منفصلةٍ بعمل شفرة جزيئات مملكته بمفرده تمامًا.

قاطعه چواد قائلًا:

- أنا أعلم كل هذه التفاصيل، لماذا تعيدها عليّ؟

- صبرًا يا سيدي، دعني أكمل.

عاد راسل يقول:

- بالطبع سيعود كل حاكمٍ إلى مملكته، حيث هناك سينتظر في غرفته المحصنة، لأنه خلال ساعات من التشفير سيتم إطلاق القنابل الصاروخية، وهنا ستكون اللحظات الحاسمة، فسوف تعود سريعًا بطائرتك إلى القصر، ثم تتوجه إلى المعمل هناك.

وأشار إلى حقيبة في يد چواد قائلًا:

- حيث ستقوم بتشفير عبوتي الجزيئات اللتين صنعتهما بهذا الجهاز، بنفس الشفرة التي شفرت بها الجزيئات في الجزيرة، مستعينًا ببرنامج التشفير الذي ستأخذ نسخة منه أثناء وجودك بغرفة التشفير.

ثم أردف بحماسٍ شديدٍ قائلًا:

- وسنقوم بتبديل الجزيئات وهي في طريقها إلى قاعدة الإطلاق.

وأخرج خريطةً من جيب سترته وأشار إلى نقطة محددة قائلًا:

- فهنا سترسل في التو في سياراتك الحديثة والسريعة جدًّا، قوات من مملكتنا تثق في ولائهم أشد الثقة، ومعهم العبوتين اللتين شفَّرتهما، ليتمركزوا في انتظار موكب الجزيئات، والذي سيكون في حراسة قوات التحالف، فيتم الانقضاض عليهم والتخلص منهم بسرعةٍ دون إثارة أي بلبلة، ومن ثم تبديل العبوتين الخاصتين بمملكتي أورشاليا وكروسلاند، لتصبح الثلاث عبوات بشفرتنا نحن فقط.

ولكن يجب ألا نغفل أمر قائد المروحية الذي سيرافق الموكب، فلا بد أن يتم تحييده حتى لا يتدخل أثناء عملية الاستيلاء على الموكب، ولن يتم انكشاف أمر قواتنا لأن قوات التحالف في قاعدة الإطلاق تنتظر حراسًا بنفس البذل الواقية، والبذل الواقية تخفي معالم الوجوه، لهذا لن يتم التعرف على أحد منهم، وسيتم تدريب قواتنا بطريقة تزويد القنابل الصاروخية بالعبوات التي تحمل جزيئاتنا بسرعةٍ ودقة، وستنجح خطتنا وتنطلق الصواريخ قبل أن يدرك أي أحد حقيقة ما يحدث، لتجلس أنت في غرفتك المحصنة منتظرًا الإطلاق، ومن ثم التحكم في شعوب الممالك الثلاث دفعةً واحدة.

ثم أردف قائلًا:

- بالطبع سيكون حاكمي أورشاليا وكروسلاند في غرفهم المحصنة، ومعظم مسئولي الحكم وضباط الجيش المهمين والشخصيات الهامة وعائلاتهم، قد ارتدوا البذل الواقية من اختراق الجزيئات، ولكنهم جميعًا وكما أخبرتك سابقًا يا سيدي سيكونون نقطةً في بحر، أمام جموع شعوبهم التي ستكون أنت المسيطر الوحيد عليها.

- إنك شيطان يا راسل.

ثم فكر چواد قليلًا، ولا يعلم لماذا تذكر حينها خدعة العلماء الثلاثة قديمًا، فأردف بسرعةٍ قائلًا:

- ولكن ماذا لو اتصل أحد ضباط الموكب بالقاعدة العسكرية وأبلغ عن حدوث خطبٍ ما،

ومع وجود أعداد غفيرة من القوات الموالية للمملكتين هناك، فسنكون حينها قد وقعنا في الاشتباك الذي نريد اجتنابه؟

- الحل في جهازٍ للتشويش على الاتصالات.

قال چواد ضاحكًا:

- حسنًا كفى؛ فقد بدأت أقع في غرام كلماتك يا عزيزي ومستشاري الأول، لقد أثبت لي أن المستحيل يمكن تحقيقه. أنت عظيمٌ يا راسل وتذكرني بنفسي أيام شبابي.

تصنَّع راسل السعادة وقال بصوت يغلفه الزهو والفخر:

- هذا لأنني أعمل مع أعظم حاكمٍ في الممالك كلها.

قاطعه چواد قائلًا وهو يناوله جهازًا أخرجه من الحقيبة التي في يده:

- سأغادر الآن حتى لا نثير أية شكوك، وضع هذا في حقيبتك بسرعة.

قال راسل وهو يتناول الجهاز متلفتًا حوله قبل أن يضعه في حقيبته:

- حسنًا، سأعيده إلى المعمل ليلًا كما أخذته دون أن يلاحظ أحد.

انصرف راسل عائدًا لغرفة سكنه حاملًا هذا الجهاز الذي يعمل على تصنيع كمياتٍ كبيرةٍ من جزيئات النانو في وقتٍ قياسي، والذي ساهم في تطويره عالم أورشاليا العسكري، فأصبح ينتج جزيئات نانو قابلة للدمج بالقنابل الصاروخية، وكان قد أخرجه من المعمل خفية قبل يومٍ مرسلًا إياه لچواد مع أحد رجاله، كي يصنع عبوتي جزيئات النانو اللتين سيبدِّلهما.

وأثناء سيره كان هناك شيء واحد يفكر فيه ولا يستطيع إخراجه من ذهنه، وهو صورة چواد أثناء مشاهدته للتجرِبة التي تمت في الغرفة الزجاجية.

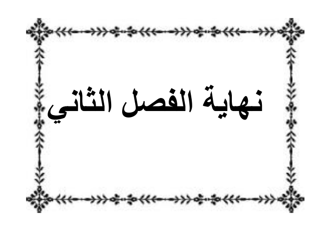
وقال محدثًا نفسه:

- "أيعقل هذا، هل يفكر في إشعال حربٍ جديدة بين الممالك؟

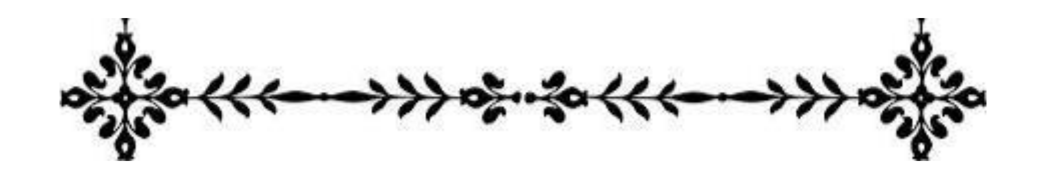
ماذا لو نجح بالفعل في تحقيق مأربه وأصبحت كل الشعوب تحت سيطرته، كيف سينتهي

الأمر؟".

لم يستطع عقل راسل أن يهديه لجوابٍ على تلك الأسئلة المزعجة، فالأمور تسير بوتيرةً أسرع من قدرته على صياغة نهاية محددة لها الآن.



الفصل الثالث



العنصر المندس

كانت السيارة تسير باهتزازٍ بسيط، ولكن سرعان ما سيطرت عليها حالةٌ من الهياج، وكأنها متصلةٌ بدقات قلب غادي الذي صاح قائلًا:

- أرجوك هدئ من سرعتك قليلًا؛ فالسيارة ترتج بشدةٍ يا تيام.

- أنا مضطر لهذا؛ فلا بد من المرور من هذا الطريق الوعِر بأقصى سرعة.

قال غادي بعدما نظر إلى ساعته:

- أعتقد أننا نسير وفق الجدول الزمني للخُطّة ولم نتأخر.

رد عليه تيام قائلًا:

- أعلم هذا، ولكنها بدأت تمطر كما ترى، ويبدو أن الأمطار ستزداد كثافة، وأريد أن أخرج من هذا الطريق قبل أن يصبح أشد خطورة.

ثم أردف قائلًا:

- عمومًا لا تقلق، ها هي نهاية الطريق تظهر أمامنا.

وبعد برهة انحرف تيام بالسيارة يسارًا وهدأ من سرعته قليلًا، وقد أصبح شاطئ البحر على مرمى بصرهما، حيث ينتظرهما هناك الزورق الذي سيقلهما إلى أقرب نقطة من الجزيرة.

وصلا بالسيارة لنقطةٍ محددةٍ وتركاها ليكملا الجزء المتبقي سيرًا.

وانتظرا بضعَ دقائق في نقطةٍ قريبةٍ من الشاطئ، حتى ظهر (إيزاك) في موعده بالضبط.

وإيزاك هو أحد عناصر المقاومة، والذي يعيش بالمنطقة منذ مدة بعدما نزح إليها من مملكة أورشاليا، وكان على درايةٍ تامةٍ بتضاريس الجزيرة.

ألقيا عليه تحيةً متعارفًا عليها، فرد عليهما بالكلمات المطلوبة، فاطمئن كل من غادي وتيام، ثم تحركوا جميعًا يقودهم إيزاك نحو الزورق، الذي ما إن استقروا به حتى شرع الأخير في التجديف بكلتا يديه بسرعةٍ ومهارة، شاقًا به المياه في اتجاه الجزيرة.

وعندما وصل الزورق إلى أقرب نقطة آمنة وقريبة من شاطئ الجزيرة، قال لهما إيزاك:

- ستكملان الباقي سباحةً حتى هذه النقطة.

وأشار لهما على منطقة صخرية تقع بعيدة بشكل كافٍ عن أبراج المراقبة.

ثم أردف قائلًا:

- سأكون على البر الثاني منتظرًا الإشارة في أي وقت لأعود وأنتشلكما من الماء.

ناوله تيام مفتاح السيارةِ لإخفائها جيدًا، ثم ارتدى هو وغادي بذلتي السباحة وقفزا في الماء.

اخذا يسبحان حتى وصلا إلى النقطة التي حددها لهما إيزاك.

صعد تيام من الماء ومد يده إلى غادي يساعده.

وقفا لثوانٍ يلتقطان أنفاسهما، ثم بدأ كل منهما بخلع ثياب السباحة وارتداء ملابس الشخصية التي سيتنكر فيها.

قال تيام وهو يرتدي زيه:

- لقد بدأنا التحرك في الساعةِ السابعة، وقطعنا المسافة من مقر المقاومة إلى شاطئ البحر في ساعتين ونصف، واستغرقنا في الزورق قرابة العشرين دقيقة.

ونظر إلى ساعته ثم أردف قائلًا:

- حسنًا، الساعة الآن العاشرة إلا عشر دقائق، لقد وصلنا في الوقت المحدد بالضبط.

واقترب من غادي ممسكًا بأدوات التنكر، لتبدأ يداه بالعمل في مهارةٍ ودقةٍ متناهيتين.

قال غادي وكأنه يراجع لنفسه الخطة، موجهًا بصره ناحية السور الظاهر أمامه:

- أعتقد أنه خلال دقائق من الآن، ستنقطع الكهرباء عن المنطقة، وستعاود الرجوع بعدها بدقيقتين. ولا بد أن نتسلق هذا السور ونكون داخل غرفة معيشة العالم العسكري ومساعده خلال هاتين الدقيقتين.

كان تيام قد انتهى من وضع اللمسات الأخيرة على وجه صاحبه قائلًا:

- حسنًا، لقد انتهينا.

ثم دار حول الصخور ليجد مكانًا يخبئ فيه الحقيبة التي وضع فيها بذلتي السباحة.

وهنا انقطعت الأضواء في المنطقة كلها، فقال غادي بصوتٍ مبحوحٍ لتيام:

- حان الوقت.

اقتربا من السور وأخذ غادي وتيام ينفذان الأسلوب المتقن الذي تدربا عليه في التسلق، وفي ثوانٍ كانت أرجلهما قد حطت على الجهة الأخرى.

وعلى الفور خبأ تيام الأحبال التي استخدماها في جيب سترته جيدًا؛ فقد كانت أحبالًا خفيفة الوزن ولكنها متينة للغاية.

كان الظلام يعم أرجاء المكان، وبالرغم من ذلك استطاعا الوصول إلى المبنى الذي يحوي غرفة العالِم العسكري ومساعده في أقل من دقيقة، فقد تدربا على ذلك جيدًا.

وبمجرد دخولهما إلى الغرفة سمع تيام صوتًا يأتيه من الداخل قائلًا:

- أهلًا يا تيام.

تسمَّر كل من غادي وتيام في مكانيهما وقد أرعبتهما المفاجأة، وهنا عادت الكهرباء فأضاءت الغرفة، ليجدا نفسيهما أمام ويندا زوجة يوناس.

نظر لها تيام بحدةٍ محاولًا الحفاظ على ثباته، وقال لها بلهجةٍ صارمةٍ متحدثًا بلغة مملكة أورشاليا:

- من أنت؟

قالت ويندا:

- لا داعي للخوف، أنا التي أدخلتكما إلى هنا.

ثم أردفت وهي تنظر لملابسهما:

- إنكما نسختان منهما، والملابس مطابقةٌ تمامًا.

سكت تيام قليلًا ثم ما لبث أن قال بعدما استوعب الأمر برمته:

- ولكن أليست التعليمات ألا نتقابل بأي حالٍ من الأحوال مع عنصر المقاومة،

وأن يرتب الأمر قبل مجيئنا ويقوم بدوره أثناء غيابنا، وذلك حتى لا نثير أية شكوك؟

- هذا صحيح، ولكنني فضَّلت رؤيتكما بنفسي.

ثم أردفت قائلةً:

- من فضلكما استريحا.

نظر كل من غادي وتيام لبعضهما البعض متعجبين، ثم ما لبثا أن جلسا على السرير المقابل لها.

فعادت تقول:

- أنا ويندا زوجة يوناس يا تيام.

وابتسمت وهي تقول:

- ولهذا أعرفك وأعرف عنك الكثير.

فقال تيام:

- ولكن لمَ هذه المخاطرة يا ويندا؟

- كان لا بد من اختيار أحد عناصر المقاومة للقيام بذلك في أسرع وقت، ولكوني متمرسة في مثل هذا النوع من المهام فلم يكن هناك بد من التضحية، لذا فعندما علمت من يوناس أن المقاومة في سبيلها لزرع عنصرٍ مندسٍ على الجزيرة، ولمَّا كان التدقيق شديدًا جدًّا من قبل التحالف، فقد عرضت عليه في التو أن أقوم بهذه المهمة، وأن يستخدم علاقاته في تهيئة هذا الأمر، وبالفعل وبعد موافقة قادة المقاومة على ذلك، عمل يوناس على تغيير هويتي، واستطاع تمرير الأمر بطريقة ما للضابط المسئول عن عملية اللوجستيات لتعييني كعاملة نظافة.

كان كل من غادي وتيام يستمعان إليها بانبهار شديد، وما لبثت هي أن اشارت إلى الدولاب الكائن بالغرفة قائلةً:

- لقد وضعت المخدر للعالم ومساعده في أكواب العصير التي رافقت عشاءهما في الساعة التاسعة والنصف، وسيبقيهما لمدة اثني عشرة ساعة في سبات تام.

وأردفت قائلةً:

- ولا تقلقا، فتعليمات العمل هنا تقتضي بعدم السماح لغير مسئولي النظافة بدخول الغرف أثناء غياب أصحابها، وأنا المسئولة الوحيدة عن نظافة الغرف في هذا المبنى.

وعادت تقول:

- وغدًا في التاسعةِ سأعود وأحقنهما بمخدرٍ سيبقيهما في سباتهما اثني عشرة ساعة أخرى.

وأشارت إلى المنضدة القريبة منهما قائلةً:

- لا تنسيا هذه البطاقة الإليكترونية؛ فهي المفتاح لكل أبواب المبنى الواقع أعلى التل، وحتى المصعد هناك يعمل من خلالها.

ثم أردفت قائلةً:

- يخرج العالم ومساعده كل يوم من غرفتهما في تمام السابعةِ صباحًا ليتوجها إلى مبنى أرضي شاسع بلا أسقف، ويعملان هناك حتى يحين موعد الغداء، فيعودا للغرفة التي يمكثان بها للراحة قرابة الساعة، قبل أن يذهبا مرة ثانية، وأحيانًا يداومان طوال اليوم في هذا المبني.

ولا تقلقا فهذا المبنى الذي يعملان به محظور على أي أحد دخوله غيرهما، لذلك ستكونان بمفردكما، وستجدان هذا المبنى واضحًا على يمين التل.

كان غادي على وشك التحدث، إلا إنها ابتسمت له قائلةً:

- أعلم أنه تم تدريبكما جيدًا على كل شيء، ولكنني أحببت أن أراجع معكما بعض التفاصيل.

ثم استطردت قائلةً:

- قبل أن أنسى، يجب أن تعلما أنه منذ الصباح وأنا ألاحظ مغادرة العلماءِ تِباعًا للجزيرة، ولا أعلم ماذا يعني هذا.

قال تيام:

- سيتضح كل شيء غدًا.

ثم استطرد قائلًا:

- ولكن ماذا سيحدث لك بعد أن ننهي المهمة ونترك الجزيرة؟

- لا تقلق، سيعمل يوناس على إخراجي من هنا بطريقة أو بأخرى.

تغيرت نبرة صوت تيام وهو يقول لها:

- وكيف حال ريتال، هل استطاع أحد رؤيتها؟

سكتت ويندا لهوينة فقد شعرت بغصةٍ في حلقها، حاولت ابتلاعها ثم قالت:

- يطمئننا چواد عليها، وقد أكد ليوناس مؤخرًا أنه سيتم الإفراج عنها قريبًا.

قال تيام معقبًا:

- ولكننا لا يجب أن نعوِّل في عودتها على هذا، وأعدك يا ويندا بأنني سوف أحررها من سجنها في أقرب وقت ممكن.

فقالت بتأثر وهي تنهض مغادرة بسرعة قبل أن تخونها دموعها أمامهما:

- أعلم أنك لن تتركها أبدًا يا تيام، ومتأكدةٌ من هذا تمامًا.

ثم خرجت مغلقةً الباب خلفها.

***

أسبوع واحد فقط

وبعد انصراف ويندا، شرع كل من غادي وتيام في تبديل ملابسهما استعدادًا للنوم، وبينما هما كذلك، إذ بجهاز اتصال موضوع على المنضدة التي تفصل سريريهما يدق.

ارتبك غادي بشدة ونظر لتيام، فقال له الأخير: لا بد أن تجيب.

ثم أردف قائلًا:

- وردَّ بكلماتٍ وجيزة كي لا تنكشف نبرة صوتك.

أمسك غادي بجهاز الاتصال واضعًا إياه على أذنه وهو يضغط على زر الرد.

فبدأ الطرف الثاني بالتحدث مباشرةً قائلًا:

- أنا حاكم أورشاليا، وأحدثك من جهاز اتصالٍ مشفرٍ تمامًا.

اسمعني جيدًا، لقد كان من المفترض أن تفحص الصواريخ غدًا للمرة الأخيرة ثم تغادر الجزيرة في الصباح، ولكن وصلتني أخبارٌ للتو بحدوث انقطاع مفاجئ للكهرباء، وأخشى أن يكون حاكم أرابيتا في سبيله لتدبير شيء ما، لذا فلا مفرَّ من بقائك في الجزيرة لتكون بالقرب من جزيئاتنا حتى موعد خروجها، كي نطمئن أن الأمور تسير في مسارها

الصحيح، وبناءً عليه ستقوم غدًا بفحصك النهائي للقنابل، ثم تعطي الأمر بنقلها لقاعدة الإطلاق وفقًا للموعد المتفق عليه، لتبقى بعد ذلك في الجزيرة طوال الأسبوع المقبل، وخلال تلك المدة أريدك أن تمرَّ بصفةٍ دوريةٍ على غرفة التشفير خاصتنا، وسيسري الأمر على أنه إجراء روتيني عادي، ويجب أن تؤكد باستمرار على حرَّاس الغرفة المناوبين بألا يسمحوا لأحد بالاقتراب منها حتى آتي أنا في يوم التشفير، وبعد أن أشفِّر الجزيئات، ستعود أنت ومساعدك معي على متن طائرتي، حيث سيكون باقٍ على موعد الإطلاق بضع ساعات.

ولا تقلق، سيتم إرسال البذل الواقية لعائلتك.

ثم أنهى الاتصال قائلًا:

- مستقبل مملكتنا بين يديك.

وضع غادي جهاز الاتصال مكانه وهو ينظر إلى تيام حائرًا، ثم تلى عليه ما سمعه، فقال تيام:

- إذًا فتلك الصناديق الكبيرة تحمل صواريخ، ولكن فيم ستستخدم، أليست جزيئات النانو تلك تحقن في الجسد مباشرةً؟

ثم أردف قائلًا:

- وماذا يقصد بالتشفير، تشفير ماذا؟

بدا غادي منزعجًا بشدة وهو يردد قائلًا:

- قنابل، قنابل.

ثم نظر لتيام قائلًا:

- لو كان ما أفكر فيه صحيحًا فستكون كارثةً بكل المقاييس.

قال تيام بسرعة:

- ماذا تقصد؟

قال غادي:

- لو كانوا قد توصلوا لتكنولوجيا ما تمكنهم من دمج جزيئات النانو بالقنابل الصاروخية واسعة المدى، فخلال بضعة ساعاتٍ من إطلاقها ستكون قد أصابت كل أفراد الشعوب، وحتى رجال المقاومة المختبئين في أطراف الممالك لن يسلموا من ذلك.

ثم أردف قائلًا:

- ويبدو أن لكل مملكةٍ جزيئات نانو خاصة بها.

- أتقول لي أنهم سيحكمون سيطرتهم تمامًا على كل الشعوب في بضعة ساعات؟

وكاد أن يصرخ عندما أردف قائلًا:

- إنها كارثة، كارثة، ما العمل يا غادي؟

لم ينتبه له غادي فقد كانت الأفكار تعصف في ذهنه بسرعة شديدة، وقال وكأنه يحدِّث نفسه:

- حتى وإن استطعنا تحصين كل أفراد المقاومة بجزيئات أستاذ چافيد المضادة قبل إطلاق قنابلهم، فحينها ستكون كل الشعوب تحت سيطرتهم، وستعود الأمور للوضع الأول؛ بل أسوأ، أسوأ بكثير.

قال تيام مندفعًا:

- إذًا فلنحاول تدمير تلك الصواريخ، حتى لو كان الثمن موتنا ونحن نحاول.

نظر له غادي قائلًا:

- أتعتقد أن هذا هو الحل السليم؟

ثم أردف قائلًا:

- إنهم قد استطاعوا تنفيذ كل هذا المخطط في أقل من شهر، ولن يتوقفوا عن تكرار الأمر حتى ينجحوا فيه.

واستطرد قائلًا:

- لا بد من التفكير في حلٍ حاسمٍ يمنع تلك الكارثة من الأساس.
قال تيام معقبًا:
- ويجب أن نجد هذا الحل قبل أسبوعٍ من الآن، وقبل أن يتم نقل جزيئاتهم إلى قاعدة الإطلاق تلك.
وأخذ يردد في غضبٍ بالغ:
- أسبوعٌ واحد، أسبوعٌ فقط، ماذا سنفعل، ما الحل؟
قال غادي:
- هدئ من روعك يا تيام، لقد بلغ منَّا التعب اليوم مبلغه، دعنا ننم الآن حتى نستطيع أن نستيقظ باكرًا، وغدًا سنكون على أرض الواقع وستتكشف لنا أمور أخرى ستقودنا حتمًا لحلٍ ما، ثق بي.
وتمددا في فراشيهما يحاول كل منهما النوم، رغم ثقل الأفكار التي تدور في ذهنه.

***

مشانق

استيقظ غادي على صوت المنبه، في تمام الساعة السابعة إلا عشرين دقيقة، وأيقظ تيام.
ثم شرعا في ارتداء ملابسهما.
وبينما كان تيام يحضر الأدوات التنكرية لغادي قال له الأخير:
- إن اليوم هو موعد الفحص الأخير للصواريخ، وسيتم نقلها بعد ذلك مباشرةً لقاعدة الإطلاق، لذلك فالحل قد يكون محصورًا في دائرة جزيئات النانو.
قال تيام وقد انتهى من وضع اللمسات الأخيرة على وجه غادي:
- أتفكر في شيء محدد؟

- للأسف لا.

ضبط تيام مستشعر الحركة، ثم وضعه على المنضدة بحرصٍ بالغ، والتقط جهاز الاتصال الخاص بالعالِم العسكري قائلًا لغادي:

- يجب أن يبقى هذا معك.

وناوله إياه ثم أمسك بالحقيبة التي تخص العالم العسكري، ممارسًا دوره كمساعدٍ له، وتحركا خارجين من الغرفة بهدوء شديد.

وعلى ضوء الصباح، انكشفت لهما معالم المكان الذي كان بالفعل أقرب الشبه بالثكنات العسكرية؛ فقد كانت تمركزات القوات في كل مكان.

نظر غادي حوله ثم قال لصاحبه:

- هل تعرف أي الأماكن يسهل العبث بها؟

أجابه تيام:

- الأماكن التي لم تؤمَّن بشكلٍ كافٍ؟

فقال غادي:

- بالعكس، بل هي تلك الأماكن المؤمنة جيدًا، لأن من فيها يكونون مطمئنين بشكلٍ كبير، لاعتقادهم الراسخ بأنه لن يخترقها أحد، لهذا فبمجرد اختراقها يسهل التحرك داخلها.

أومأ تيام برأسه لصاحبه مؤمِّنًا على كلامه ثم قال:

- أيًا ما ستقوله فيجب أن أوافق عليه؛ فما أنا إلا مجرد مساعدٍ لك.

ابتسم له غادي قائلًا:

- حسنًا فلتتأخر قليلًا عني، ولا تسر بمحاذاتي هكذا يا مجرد مساعد.

فابتسم تيام وتقهقر قليلًا بعدما كان يحذو حذو صاحبه.

وبينما هما ماضيان في طريقهما، لم يكن أحد من الجنود أو الضباط ليجرؤ على النظر نحوهما، فبدا لهما أن لهذا العالم العسكري منزلةً كبيرةً جدًّا هناك.

وصلا إلى التلِّ وعلى الفور توجها إلى اليمين، ليجدا مبنىً ضخمًا جدًّا، يتمركز حول بوابته العملاقة أكثر من عشرين جندي مدججين بالأسلحة، أُفسح لهما الطريق فور رؤيتهما وفتحت البوابة على الفور، ليدلف غادي إلى المبنى يتبعه تيام.

وبعد دخولهما وإغلاق البوابة خلفهما، تخلى تيام عن حذره قائلًا وهو ينظر إلى ثلاثة صواريخ عملاقة:

- ما هذا؟

قال له غادي:

- لقد صحَّت توقعاتي للأسف، هذه قنابل صاروخية، ويبدو أن هذا العالم العسكري قد قام بتعديلها لكي يطلقوا جزيئات النانو من خلالها، مصيبةً كل شخص في مداها، ومداها واسعٌ جدًّا يا تيام.

ظلا يدوران حولها وهما يفكران في كيفية مجابهة المقاومة لتلك التكنولوجيا الخطيرة.

بعد قليلٍ توجه غادي إلى المخططات المنتشرة في المكان وأخذ يتفحصها باهتمام، ليصيح بعد عدة دقائق قائلًا:

- إن ذكاءه مذهل، لقد قام هذا العالم بأهم دور في هذا المشروع، ولم يتوقف عمله عند تهيئة القنابل الصاروخية لإطلاق الجزيئات فقط؛ بل وكما تقول الأبحاث هنا، فقد قام أيضًا بعمل تعديلات على أحد الأجهزة الحديثة لتصنيع جزيئات النانو.

وأردف قائلًا:

- لا عجب أنهم يعاملونه بإجلال واحترام شديدين.

وبعد مضي قرابة الساعة، سمعا أصوات تحليق طائرات بالقرب منهما، ثم دقَّ جهاز اتصال العالم العسكري، فرد غادي هذه المرة دون تردد، ليأتيه صوت المتحدث من الطرف الثاني قائلًا:

- الطائرات جاهزةٌ لنقل الشُحنة الآن يا سيدي، فهل نبدأ؟

قال له غادي:

- حسنًا.

وأنهى الاتصال قائلًا لتيام:

- يبدو أنهم سينقلون الصواريخ الآن.

لم يكد غادي ينهي جملته حتى ظهرت في السماء ثلاث طائراتٍ حربية، ثم فتحت بوابة المبنى ليدلف منها عدد من الجنود، الذين قاموا بإعداد الصناديق الخشبية بسرعةٍ ودقةٍ لتحملها الطائرات إلى قاعدة الإطلاق.

وبعد أن فرغ الجنود من عملهم وانصرفوا خارج المبنى قال تيام:

- لقد هالتني كثيرًا رؤيتهم وهم يربطون الحبال بإحكام حول الصناديق لتعليقها في خطاطيف الطائرات، فلم أكن أرى حينها إلا مشانق، وكأنه قد صدر حكم الإعدام علينا جميعًا بالفعل وبات تنفيذه وشيكا.

***

إخلاء فوري

وفي تلك الأثناء كان چواد جالسًا في غرفة مكتبه وقد اكتنفته حيرةٌ شديدة، فأخذ يحدِّث نفسه قائلًا: "هل تعرضتُ لخيانةٍ من قبل حاكمي مملكتي أورشاليا وكروسلاند، هل هناك ما يدبرانه؟".

وكان قد استدعي دايمون الذي دلف سريعًا خائفًا في هذه اللحظة، فقطع أفكار چواد الذي بادره قائلًا:

- ماذا حدث في الجزيرة يا دايمون، ما قصة هذا الانقطاع المفاجئ للكهرباء أمس؟

قال دايمون:

- لا نعلم يا سيدي، وسوف نحقق في هذا و...

قاطعه چواد بحدةٍ قائلًا:

- لا وقت لهذه الترهات.

وأردف قائلًا:

- اتصل الآن بالضابط المسئول عن اللوجستيات، ولتأمره فورًا بسحب كل العمال من الجزيرة فقد انتهى عملهم هناك، وحتى العلماء أصدر أمرًا بعودتهم جميعًا لممالكهم فلم نعد في حاجةٍ لهم الآن.

ثم استطرد قائلًا:

- لا أريد أن يكون على تلك الجزيرة خلال هذا الأسبوع سوى المهندسين المسئولين عن عملية التشفير فقط.

رد دايمون قائلًا:

- بالفعل يا سيدي، فقد تم إخلاء أغلب العلماء أمس كما كان مقررًا، والباقي في سبيله للمغادرة اليوم.

ثم أردف قائلًا:

- وخلال دقائق يا سيدي ستنفذ أوامرك بإخلاء جميع العمال.

قال له چواد في حسم:

- بل الآن.

ثم نظر في ساعته ليجدها قد قاربت الثامنة، فقال له:

- هيا أجرِ اتصالك، وخلال نصف ساعةٍ لا أريد أي عامل على تلك الجزيرة.

وعلى الفور أخرج دايمون جهاز اتصاله وشرع في التحدث إلى الضابط المسئول لإخباره بالأوامر الجديدة.

انهى دايمون اتصاله وقد تنفس الصعداء، ليفاجئه چواد بنظرةٍ حادةٍ قبل أن يقول له:

- اسمعني جيدًا، يجب أن تكون هذه آخر مرة يحدث فيها شيء مثل هذا على الجزيرة.
ثم قال وكأنه يفكر بصوتٍ عالٍ:
- ولنرَ أية لعبة يعلبانها عليَّ.

***

وفي الساعة الثامنة والربع، كانت الجزيرة تشهد تحركاتٍ كثيرة؛ فقد كان أمر إخلاء العمَّال ينفذُ بسرعةٍ قصوى.
وفي خنوعٍ واستسلام سارت ويندا مع باقي العمال، بينما يتم توجيههم نحو البوابات، حيث سينقلون في زوارق إلى الجهة الأخرى من الشاطئ، ومنها إلى الحافلةِ التي ستعود بهم إلى منازلهم.
كانت تحاول أن تخفي ضربات قلبها المتسارعة، قلبها الذي يكاد يقفز من صدرها خوفًا وهلعًا، فقد صدر لها الأمر بالتحرك للمغادرة قبل أن تقوم بدورها في تخدير العالم العسكري ومساعده.
فقالت في نفسها وهي تصعد الزورق:
- "لقد انكشف أمر غادي وتيام بلا شك، كيف سأحذرهما فأمامي طريقٌ طويلٌ قبل أن أصل للبيت الذي يعتقد مسئولي العمال أنني أسكنه، وهناك فقط أستطيع الاختلاء بنفسي وإبلاغ يزن ليحذرهما، وحتى تأتي هذه اللحظة سيكون قد مر أكثر من خمس أو ست ساعات".
اغتَمَّتْ كثيرًا وكادت أن تصرخ لتنفس عن روحها المنخنقة، ولكن هيهات.
ومضى الزورق يشق صفحات المياه بصوتٍ مزعج، بدا لها وكأنه خنجرٌ لا ينفك يمزق صدرها بإصرار عنيف.

***

راسل

كانت الساعة قد تخطت الثامنة والنصف عندما كان كل من غادي وتيام في طريقهما إلى التل الذي يعتليه المعمل.

دلفا إلى المِصعَد الذي صعد بهما إلى قمته بعد أن مرر غادي البطاقة الإلكترونية في المكان الخاص بها.

وبمجرد خروجهما من المصعد وجدا بهوًا صخريًا، فتقدما ليجدا نفسيهما أمام طرقةٍ طويلة في آخرها باب زجاجي، فقال غادي:

- يبدو أن المعمل في نهاية هذه الطرقة.

وعلى يسارهما كانت هناك طرقة أخرى يظهر منها ثلاثة أبواب لثلاث حجرات، ويحرس كل باب حارسين وقفا كصنمين أجوفين.

فقال له تيام:

- ويبدو أن هذه هي الغرف التي يضعون بها جزيئات النانو، والتي أوصاك حاكم أورشاليا بالمرور على خاصته بصفةٍ دورية.

قال غادي:

- الآن قد فهمنا أن لكل مملكة قنبلتها الصاروخية، التي ستحمل جزيئات نانو خاصة بها وتطير بها إلى سمائها لتنفجر هناك، وبقي لنا الآن أن نعرف أمر تلك الشفرة.

قال تيام:

- على الأقل نحن نعرف وجهتنا التالية في البحث، ولنأمل أن تقودنا إلى حلٍ ما.

وصلا للمعمل فمرر تيام البطاقة الإلكترونية ليُفتح بابه ببطء.

كان المعمل خاليًا فبدا لهما أنهما قد أتيا باكرًا.

ظل غادي لمدة تربو عن النصف ساعة يتنقل بين المعدات والأجهزة الكثيرة المنتشرة يتفحصها، مطلعًا بعنايةٍ على ما دُوِّن في الأوراق والأبحاث الموجودة حولها، حتى توقف فجأةً أثناء قراءته في أحد تلك الأبحاث، عند وجود شيء متعلق بتصنيع جزيئات النانو وفق أرقام متسلسلة، فأثار ذلك لديه حالةً من الحيرةِ الشديدة، فعاد يتفقد بدقةٍ باقي أرجاء المعمل علَّه يفهم هذا الأمر، حتى استرعى انتباهه جهاز كمبيوتر حديث في أحد الأركان وجده متصلًا بجهازٍ آخر لم يستطع أن يتكهن وظيفته، فأخذ يقلب في الملفات الموضوعة بجانب الكمبيوتر، حتى توقف وقد تغيرت ملامح وجهه كثيرًا وهو يصيح قائلًا بانزعاج شديد:

- ألهذا الحد؟!

أتاه تيام مسرعًا يقول:

- أخفض صوتك يا غادي.

ثم أردف قائلًا:

- ماذا وجدت؟

رد غادي الذي لم يكن قد أفاق بعد من هول الصدمة قائلًا بفزعٍ شديد:

- إن الأمر ليس مجرد جزيئات نانو مبرمجةٍ مسبقًا يا تيام، بل يتعدى ذلك بكثير، بكثيرٍ جدًّا.

وأردف مشيرًا بيدٍ مرتعشةٍ قائلًا:

- فهذا الجهاز المتصل بالكمبيوتر يستطيع بالاتصال بجزيئات النانو وتجديد تلك الأوامر المبرمجة، وسيعمل على إنشاء أرشيفٍ يتكون من ملفاتٍ تعريفيةٍ لكل الأجساد، بها معلوماتٌ دقيقةٌ عنها، وسيتتبع أيضًا أماكن تواجدها فيتم التحكم بهم عن بعدٍ فرادى أو مجموعات، وكأنهم لعبة في يد طفل يحركها بالريموت.

ثم ناوله إحدى الأوراق قائلًا:

- ها هي يا تيام نتائج إحدى التجارب التي تمت أمس، والتي تقرر بإيجابية الاستجابة بنسبة مائة بالمائة؛ حيث جعلوا بعض الأفراد يتقاتلون فيما بينهم بمجرد إرسال الأوامر لهم!

سكت تيام برهة ثم قال:

- ألا يمكن لمهندسي المقاومة تعطيل إشارات هذا الجهاز؟

رد غادي قائلًا:

- هنا يأتي دور تلك الشفرة، فسوف يتم تشفير جزيئات النانو لكل مملكةٍ بشفرةٍ يستحيل اختراقها.

واستطرد غادي بتأثرٍ بالغٍ قائلًا:

- إن المؤامرةَ هذه المرة قد نُسجت بخيوطٍ شديدة الحُبكة، ويبدو أن الأمر انتهى، فلا مناص من وقوع تلك الكارثة؛ خاصةً وإنه لم يبق على تنفيذها سوى أيام.

ثم أردف قائلًا بحزنٍ شديد:

- لا أجد في الأفق ثمة حل يا تيام.

قال تيام في يأس:

- إذًا فهي النهاية، ولكن كيف، لماذا؟

وأصابته نوبةٌ من الهَلَع الشديد، وكاد يسقط أرضًا من فرط ما ألمَّ به من حرقةٍ ووجع، لولا أنه أمسك بذراع غادي قبل أن تخونه قدماه تمامًا.

وبعد لحظات نما إلى سمعهما وقع أقدام تقترب.

فقال له غادي بنبرةٍ جادة:

- تماسك، فيبدو أن أحدهم قادم.

ثم دقق النظر فيما وراء زجاج الباب، وما لبث أن تحدث هامسًا بانفعال:

- إنه راسل.

تحرك الزجاج ببطء مفسحًا المجال لراسل، الذي دلف بخطواتٍ وطيدةٍ متوجهًا ناحيتهما، حتى وقف وجهًا لوجهٍ أمامهما.

بادرهما بالتحية ثم نظر لغادي طويلًا وما لبث أن بدأ بالتحدث بلغة مملكة أورشاليا، فقال له مازحًا:

- ها قد طارت النسور إلى أعشاشها باكرًا منتظرةً لحظة الانقضاض.

رد عليه غادي بنفس اللغة قائلًا باستغراب:

- ماذا؟

قال راسل:

- أقصد أن الصواريخ ذهبت إلى قاعدتها في انتظار الإطلاق.

لم يعلق غادي على تلك الدعابة بحكم رصانة الشخصية التي يتنكر إليها، ولكنه ردَّ قائلًا:

- لماذا لم تغادر مع علماء مملكتك البارحة؟

قال راسل:

- كما تعلم، فأنا المشرف العام على المشروع، ويجب عليَّ المكوث هنا حتى يوم التشفير.

فعاد غادي يتحدث معه محاولًا استدراجه ليخرج منه أية معلومةٍ قد تكون مفيدة:

- ألا ترى معي أن تأجيل الإطلاق لأسبوعٍ مدة طويلة، لماذا لا يتم التنفيذ بصورةٍ أسرع؟

اتسعت حدقتا عيني راسل وأطال النظر لغادي مرةً ثانيةً قبل أن يتحدث إليه قائلًا:

- أنسيت أنه خلال هذا الأسبوع سيتم تصنيع عدد كافٍ من البذل الواقية، وسيتم القيام بتوزيعها على كبار مسئولي الحكم، والعلماء والنابغين في كل المجالات في الممالك الثلاث، كذلك أيضًا سيتم توزيعها على عائلات كل من ذكرت؛ فهؤلاء جميعًا كما تعلم سيتم استثناؤهم من تبعات مشروعنا العظيم في بناء حضارةٍ جديدة.

حاول غادي أن يخفي ارتباكه، وهو يهرب من نظرات راسل الفاحصة بعد سؤاله الأخير، الذي نمَّ عن جهله بما يجب أن يكون العالم العسكري على علمٍ به فسارع بالتحدث قائلًا:

-لقد أنجزت عملًا عظيمًا هنا، ولكم شعرت بالفخر للعمل معك.

رد عليه راسل ولكن هذه المرة بلغةِ مملكة أرابيتا قائلًا:

- بالطبع؛ فقد تتلمذنا على يد أعظم العلماء يا د. غادي.

وهنا تجمد كل من غادي وتيام في مكانيهما من الخوف، وقد باتا عاجزين عن النطق تمامًا، وفي تلك اللحظة شعر الأخير بالجهاز يهتزُّ في جيبه، وكانت الساعة قد تخطت التاسعة والنصف، فحاول ضبط نفسه وتركيز انتباهه بشدةٍ وبدأ يعد الاهتزازات منتظرًا توقفها بعد المرة الخامسة، ولكن هذا لم يحدث، فصاح قائلًا لغادي:

- حدث شيء ما، مستشعر الحركة لم يتوقف عن إرسال إنذاراته.

قال تيام هذا ثم أخرج من جيبه الجهاز وضغط بسرعةٍ على زرٍ باللون الأحمر ثلاث مراتٍ متتالية.

كانت لحظات عاصفةٍ تمر بهم جميعًا، ولكن تيام تغلب عليها واستعاد رباطة جأشه قائلًا:

- هيا يا غادي فقد أرسلت إشارة الانسحاب، هيا.

نظر غادي لراسل طويلًا. كان يود الانقضاض عليه في تلك اللحظة، ولكن تيام فهم ذلك وبسرعة أمسكه من ذراعه قائلًا:

- هيا، هيا بنا.

تعنت غادي للحظات، ولكنه ما لبث أن استجاب وأدار جسده ليَهُمَّ بالتحرك وهو ينظر بعينين تطقان شرارًا لراسل، الذي استوقفهما قائلًا بلهجة استعطاف:

- أرجوكما انتظرا.

ثم أردف قائلًا:

- أنا نادم يا غادي على كل ما فعلت.

سحب غادي ذراعه من قبضة تيام بعصبية والتفت ثانيةً إلى راسل قائلًا بغضبٍ شديد:

- نادم! هكذا ببساطة؟ ألا تدري فجاعة الجرم الذي أقدمت عليه؛ بل أقول الجرائم التي ارتكبتها، بدءًا من خيانتك لأستاذ ڤافيد، وحتى مساهمتك في تلك المؤامرة؟

لا فائدةَ من ندمك هذا وقد بات الرجوع عن أخطائك مستحيلًا.

قال له راسل بسرعة:

- لا، لا، ليس مستحيلًا، أرجوك اسمعني، ولكن أولًا الكمني يا غادي، الكمني لكمةً قويةً بقدر الغضب الذي يموج داخلك الآن.

وقف كل من غادي وتيام في حيرة، فصرخ راسل قائلًا:

- أقول لك الكمني الآن.

وفي تلك اللحظة المحيرة والمليئة بالألغاز، وبعزم شديد، سدد غادي لراسل لكمةً قوية طرحته أرضًا، فقال الأخير وهو يئن من إثرها دون أن ينظر ناحيتهما:

- توجد ثلاث كاميرات في أركان القاعة، يجب تحطيمها الآن.

فقام تيام بسرعةٍ ورشاقةٍ بتحطيم الكاميرات الثلاث.

وعندما اطمئن راسل، نهض على قدميه بصعوبة يتسند على غادي، الذي ساعده على مضض، ثم أخرج ورقةً من جيبهِ قائلًا:

- لقد كتبت كل شيءٍ هنا، ولو لم تأتيا أنتما فقد كنت سأفعل المستحيل لكي تصل تلك الورقة للمقاومة؛ ففيها الخطة التي سنوقف بها ڤواد عن مسعاه.

صاح غادي قائلًا باستهجان:

- كيف تنتظر مني أن أصدقك الآن؟ أنا لا أريد سوى قتلك جراء ما فعلت.

قالها ثم همَّ بتسديد لكمةٍ ثانيةٍ له، فأمسكه تيام مرةً ثانيةً بقوةٍ قائلًا:

- اهدأ يا غادي. لا مجال لهذا الآن، يجب التفكير بعقلانية.

ثم مد يده ملتقطًا الورقة من راسل قائلًا:

- حتى وإن كان ما يقوله مشكوك في صحته، فلا مفر من تصديقه؛ فنحن الآن كالغرقى الذين يبحثون عن قشةٍ لإنقاذهم، ويجب التعلق بها حتى ولو كانت ممن نظن أنه ألد أعدائنا.

واستطرد قائلًا:

- والآن أسرع، لنهرب من هنا بينما لدينا الوقت لهذا، قبل أن يطبقوا علينا.

استوقفهما راسل مرة ثانية قائلًا:

- لحظة واحدة.

واخرج من جيبه مفتاحًا، ثم توجه لفتح خزنةٍ صغيرة في أحد أركان المعمل، وأخرج منها شيئًا وأغلقها مرةً ثانية، ثم عاد إليهما قائلًا:

- أتوقع أن تكون بحوزتكم جزيئات نانو مضادة، وأن هذا ما كان يعمل عليه أستاذ ڤافيد سرًا.

وناول تيام الجهاز قائلًا:

- لقد عمل التحالف على توفير كافة الإمكانيات لنا؛ مما مكننا من ابتكار هذا الجهاز، وهو أحدث ما وصلت إليه تكنولوجيا تصنيع جزيئات النانو؛ فله القدرة على تصنيع كمياتٍ كبيرةٍ جدًّا من الجزيئات في أقل وقت.

وأردف قائلًا:

- وقد عمل على تطويره عالم أورشاليا العسكري خلال الأيام الفائتة، فأصبح ينتج جزيئات نانو قابلة للدمج بالقنابل الصاروخية، ومن هنا تأتي أهميته الحقيقية.

وفي تلك اللحظة علت أصوات أجهزة الإنذار في المكان.

فعاد راسل يقول:

- القوات الآن في طريقها إلى هنا بكل تأكيد.

وأخرج ورقةً وقلمًا وشرع يتحدث بسرعةٍ قائلًا لتيام:

- اكتب لي أرقام جهاز اتصال آمن لأتواصل معك من خلاله؛ فچواد رجلٌ داهية، وبعد هذه الأحداث ستكون هناك حتمًا تغييرات في خطته، ويجب أن تكونوا على درايةٍ بها.

فقام تيام بسرعة بكتابة أرقام جهاز الاتصال الخاص بيزن، ثم توجه مع غادي إلى الشرفة، وأخذا يهبطان من أعلى التل بمهارةٍ منقطعة النظير، لا سيما وقد أعطاهما راسل -إن صدق- قبلة الحياة.

بينما عاد الأخير مطروحًا على الأرض ليبدو وكأن اللكمة قد أخلت بتوازنه بشكل كبير.

وبعد برهة كانت القوات تملأ المكان.

فقام أحد الضباط على الفور بالتوجه ناحية راسل قائلًا:

- دكتور راسل، أأنت بخير؟

ثم أردف قائلًا وهو يعاونه على النهوض:

- أين ذهب هذان المجرمان؟

تحدث راسل بصعوبة قائلًا:

- لا أعلم؛ فقد غبت عن الوعي بضع دقائق من إثر اللكمة.

وفي تلك الأثناء كان غادي وتيام قد هبطا بالفعل لأسفل التل، وفي ثوانٍ معدودةٍ تسلقا السور إلى الناحية الأخرى ليصبحا في مواجهة البحر، وبسرعةٍ وخفةٍ أخذا يعبران منطقةً صخريةً وعرةً وصولًا إلى نقطة بدايتهما.

أخرج تيام أزياء السباحة من مخبئها، وفي سرعةٍ عجيبةٍ خلعا ثيابهما وبدلاها.

وضع تيام الجهاز الذي أعطاه له راسل وكذلك الورقة في الحقيبة، وأحكم إغلاقها جيدًا، ثم قفز الاثنان في الماء.

وكأنهما يسابقان الزمن، أخذ غادي وتيام يسبحان بسرعةٍ شديدةٍ حتى وصلا إلى الزورق.

ساعدهما إيزاك على الصعود، وأثناء ذلك كان أحد الزوارق الخاصة بقوات التحالف قد بدأ يظهر من بعيد.

فقال إيزاك:

- لا بديل عن تشغيل الموتور؛ لا سيما وقد انكشف أمرنا.

انطلق زورق التحالف في إثرهم بسرعةٍ شديدة، لكنها لم تكن أسرع من رد فعل تيام، والذي رغم انشغال عقله بأشياء كثيرة في تلك اللحظة، إلا إنه كان محافظًا على تركيزه، فطلب من إيزاك بندقيةً آليه، فأشار له الأخير إلى مكان الأسلحة.

وعندما بدأ زورق التحالف في الاقتراب، شرع تيام -وقد اتخذ ساترًا- بإمطارهم بوابل من الطلقات؛ مما جعلهم يخففون من سرعتهم قليلًا.

وعندما أخذ زورق التحالف يرد بإطلاق الرصاصات ناحيتهم بغزارة، قال تيام لإيزاك بصوتٍ عالٍ ليصل إلى مسامع الأخير وسط كل هذا الصخب:

- حاول أن تراوغ بالزورق قدر الإمكان حتى نتفادى سيل الرصاصات المنهمر علينا.

كان غادي يريد أن يعاون تيام، فهم بالتحرك لجلب سلاح، إلا أن تيام صرخ فيه قائلًا:

- ابقَ مكانك يا غادي، فقد أوشكنا على الوصول للشاطئ.

وبالفعل وبعد أقل من دقيقةٍ وصل زورقهم إلى مشارف الشاطئ، وهنا أخذ إيزاك يهدئ من سرعته حتى توقف تمامًا، فنهض جاذبًا يد غادي ليحثه على القفز من الزورق.

وفي تلك اللحظة أشار لهما تيام بعصبية للتحرك بسرعة، ثم أخرج قنبلةً كان قد وجدها بجوار البندقية الآلية وأخذ يضبط إعداداتها، ثم انتظر بشجاعةٍ لبضع ثوانٍ كان زورق التحالف خلالها قد اقترب كثيرًا، فألقاها ناحيته بسرعة، ثم تراجع قافزًا وقد شعر بقوة الانفجار تطيح به عدة أمتار بعيدًا عن الشاطئ.

ولولا لياقته البدنية العالية ومرونته الكبيرة لكانت صدمته بالأرض عنيفةً جدًّا، ولكنه سقط متدحرجًا بخفَّة.

وبعد برهة سمع من ينادي عليه، وبعد استيعاب الأمر نهض واقفًا على قدميه ونظر حوله، فوجد على مقربةٍ منه غادي ممددًا أرضًا، وإيزاك يحاول إيقاف نزيف الدماء المندفع من كتفه بقطعة قماش اقتطعها من قميصه.

اقترب تيام منهما مصدومًا فقال له إيزاك:

- لقد أصابته رصاصةٌ غادرةٌ بينما كان يقفز من الزورق.

وأشار إلى الجرح قائلًا لتيام:

- ابق ضاغطًا هنا.

ثم استطرد قائلًا:

- سآتي بالسيارةِ حالًا.

أخذ تيام يضغط حيث أشار له إيزاك لمنع تدفق الدماء من غادي، وفي ثوانٍ كانت السيارة متوقفةً أمامهما.

قام تيام بمساعدة غادي على النهوض، ليستقرا في المقعد الخلفي للسيارة التي انطلقت في التو.

جلس تيام بجوار غادي ضاغطًا على الجرح، وقد هاله منظر وجه صاحبه الشاحب بشدة،

ودون أن يلتفت ناول إيزاك حقيبة إسعافات أولية إلى تيام قائلًا:

- سنحاول إيقاف النزيف قدر استطاعتنا، ريثما نصل لمقر المقاومة.

وأخذ يشرح لتيام كيف يستخدم القطن والضمادات لسد هذا الجرح الغائر.

وبالفعل توقف النزيف تمامًا، فنظر إيزاك في المرآة قائلًا لتيام:

- لا تقلق، الآن كل شيء على ما يرام.

ثم أخرج جهاز اتصاله ليتحدث إلى يزن مبلغًا إياه بالمستجدات.

***

كانت الحافلة التي تقل ويندا قديمةً ومتهالكةً وغير مجهزة بدورة مياه، لذا فقد كان مسموحًا للعمال بقضاء حاجتهم في الغابة أثناء التوقف، والذي كان مقررًا له كل ساعتين. وفي الساعةِ الحادية عشرة وعند أول توقف، عزمت ويندا أمرها على الهرب، فاتجهت إلى الغابة الكثيفة لتختفي هناك بلا أثر.

وعندما ابتعَدَت بشكلٍ كافٍ، أخرجت جهاز اتصال صغير كانت قد أخفته جيدًا بين طيات ملابسها، ودقت على يزن.

وعندما أتاها صوته من الناحية الأخرى تحدثت بانفعال قائلةً:

- لقد أخلوا العمال من الجزيرة دون أي سابق إنذار، وقبل أن أقوم بدوري.

غادي وتيام في خطر.

وأخذت تبكي، فقال لها يزن:

- اهدئي يا ويندا من فضلك حتى تستطيعي سماعي.

ثم أردف قائلًا:

- لا تقلقي، إنهما بخير وقد انسحبا في الوقت المناسب، فاهدئي أرجوكِ، واسمعيني جيدًا. أين أنت؟

- لقد هرَبتُ من حافلة العمال.

ووصفت له المكان الذي تقف عنده، فعاد يقول لها:

- ابقي حيث أنت ولا تبرحي مكانك، وسيأتي إليكِ أحد رجالنا بعد قليل ليقلك إلى أقرب مكان للقصر.

ثم أغلق الاتصال معها، ونظر إلى قادة المقاومة المجتمعين قائلًا:

- وها قد خرجت ويندا سالمة.

***

ثلاث رصاصات

وفي القصر كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة ظهرًا عندما كان چواد يستمع لتفاصيل ما حدث من راسل عبر جهاز اتصاله، فقال معقبًا بانفعال:

- أتعتقد يا راسل أنهم قد فطنوا لما يدور في الجزيرة كلية؟

رد راسل قائلًا بهدوء:

- سيدي، لقد تنكرا في زي عالم عسكري ومساعده، وتجولا في المكان لأكثر من ساعتين بين مبني القنابل والمعمل، وبالتأكيد فإن د. غادي قادر على تحليل الأمور والخروج منها بنتائج محددة.

صاح چواد قائلًا:

- إذًا فقد انكشف كل شيء للمقاومة الآن.

- وما المشكلة في ذلك، إذا كانوا عاجزين عن إيقافنا؟

ثم أردف قائلًا:

- صدقني، لا يوجد أي خوف مما حدث.

تحدث چواد وقد بات أقل حدة، وكأن الهدوء الذي بادره به راسل كان كالعدوى التي سريعًا ما انتقلت إليه، فقال:

- امممم، وكيف حال وجنتك؟ فقد رأيتك في الفيديو المفرغ من الكاميرات قبل تحطيمها وأنت تتلقى لكمةً قويةً جدًّا.

قال راسل:

- خلَّفت اللكمةُ بعض الآثار، ولكنني سأكون بخير.

ثم استطرد قائلًا:

- هل تفكر في تغيير شيء بخصوص خطتنا؟

رد عليه چواد قائلًا:

- بالتأكيد.

وسكت برهةً ثم أردف قائلًا:

- على كل سأخبرك بما أفكر فيه بعد التحدث مع حاكمي أورشاليا وكروسلاند.

فقال راسل:

- يبدو أنك أسأت الظن بهما كثيرًا، وقد صدق قولي لك في اتصالنا ليلًا بُعيد انقطاع الكهرباء، بأنهما أجبن من أن يدبرا لك شيئًا، لأنهما يعلمان جيدًا حجمهما الحقيقي بالنسبة إليك.

قال له چواد مزهوًا:

- بالطبع يا راسل بالطبع.

ثم أردف قائلًا على نحو مفاجئ:

- سأعاود الاتصال بك لاحقًا يا راسل.

وهنا أنهى الاتصال، فقد دخل دايمون ووقف يرتجف أمامه من الرعب، فبادره قائلًا باستخفاف:

- ما بك يا دايمون، لماذا ترتعش هكذا؟

ثم استطرد قائلًا:

- ألم تكن أنت صاحب فكرة إنشاء المعمل على تلك الجزيرة؟

وبالرغم من وقوعها في منطقة المثلث الحدودي وقربها من أماكن تجمع المقاومة والمنبوذين، إلا أنني اقتنعت برأيك ووثقت باختيارك، وعندما...

حاول دايمون مقاطعته، فأسكته چواد بنظرةٍ حادةٍ وعاد يتحدث قائلًا:

- وعندما أخبرتني أن نظام تأمين المكان محكمٌ لأقصى درجة وأنه لا مثيل له، وأن أبراج المراقبة والكاميرات، وتلك الأسوار المزودة بمستشعرات الحركة، وغيرها من تقنيات التأمين الحديثة، ستمنع أي أحد من الاقتراب والعبث بمشروعنا، وثقت بك.

وفي تلك اللحظةِ دق جهاز اتصاله، فرفعه إلى أذنه، وبعد برهة ردَّ قائلًا:

- نعم نعم، كان هذا متوقعًا.

ثم أغلق الخط وعاد لدايمون قائلًا:

- هل تعلم من كان يحدثني الآن؟

ودون أن ينتظر إجابة من هذا الأخير الذي كان قد تملكه الذعر تمامًا، قال:

- إنه أحد الضباط المنوطين بمرافقة حافلة العمال العائدة من الجزيرة، والذي أخبرني في مكالمةٍ سابقةٍ من نصف ساعة أن إحدى العاملات قد اختفت، والآن يقول لي أنهم لم يجدوها، وأنهم بعد البحث وجدوا ملابس العمل الخاصة بها، وبعض أدوات التنكر، على بعد بضعة كيلومترات من مكان اختفائها، ويبدو أنها تُركت عمدًا ليستخفُّوا بنا.

ثم علا صوته وهو يردف قائلًا:

- ليخبروني بأنهم قادرون على خداعي في كل وقتٍ وفي أي مكان، ومعهم حق، أتدري لماذا؟

وصاح قائلًا وهو ينهض واقفًا:

- لأنني وثقت بشخص مثلك.

قاطعه دايمون راجيًا:

- سيدي، هذا خطأ لن يتكرر، أعدك.

وأخرج من جيبه ورقةً ولوَّح بها بيدٍ مرتعشةٍ وهو يلهث في رعب قائلًا:

- لقد وضعت خطةً مثاليةً لاختطاف...

ولكن چواد الذي كان قد أخرج مسدسه بالفعل، ودون أن يلتفت لتوسلاته ودون أي تردد، أطلق منه ثلاث رصاصات، فأرداه قتيلًا في الحال.

ثم ما لبث أن توجه ناحية الجثة الملقاة أمامه، وانحنى ليأخذ الورقة التي كان دايمون مطبقًا عليها بشدة، فجذبها من يده بعنفٍ واعتدل واقفًا وهو ينظر له باشمئزاز، قائلًا وكأن الأخير سيسمعه:

- قلت لك أن تحذر، قلت لك أكثر من مرة إنني لا أريد أية أخطاء في هذا المشروع، ولكنك غبي لم تفهم شيئًا.

وبعد برهةٍ دخل يوناس مهرولًا يتبعه بعض الجنود، وصاح قائلًا:

- ماذا حدث؟

قال چواد:

- لا شيء يا يوناس.

ثم أمر الجنود بإخراج الجثةِ وتنظيف الغرفة، وعاد يقول له:

- تعال نخرج إلى الشرفة؛ فأنا بحاجةٍ لاستنشاق بعض الهواء النقي.

***

غادي

وفي السيارة أفاق غادي وحاول التحدث بصعوبة قائلًا:

- الحقيبة يا تيام، الحقيبة، أين هي؟

قال له تيام:

- معي هنا، وأرجوك لا تحاول أن تبذل أي مجهود الآن.

- لا بد أن توقفهم يا تيام، لا تسمح لهم بتحقيق مرادهم أبدًا.

- سنوقفهم معًا يا غادي.

وبعد برهةٍ أخذ يردد بذعر:

- غادي، غادي، ابق معي.

فقال له إيزاك:

- لا تقلق، لقد نزف كثيرًا ويبدو أنه فقد الوعي.

ثم أردف قائلًا:

- سيكون بخير، وقد أوشكنا أن نصل.

كانت الساعة قد تخطت الثانية عشرة ظهرًا عندما وصل إيزاك بالسيارة إلى مقر المقاومة.

وعلى الفور خرج بعض رجال المقاومة لاستقبالهم، فوضعوا غادي على نقالةٍ وهبطوا به درجات السلم، وقد ظهر القلق جليًا على سحنة تيام؛ فقد كان وجه صاحبه شاحبًا للغاية.

وبمجرد دخوله للمنزل استقبله يزن قائلًا:

- اطمئن يا تيام، توجد هنا تجهيزاتٌ طبيةٌ حديثة، وسيكون بخيرٍ تمامًا.

وفي قاعةٍ طبيةٍ كبيرةٍ أدخلوا غادي، وبسرعةٍ شديدةٍ تعرف الأطباء على فصيلة دمه وبدءوا في تعويض فقدانه، بينما كان هناك طبيبان آخران يجريان عملية استخراج الرصاصة.

وقف تيام حزينًا ينظر لصاحبه، فقال له يزن:

- قلت لك اطمئن يا تيام، لقد مر علينا ما هو أصعب من هذا بمراحل.

وأردف قائلًا:

- بعد ساعتين أو أقل ستتحسن حالته كثيرًا.

ثم استطرد قائلًا:

- والآن هيا بنا إلى حيث قادة المقاومة مجتمعين، لنرى ماذا سنفعل بشأن ما هو قادم.

***

البِذَل الواقية

وفي الشرفة المطلة على حديقة القصر، بادر يوناس چواد قائلًا:

- أما زلت مصرًا على إبعادي عن كل شيء يخص تلك الجزيرة، ألم تعد تثق بي؟

قال چواد:

- بل لا أثق في أحد ممن حولي غيرك، ولكن كان يجب أن أفعل هذا.

رد يوناس قائلًا:

- وأين ريتال من كل ما يحدث؟ متى ستعود إلينا؟

قال چواد:

- ستعود قريبًا يا يوناس، قريبًا جدًّا كما أخبرتك.

ثم استطرد قائلًا:

- كيف حال ويندا، هل تحسنت بعض الشيء؟

حاول يوناس إخفاء ارتباكه وهو يرد عليه قائلًا:

- في طريقها للتحسن، وقريبًا ستكون بخير.

فقال چواد:

- حسنًا، والآن اسمعني جيدًا.

سيمر عليكما أحد الجنود في المساء ليعطيكما بذلتين واقيتين، ولا بد أن ترتدياها غدًا منذ الصباح الباكر أنت وويندا.

قال له يوناس:

- ما الأمر يا چواد؟ لم أتعود منك على هذه الطريقة، أريد أن أفهم ما يحدث.

رد چواد على الفور قائلًا:

- غدًا ستعرف، ولكن إياك أن تنسى أمر تلك البذل.

فوقف يوناس متحيرًا وفي الوقت نفسه غاضبًا؛ فقد تمنى لو استطاع أن يعرف المزيد بخصوص ما سيحدث غدًا حتى يحذر المقاومة.

ثم ما لبث بعد قليل أن غادر عائدًا لجناحه بحجة المكوث بجوار زوجته المريضة، ولكنه في الحقيقة كان يريد إبلاغ يزن بشأن تلك البذل في أسرع وقت.

بينما ظل چواد واقفًا متأملًا فيما يحدث، وأخذ نفسًا عميقًا، جاءته على إثره فكرة غريبة فحدَّث نفسه قائلًا:

"كيف لم تنتهِ تلك الجبهة التي حاربناها بكل السبل طوال هذه السنين، ولماذا تنشط وأشعر بها قريبةً مني كلما أوشكت على تحقيق حلمي؟

أية روح يمتلكها هؤلاء الرجال، وكيف استطاعت تلك الروح أن تقترب مني بهذا القدر حتى طالت ابنتي ريتال؟".

وسكت برهة ثم عاد يحدث نفسه من جديدٍ قائلًا:

"لكن مهما كانت قوة تلك الروح، فإنها ستفنى غدًا بلا ريب، ولن تعود مرةً ثانية.

وغدًا سيذوق حاكمي أورشاليا وكروسلاند عذابي، غدًا سأجعلهما يتجرعان من كأس انتقامي حتى الثمالة".

ثم نظر لساعته ومضى متوجهًا بخطواتٍ سريعةٍ إلى قاعة الاجتماعات السرية في القصر.

***

وفي الاجتماع المنعقد بمقر المقاومة، أخذ تيام يفض محتوى الورقة التي أعطاها له راسل فقرأ في شطرها الأول:

"أرجو أن تسامحوني؛ فقد شاركت في أعظم جريمةٍ ضد البشرية، والتي لم تتوقف فقط على إدخال جزيئات نانو لتقويض إرادة الشعوب، بل أيضًا للتحكم بهم عن بعد فرادىً ومجموعات، وسيتم نشر تلك الجزيئات عبر قنابل صاروخية واسعة المدى، ستنطلق من القاعدة العسكرية المشتركة للتحالف، والواقعة في منطقةٍ قريبةٍ جدًّا من حدود مملكة أرابيتا.

وقد تم إعداد المشروع بحيث يكون هناك ثلاثة أقسام من جزيئات النانو، أي أنه لكل مملكة جزيئاتها الخاصة، والتي سيتم تشفيرها بشفرةٍ لا يعلمها إلا حاكم المملكة.

ولأن چواد يريد السيطرة على الثلاث ممالك، فقد قرر تبديل جزيئات المملكتين الأخرتين بجزيئات أخرى تحمل شفرته، وبهذا يتمكن من التحكم في الشعوب كلها دفعةً واحدة.

وتنفيذًا لخطته، فقد عمل في وقت سابق على إرسال مجموعاتٍ من قواته الخاصة إلى تلك القاعدة العسكرية، بشكل غير ملحوظٍ تمامًا وعلى دفعات صغيرة، لإحكام سيطرته عليها، ولكنني فعلت كل ما بوسعي لتصحيح ما ارتكبته من أخطاء، فقمت بتسريب هذه المعلومة إلى حاكمي أورشاليا وكروسلاند بطريقةٍ غير مباشرة، وقد نجحت بالفعل في إدخال الشك إليهما؛ مما جعلهما يحذوان حذوه، وبالتالي فشلت خطته في السيطرة على تلك القاعدة وتبديل عبوات جزيئات النانو هناك.

وهنا عرضت عليه خطةً كنت قد رسمتها سابقًا والتي آمل أن تفشل هي الأخرى على أيديكم، لأكون قد أسقطت عني جزءًا من إرث الجرائم الذي أثقل ظهري،

وخلال السطور القادمة سأشرح لكم كل شيء بالتفصيل".

قرأ تيام تلك المقدمة، وسكت هوينة لالتقاط أنفاسه، ثم ما لبث أن شرع في إكمال قراءة ما في الورقة.

وعندما توقف معلنًا انتهاءه، قال أحد العلماء منبهرًا وهو يشير إلى الجهاز الذي وضعه تيام أمامهم:

- هذا الجهاز هو ثورة علمية في حد ذاته، وبحوزتنا له نستطيع خلال بضع ساعات الحصول على كمية الجزيئات المثالية، والتي تصلح لدمجها بالصواريخ كما أشار د. راسل.

وهنا تحدث يزن وقد بدن على ملامحه علامات التفكير العميق قائلًا:

- ولكن لماذا لا يتم إرسال عبوات جزيئات النانو لقاعدة الإطلاق جوًا لتصل أسرع، بدلًا من نقلها برًا في طريقٍ قد يستغرق أكثر من ثلاث ساعات؟

رد عليه أحد العلماء:

- لأن الجزيئات تم تطويرها لتنطلق من خلال قنبلة، لذلك فتعرضها لتغيير في الضغط الجوي إذا تم نقلها بالطائرة، سيؤدي إلى استثارتها مبكرًا وبالتالي تلفها.

بادر يولاند العالم قائلًا:

- ولكن بالفعل سيتم إطلاقها من قنابل في الجو، وبالتالي ستتأثر بالضغط الجوي.

قال العالم:

- نعم، ولكن هذا ما صنعت لأجله، أن تتأثر بالضغط الجوي أثناء إطلاقها من القنابل، فتنتشر بالشكل والسرعة المطلوبين، أما لو حدث لها هذا وهي خارج القنابل الصاروخية، فسيؤدي ذلك إلى تلفها كما ذكرت.

فقال يولاند:

- حسنًا، من الواضح أننا أمام معركتين ولا بد أن نخوضهما بشكل لا يلفت النظر؛ حيث إن منطقة التمركز كما أوضح د. راسل ستكون قريبةً من قاعدة الإطلاق، وهي منطقة عسكرية وفي دقائق قد تمتلئ بقوات التحالف.

واعتدل قليلًا ثم أردف قائلًا:

- في المعركة الأولى سيتم الهجوم على قوات چواد، ولا بد من أن يحدث هذا بعد تشويشهم على إشارات الاتصال في المنطقة، وباستخدام قنابل الغاز سنعمل على تخديرهم تمامًا، ثم تكميمهم وتقييدهم وإخفائهم بين أشجار الغابة الكثيفة في المنطقة، ومن ثم يتمركز رجالنا في انتظار موكب الجزيئات و...

قاطعه يزن قائلًا:

- ألن يكونوا مرتدين بذلهم الواقية، والتي قد تحميهم من أثر الغاز المخدر؟!

وهنا تحدثت چايدا قائلةً:

- من المؤكد أنهم وضعوا خطتهم، بحيث يتم ارتداء البذل بعد الانتهاء من الاستيلاء على موكب الجزيئات والتعامل مع قوات التحالف، لأن البذل كما ذكر د. راسل في وصفها ثقيلة جدًّا وقد تعيق حركتهم بشكلٍ كبير.

عاد يولاند يقول:

- بالضبط، وعلى كلٍ وزيادة في الاحتياط، سننظم تمركزنا الأول ليكون على هيئة نصف دائرة تحيطهم، لكي نباغت كل فرد منهم برصاصاتنا الصامتة بسرعةٍ ودقة، وقبل أن يدركوا ما يحدث حولهم، وذلك في حالة إذا ما ظهروا مرتدين تلك البذل.

وبلا شكٍ أن ما سيجعل المعركة الأولى أسهل -إن صح هذا التعبير- هو أن أسلحة قوات چواد ستكون مزودةً بكواتم للصوت.

وسكت هونيةً آخذًا نفسًا عميقًا قبل أن يستطرد قائلًا:

- وعند مرور الموكب ستبدأ المعركة الثانية، والتي ستكون أصعب بكثير؛ فلن يتم استخدام قنابل الغاز بها ولا حتى المسدسات، ذلك لأن حراس الموكب سيكونون بالفعل مرتدين للبذل الواقية، والتي ستحميهم من الغاز المخدر، وكذلك فإن إطلاق النار قد يترك آثارًا على سيارات الموكب؛ مما يعني حتمية الاشتباك اليدوي، ويجب أن يكون التعامل بشكلٍ سريعٍ ومتقن.

رد أحد قادة العمليات في المقاومة قائلًا:

- إذًا فسنبدأ من الآن بتجهيز فريقٍ من عناصرنا التي تجيد فنون القتال بالأيدي، بالإضافة لمهارة التصويب بالأسلحة.

وأردف قائلًا:

- وينبغي أن يرافق هذا الفريق قناصٌ ماهرٌ وسريع، للتدخل في حالة الطوارئ فقط؛ حيث سيقوم بالتغطية الكاملة باستخدام بندقية قنصٍ كاتمةٍ للصوت، خاصة في المعركة الثانية، لضمان عدم هروب أي ضابط من حراس الموكب ومن ثم إطلاقه لعيارٍ ناري، والذي قد يودي بالمهمة كلها للفشل.

رد يولاند بسرعةٍ وكأنه كان ينتظر هذه الفرصة فقال:

- إذًا فسأنضم لهم كقناص؛ لأن درجة دقتي في إصابة الأهداف عاليةٌ جدًّا.

نظر له الجميع مستنكرين، ولكنه أردف سريعًا قائلًا:

- ولا تنسوا أنني كنت في السابق قائد فرقة القناصة في جيش كروسلاند، وأعرف تحركات القوات وتكتيكاتهم.

نظر له يزن وكاد أن يقول شيئًا، إلا أنه توقف فهو يعرف يولاند جيدًا، وهو متيقن تمامًا أن الأخير لن يتراجع عن المشاركة في هذه المهمة بأي حال من الأحوال، فسكت قليلًا ثم تحدث قائلًا:

- حسنًا يا يولاند، ستقود المهمة حتى الاستيلاء على الموكب، ولكنك لن تتوجه معهم إلى قاعدة الإطلاق.

وقبل أن يهم يولاند بالاعتراض، سارع يزن بالتحدث قائلًا:

- هذا أمر غير قابلٍ للنقاش.

ثم نظر للعلماء الحاضرين وأردف قائلًا:

- والآن ستنطلقون إلى المعمل للبدء في استنساخ جزيئاتنا المضادة باستخدام هذا الجهاز، ويجب عليكم الانتهاء من ذلك في أسرع وقت.

وبينما يهم بالنهوض دق جهاز اتصاله، وعندما ردَّ جاءه صوت يوناس من الناحية الأخرى قائلًا:

- اسمعني جيدًا يا يزن، أعتقد أن چواد يدبر لشيء ما غدًا.

ثم أخبره بما دار بينه وبين چواد حتى أنهى حديثه قائلًا:

- يبدو أنه مقبلٌ على أمرٍ خطيرٍ جدًّا.

فقال له يزن:

- حسنًا يا يوناس، إذا استطعت أن تعرف أي شيء فأبلغني على الفور.

وأنهى الاتصال ثم عاد يقول لهم وقد لفته الحيرة:

- لقد أخبرني يوناس للتوِ أن چواد يريد منه ومن ويندا ارتداء البذل الواقية صباح غد.

فعقب يولاند على الفور قائلًا:

- هذا لا يحمل سوى معنىً واحد، وهو أن التنفيذ سيكون غدًا وليس بعد أسبوع.

ونظر لتيام قائلًا:

- يبدو أن د. راسل لم يكن مخطئًا في توقعه.

ثم استطرد قائلًا بسرعة:

- على كلٍ، الفرقة سنعِدُّها الآن، وستكون جاهزة خلال ساعات، والجزيئات سيتم تصنيعها قبل انتهاء هذا اليوم، وسنتعامل من الآن على أن التنفيذ سيكون غدًا.

قال يزن:

- ولكن يجب أن نتأكد من أن التغيير في الموعد فقط وليس في التحركات أيضًا.

فقال تيام:

- إذًا فلا مناص من انتظار اتصال د. راسل.

نظر يزن في ساعته آملا في تلقي هذا الاتصال في أسرع وقت؛ فقد قلب ما أخبره به يوناس الموازين تمامًا.

***

ضغطة زرٍ واحدة

جلس چواد في قاعة الاجتماعات السرية منتظرًا مجموعةً من القوات الخاصة التي انتقاهم بعنايةٍ من بين ضباطه الأشد له ولاءً.

وبينما هو كذلك أجرى اتصالا مرئيًا بحاكمي أورشاليا وكروسلاند، فتحدث إليهما بسرعة قائلًا:

- لا وقت لتوجيه الاتهامات، وقد رأيتما ما سجلته الكاميرات، وتأكدتما أن من كان بالجزيرة صباحًا، هو نفس الشخص الذي هرب مع د. غادي سابقًا، وهو من عناصر المقاومة، لذا فتوقفا عن الشعور بالتوجس والشك لأن عدونا واحد، وقد استطاع الوصول إلى حصن الجزيرة ومعرفة كل شيء، ولا نعلم ما هو بصدد تدبيره الآن، لذا فلا بد من تغيير خطتنا.

فقال حاكم أورشاليا:

- وماذا تقترح إذًا؟

رد عليه چواد قائلًا:

- سيكون إطلاق القنابل غدًا.

وهنا اعترض حاكم كروسلاند قائلًا:

- ولكن هذا مستحيل؛ فلا بد من توزيع البذل الواقية على مجموعةٍ كبيرةٍ جدًّا، ولن نستطيع أن نفعل هذا خلال يومٍ واحد، ناهيكما عن أنه لم يتم تصنيع الكمية الكافية حتى الآن.

قاطعه چواد قائلًا:

- سنقوم اليوم بتوزيع البذل المتاحة على من لهم الأولوية، وبعد الإطلاق يقوم علماؤكم بإعادة من تريدون بعد إصابتهم بالجزيئات، إلى وضعهم الطبيعي.

نظر حاكم أورشاليا في شكٍ وريبةٍ شديدين إلى چواد، ومن ثم أخذ يحاوره كثيرًا في عدة نقاط.

وبعد جدال طويل، وبعد أن رضخ لشرط حاكم أورشاليا الوحيد لتقديم الموعد، قال چواد في نهاية الاتصال:

- ولا داعي للقلق، فسيكون لدى كل منكما شفرة التحكم في شعبٍ يستطيع تجييشه بأكمله لحمايته، وبضغطة زرٍ واحدة.

لمعت عيون حاكمي مملكتي أورشاليا وكروسلاند عند سماعهما لجملة چواد الأخيرة، وكان لها وقع السحر عليهما، فقالا في نفسٍ واحد:

- اتفقنا.

وعقب هذا الاتصال حضرت القوات الخاصة التي كان چواد بانتظارها، فأخذ يرسم معهم تفاصيل عملية الاستيلاء على الموكب كاملةً وفقًا للخطة التي طرحها عليه راسل.

وفي ختام الاجتماع تحدث لقائد الفرقة قائلًا:

- ولكن يجب عليكم أولا القيام بمهمة أخرى لا تقل أهمية عن مهمة الغد.

ثم أخرج ورقةً من جيبه وأعطاها له قائلًا:

- ستجدون هنا تفاصيل هذه المهمة، والتي يجب تنفيذها الليلة.

وبعد انتهاء الاجتماع ومغادرة القوات، قام چواد على الفور بالاتصال براسل، وعندما رد الأخير بادره قائلًا:

- كل شيء على ما يرام ويسير وفق ما خططنا له.

ثم استطرد قائلًا:

- لقد تحدثت مع حاكمي أورشاليا وكروسلاند، وقد وافقا على تغيير موعد الإطلاق.

رد راسل قائلًا باندهاشٍ مصطنع:

- هل ستغير الموعد؟

- سيكون غدًا.

- وهل اقتنعا بذلك؟

- نعم.

سكت راسل هويناً ثم عاد يقول:

- وبالنسبة لابنتك؟

رد چواد بحنقٍ بالغٍ قائلًا:

- إن تغيير الموعد قد غير الأمور بشأن ابنتي؛ فحاكم أورشاليا هذا قد أعدَّ قائمةً طويلةً بمن سيتم تجنيبهم الإصابة بالجزيئات، وحيث إن الإطلاق سيكون غدًا قبل توزيع البذل الواقية عليهم، لذا فقد أصر على ألا يتم الإفراج عن ريتال إلا بعد إعادة كل من هم في قائمته إلى حالتهم الطبيعية، وقال إن هذا شرطه الوحيد لتقديم الموعد.

- دعه يحلم؛ فسوف يفيق هو وقائمته تلك غدًا على كابوس مفزع.

قال له چواد بتخوف:

- أواثق أنك ستعيد ابنتي إلى حالتها الطبيعية يا راسل بعد أن تصيبها تلك الجزيئات في محبسها؟

قال راسل فورًا:

- كل الثقة، هذا أمر لا يجب أن يقلقك على الإطلاق؛ فبمجرد أن تعيدها إلى القصر، سأبطل عمل جزيئات النانو بها تمامًا.

فقال چواد:

- حسنًا جدًّا، وبالمناسبة، لقد أرسلت لعائلتك كل البذل الواقية التي طلبتها مني.

واستطرد قائلًا قبل أن ينهي الاتصال:

- أراك غدًا.

***

الاتصال

وفي مقر المقاومة، كانت الساعة قد تخطت الثانية بعد الظهر، عندما بدأ غادي يفيق، فأبلغ الأطباء يزن الذي حضر برفقة تيام لرؤيته.

قال غادي بمجرد دخولهما:

- هل من أخبارٍ جديدة، وماذا تقول تلك الورقة التي كتبها راسل؟

قال له تيام:

- استرح يا غادي الآن واهدأ حتى نطمئن عليك.

قال غادي وهو يهم بالاعتدال جالسًا:

- أعطني الورقة أقرؤها بنفسي.

شرع كل من يزن وتيام بمساعدته على الجلوس، ومن ثم قال له الأخير:

- حسنًا سأطلعك على مستجدات الأمور.

وأخذ يقص عليه كل التفاصيل، حتى اتصال يوناس الأخير، فقال غادي بصعوبة:

- إذًا يجب أن نبدأ في الحال باستنساخ جزيئات أستاذ چافيد المضادة و...

ثم توقف عن التحدث وأخذت أنفاسه تتصاعد.

فقال له تيام:

- هوِّن عليك يا غادي. لا تنفعل هكذا، سيكون كل شيء على ما يرام، وأعدك أن تُكلل كل جهودنا بالنجاح.

ثم قال مازحًا محاولًا تغيير مجرى الحديث لإبعاد التوتر عن صاحبه:

- هذا البطل قد هبط من قمة التل بسرعةٍ ورشاقةٍ لا مثيل لهما، ويبدو أن السر كله يكمن في تلك اللكمة القوية التي سددها إلى د. راسل.

لم يكد تيام ينهي جملته الأخيرة، حتى دق جهاز اتصال يزن الذي رد في الحال، ثم عاد يقول لهما وقد بدا عليه ولأول مرةٍ هذا الحماس الشديد، والوهج الذي أطل من عينيه:

- إنه د. راسل.

وهنا أشار غادي ليزن بيده إشارةً فهم الأخير فحواها، وعلى الفور قام بالضغط على زرٍ في جهازه يسمح لمن حوله بسماع المحادثة والمشاركة فيها، ومن ثَمَّ تحدث غادي قائلًا:

- نسمعك يا راسل.

فقال راسل بصوت استطاعوا تمييز ما تخللته من كلماتٍ بصعوبةٍ بالغة:

- الوضع هنا مريب، وحشودٌ كثيرةٌ من قوات التحالف تأتي من كل حدبٍ وصوبٍ لتأمين الجزيرة بعد الأحداث الأخيرة، وهم يعملون الآن على تركيب أجهزة مهمتها إيقاف أية إشارة اتصال من وإلى المكان، وخلال دقائق سيتم تشغيلها ولن أستطيع التواصل معكم حينها، لذا سأتلو عليكم كل شيء في عجالة.

واستطرد قائلًا:

- لقد غيَّر چواد توقيت التنفيذ وسيكون غدًا، ولكن التحركات كما هي؛ لذا فعليكم تجهيز قواتكم والتمركز غدًا، قبل الساعة التاسعة والنصف صباحًا بالتمام، في النقطة التي وضحتها لكم على الخريطة التي رسمتها بظهر الورقة.

فقال يزن:

- توجد لدينا هنا نقطة تحيرنا جدًّا يا د. راسل.

وأردف قائلًا:

- كيف تضمن ألا يكون چواد قد أرسل بالفعل قواته للتمركز هناك؟

رد راسل قائلًا:

- هذا غير ممكن؛ لأن برنامج التشفير الذي أعده مجموعة مهندسين من الثلاث ممالك، لا توجد منه حتى هذه اللحظة أية نسخٍ خارج الأجهزة الموجودة داخل غرف التشفير على الجزيرة، والتي من المفترض ألا يطأها أحد قبل يوم الإطلاق، وأية محاولة من چواد لتسريب هذا البرنامج قبل ذلك ستعرِّض خطته برمَّتها للخطر؛ لذلك فليس أمامه إلا أن يقوم بنسخ البرنامج أثناء قيامه بتشفير جزيئاته صبيحة يوم الإطلاق، ثم العودة وتشفير جزيئاته في القصر مستعينًا بتلك النسخة.

ثم استطرد قائلًا:

- يجب من هذه اللحظة، وبواسطة ذلك الجهاز الذي أعطيته لتيام، البدء في تصنيع الكمية الكافية من جزيئاتكم، لصنع ثلاث عبوات من الجزيئات، جاهزة لتركيبها بالقنابل الصاروخية كما أوضحت لكم في الورقة.

وعاد راسل يردد:

- غادي، غادي..

رد غادي عليه بصعوبةٍ قائلًا:

- معك يا راسل.

قال له:

- سامحني يا غادي، سامحني على كل ما فعلت.

وكاد يجهش بالبكاء وهو يتحدث قائلًا:

- إن چواد سيصحبني معه غدًا إلى غرفته المحصنة في القصر، ومؤكدٌ أن مصيري سيكون القتل، عندما تنجحون في إيقافه ولا يجد أحدًا من أفراد الشعوب يستجيب له.

أنا أعلم أن هذه هي النهاية العادلة لأمثالي، لكن كل ما أرجوه منكم هو أن تسامحوني جميعًا.

قال له غادي بعد محاولةٍ مضنيةٍ لاستجماع قوته:

- سننقذك منه يا راسل، ولكن حاول أن تراوغه قدر الإمكان لكسب الوقت، وسنصل إليك غدًا، أعدك بذلك.

فقال له راسل:

- هل أنت بخير يا غادي، لماذا تتحدث بصعوبة هكذا؟

استجمع غادي قوته مرة ثانية وعاد يقول:

- أنا بخير يا صديقي لا تقلق.

ثم أردف قائلًا في تأثرٍ بالغ:

- لقد كنت في حيرة من أمرك، وخلال الأيام الفائتة كنت أسأل نفسي كل لحظة.. كيف يمكن أن يصبح من تتلمذ على يد أستاذ چافيد بهذا القدر من التخبط، ولكنني فهمت الآن، فهمت أن روحك العظيمة قد قادتك لسلوك هذا الطريق؛ حتى يكون لك أعظم دور، ولتبرهن على أن حب العلم والإخلاص له يورث في القلوب نورًا، نورًا يطغى في النهاية على كل بذور الشر والظلام.

وهنا سمعوا راسل على الناحية الأخرى يبكي بحرقةٍ ويتمتم بكلامٍ غير مفهومٍ من شدة نحيبه، فقال له غادي:

- لا تبكِ يا راسل أرجوك، لقد سامحتك يا صديقي و...

ثم انقطع الاتصال فجأة، فقال يزن:

- يبدو أنه قد تم بالفعل إيقاف كل الاتصالات في المكان.

ونظر إلى غادي الذي كانت دموعه تسيل بغزارة من عينيه وقال له:
- تماسك يا د. غادي؛ فجسدك لا يتحمل هذا المجهود العصبي الآن، ونريدك أن تتعافى سريعًا. سيكون د. راسل بخيرٍ غدًا، أعدك بذلك.
ثم ابتسم بودٍ قائلًا:
- وأنا أفي بوعودي؛ إلا لو لم تعجبك قهوتي.
ثم أشار إلى تيام برأسه لينسحبا، تاركين غادي لينال قسطًا من الراحة.

***

غدًا سينتهي كل شيء

كانت الساعة قد قاربت السادسة مساءً، عندما جلس يوناس في جناحه محملقًا في تلك البذل التي أرسلها له چواد قبل قليل، محاولًا التكهن بوظيفتها.
لم يكن يعلم بتفاصيل ما يحدث؛ فقد أدى تطور الأحداث السريع إلى انشغال يزن تمامًا عن إطلاعه بأي شيء.
وبينما هو كذلك فإذا به يسمع دقاتٍ وطيدةٍ على الباب، فنظر لساعته ثم نهض ليفتحه، وسرعان ما ارتبك بشدة، ولكنه استطاع إخفاء ذلك وهو يقول مُرحِّبًا بتعجل:
- أهلًا بك يا چواد، تفضل.
قال له چواد وهو يهم بالدخول:
- قررت أن أطمئن على وصول البذل إليكما بنفسي.
ثم أردف قائلًا:
- وأردت أن أؤكد عليك أنت ووبندا ضرورة ارتدائها غدًا، في الصباح الباكر قبل الساعة السابعة.

وأردف قائلًا بجدية:

- ولا تخلعاها إلا في المساء يا يوناس.

قال له يوناس بشيء من اللوم:

- هكذا، دون أن أفهم أي شيء أو أكون مساهمًا فيما تخطط له كما كان سابقًا، هل استغنيت عن كفاءتي لهذه الدرجة يا چواد؟

فردَّ چواد قائلًا:

- لم لا تحسب الأمور من زاويتها الصحيحة؛ وهي أنني أثق جدًّا في حسن إدارتك للأمور، ولهذا أوكلت إليك ملف التعامل مع الأوضاع الداخلية؟

ثم أردف قائلًا:

- بالمناسبة، اليوم كان موعد إطلاعي على تقريرك الشهري المفصل بشأن حالة العمال.

- لقد أردت أن أخبرك صباحًا، ولكن ويندا كانت تحتاجني بجانبها؛ فقررت الانتظار لوقت الظهيرة، وحينما كنت قادمًا في طريقي حدث ما حدث في مكتبك.

ثم سكت وهو ينظر لچواد الذي بدا منشغلًا.

وبعد برهة كان چواد يستمتع بتدخين أول نفسٍ من غليونه، عندما عاد يوناس يكمل كلامه قائلًا:

- لذا فقد كنت سأمر عليك الآن لولا أنك أتيت أولًا، فهيا إلى مكتبك لمناقشة الأوضاع لو أحببت.

وهمَّ يوناس بالتحرك، فأشار له چواد بيده الممسكة بالغليون ليبقى جالسًا، ثم قال:

- لا داعي لتلك الرسميات بيننا. سنناقش أمورنا هنا، إلا لو كان هذا سيسبب إزعاجًا لويندا.

وأردف قائلًا:

- بالمناسبة، كيف حالها الآن؟

- هي بخير، ولكنها نائمة.
- أعدك أن تعود لها عافيتها وضحكتها من جديد، وقريبًا جدًّا.
ثم أرجع ظهره للخلف ووضع قدمًا على قدم واستطرد قائلًا:
- حسنًا، هات ما عندك.
وخلال عدة دقائق أخذ يوناس يحدثه عما يجري من أمورٍ داخلية، حتى ختم كلامه قائلًا:
- ومن المشاهدات التي تأتي من مراقبي العمال في المصانع، أرى أن هناك تغيير حقيقي يحدث في إدراك ووعي الغالبية العظمى منهم.
- ولكن الأوضاع هذه الأيام مستتبةٌ نوعًا ما، أليس كذلك؟
- تحليلي للوضع هو أن هدوءهم هذا ليس بسبب خوفهم من حملات الاعتقال الواسعة في المملكة، ولكنه هدوء ما قبل العاصفة؛ وكأنهم ينتظرون اللحظة الحاسمة، اللحظة التي ينقضون فيها مرةً واحدةً فلا يتم تشتيت قوتهم حينها.
قال چواد:
- أرى أنك تعطيهم أكثر من حجمهم يا يوناس، صدقني إنهم الآن مرتعبون في بيوتهم ولا يجرءون على البوح بمكنونهم حتى لأقرب الناس إليهم.
ثم أردف قائلًا وهو يهم بالنهوض مغادرًا:
- ولا تقلق مطلقًا؛ فغدًا سينتهي كل شيء.
وخرج مغلقًا الباب خلفه.
جلس يوناس يفكر في جملة چواد الأخيرة، والتي نطق بها بثقةٍ وغرورٍ لا مثيل لهما، وحاول أن يسرح بخياله وهو ينظر للبذلتين الواقيتين، وفجأة فُتح الباب لتظهر هذه المرة ويندا.
نهض يوناس مسرعًا واحتضنها طويلًا، ثم ما لبث أن قال لها:

- كدت أن أموت من الرعب عليك يا حبيبتي؛ فقد كان من المفترض أن تأتي أسرع من هذا.

قالت ويندا وهي ما زالت بين ذراعيه:

- لقد تسللت للقصر بالفعل منذ مدة، وكنت في طريقي إليك عندما لمحت چواد يدلف إلى جناحنا، فانتظرت في إحدى غرف القصر المجاورة حتى سمعت صوت فتح الباب وغلقه ووَقْع خطواته تبتعد.

ثم أردفت قائلةً:

- كان لا بد أن أتأكد من أنه لن يراني خارج غرفتي حتى لا يشك في شيء؛ خاصةً وهو يعلم أنني ملازمةٌ الفراش لمرضي هذه الأيام و...

وهنا توقفت فجأة عن التحدث، وانسلت من بين ذراعيه وهي تتجه ناحية البذلتين الموضوعتين على أحد المقاعد، وأخذت تتحسسهما قائلةً باندهاش:

- ما هذا؟!

فجذبها يوناس من يدها برفقٍ إلى الغرفة الداخلية وقصَّ عليها ما حدث، ثم أخرج جهاز اتصاله ودق على يزن، وعندئذ جاءه صوت الأخير قائلًا:

- هل وصلت ويندا بعد؟

قال يوناس:

- نعم.

ثم استطرد قائلًا:

- إن چواد لا ينفك يؤكد على ضرورة ارتداء تلك البذل الواقية غدًا، فهل لديك تفسير لهذا؟

فقال له يزن:

- إن الأمور قد تطورت بشكلٍ خطيرٍ جدًّا، ولا يوجد لدي وقت كافٍ للشرح الآن.

وقال قبل أن ينهي الاتصال سريعًا:

- انتظر مني مكالمةً هامةً جدًّا غدًا يا يوناس.
التفت الأخير لويندا قائلًا:
- لم أعهد يزن بهذا التوتر الشديد من قبل.
قالت له ويندا:
- أنا مقدرة لحالته تلك، فأنت لم ترَ ما يحدث على تلك الجزيرة، إن چواد يخطط حقًا لشيءٍ كبيرٍ جدًّا هذه المرة.
- بالرغم من عجزي عن الوصول لإجابات، إلا أنه بات عندي شعورٌ عميقٌ بأن ما سيحدث غدًا أكبر من چواد ومن التحالف ومن المقاومة.
- أنا لا افهم ما تقول، ما معنى كلامك هذا؟
- معناه يا ويندا أننا غدًا لن نحتاج إلى إجابات، لأنه حينها لن يكون للأسئلة معنى.

***

وفي مقر المقاومة، كانت الساعة قد تخطت الثانية بعد منتصف الليل، عندما انتهي يزن من مراجعة الخطة مع عناصر المقاومة بقاعة التدريب، فقال لهم:
- والآن لنحاول أن ننال قسطًا من الراحة لأن الانطلاق سيكون باكرًا.
وبينما يهم تيام بالتحرك للعودة لغرفته، استوقفه يزن قائلًا:
- سيكون من الخطورةِ الذهاب بمفردك لتحرير ريتال، لذا ستتوجه معي بعد نجاحكم في المهمة لنمضي إلى قصر الحكم في أرابيتا، وبعدما تتضح الأمور سأرسل معك بعض عناصر المقاومة إلى أورشاليا لتحريرها كما وعدتك.
لم يعقب تيام، ولكنه أومأ برأسه إيجابًا وانطلق إلى غرفته.

***

التشفير

وفي الجزيرة، وعند الساعة الخامسة صباحًا، حطَّت طائرة چواد، الذي نزل منها ليجد راسل في استقباله قائلًا:

- كل شيء جاهز، وأنت أول من حضر من الحكام.

وعلى الفور توجها إلى التل وصعدا إلى الطابق الأعلى حيث غرفة التشفير.

قابل چواد أحد المهندسين المسئولين عن التشفير، والذي قام بمراجعة خطوات العملية معه بدقة، ثم دلف چواد بمفرده إلى الغرفة، وبعد حوالي عشرة دقائق خرج قائلًا:

- حسنًا لقد تم التشفير.

ونظر إلى راسل قائلًا:

- هيا بنا.

قال له راسل بينما يتحركان نحو المصعد:

- أرى أن تنتظر وصول حاكمي أورشاليا وكروسلاند.

ثم أردف قائلًا:

- لا سيما وهما على وشك الوصول.

رد چواد قائلًا على مضض:

- حسنًا، سنقابلهما عند مدرج هبوط الطائرات.

وصل المصعد إلى الأرض، وبمجرد خروجهما منه قال چواد:

- اسبقني أنت إلى مدرج الطائرات.

ومن ثم توجه هو لتفقد الموكب الذي سينقل الجزيئات.

نظر حوله ثم اقترب من أحد الضباط مخرجًا من جيبه صورةً تعمَّد أن يريه إياها جيدًا، دون أن يلاحظ أحدٌ شيئًا مما يحدث، ونظر في عينيه بحدةٍ دون ينبس ببنت شفة، ثم ما لبث أن تراجع عائدًا إلى راسل.

وبعدها بدقائق وصل الحاكمان، فاستقبلهما چواد وتحدث معهما قليلًا، ليتركهما بعد ذلك ويصعد مع راسل إلى الطائرة التي انطلقت بهما في سرعةٍ شديدةٍ عائدة إلى القصر.

وصلت الطائرة لمهبطها في القصر بعد ساعة، أي في تمامِ السادسةِ والنصف.

وبسرعةٍ نزل منها چواد وراسل متوجهين مباشرةً إلى المعمل الكائن بالقصر.

انتظر راسل بالخارج، بينما دلف چواد بمفرده ليقوم بتشفير عبوتين من جزيئات النانو بنفس الشفرة التي استخدمها في الجزيرة، وبعد انتهائه خرج حاملًا إياهما بحذرٍ شديدٍ إلى قائد القوات الخاصة، والذي توجه في الحال فور استلامها مع فرقته إلى السيارات، التي انطلقت بهم على الفور إلى نقطة التمركز.

***

المروحية

وعلى الجزيرة، كان حاكمي أورشاليا وكروسلاند قد أنهيا تشفير جزيئاتهما، فعادا إلى مملكتيهما ليختبئا في الغرف العازلة.

وفي تمام الساعةِ السابعةِ والنصف، كان قد تم الانتهاء من إعداد موكب الجزيئات، وبدأ في التحرك مغادرًا الجزيرة على العبَّارة التي ستنقله إلى البر، ليمضي بعد ذلك في طريقه إلى قاعدة الإطلاق.

وكان الموكب يتألف من ثلاث سيارات، كل سيارةٍ بها ثلاثة ضباط، وترافقهم طائرةٌ مروحيةٌ حربيةٌ لتقوم بالتغطية جوًا والتدخل لحماية الموكب من أي خطر، وبالطبع

الإبلاغ الفوري عند رؤية أي أمر غير طبيعي قد يحدث، على طول الطريق إلى القاعدة العسكرية.

وكانت العناصر المشاركة في تأمين الموكب، سواءً التسعة ضباط أو قائد المروحية، من قوات التحالف المشتركة، والتي من المفترض أن تعمل بحياديةٍ لحساب الثلاث ممالك.

وحيث إن تلك المروحية هي العائق الوحيد أمام چواد في تنفيذ خطته كما أخبره راسل؛ لأنه يستحيل الاشتباك معها جوًا دون لفت الأنظار، فقد أمر دايمون بتتبع أسرة قائد المروحية لاختطافها واستخدامها كأداةٍ للضغط عليه.

وبالفعل وضع دايمون الخطة المحكمة لذلك، وكان على وشك إطلاع چواد عليها قبل أن يرديه الأخير قتيلًا.

وبسبب تقديم موعد الإطلاق، فقد تم تنفيذ خطة الاختطاف ليلة أمس، وتم الاتصال بقائد المروحية والتشديد عليه بعدم التدخل أو الابلاغ عن أي شيء قد يحدث للموكب وهو في طريقه للقاعدة العسكرية، وإلا فستكون عائلته في خطر محدق.

وبالطبع لم يفت چواد التأكيد على هذا التهديد لقائد المروحية قبيل مغادرته للجزيرة صباح اليوم حتى يضمن تنفيذه للاتفاق.

***

التمركز

وقبل ذلك وفي مقر المقاومة، استيقظ عناصر المهمة في تمام الساعة السادسة صباحًا، ورغم أن أغلبهم لم ينم إلا ساعتين أو ثلاثة؛ إلا إنهم كانوا يتحركون في نشاط عجيب. استقلوا سيارتين انطلقتا بهم في السادسة والنصف، وشقتا الطريق بسرعةٍ عالية رغم وعورته الشديدة، لأنه وبالرغم من كونهم أقرب لنقطة التمركز؛ إلا إنهم كانوا يسابقون الزمن ليضمنوا وصولهم قبل قوات چواد، التي ستقِلُّها سياراتٍ حديثةٍ جدًّا كما أوضح لهم راسل في ورقته.

وبعد ساعة ونصف تقريبًا وصلوا لأقرب مكانٍ ممكنٍ من نقطة التمركز، فأخفوا السيارتين جيدًا، ثم ترجلوا منهما يقودهم يولاند ماضين إلى قلب الغابة.

وفي تمام الساعة الثامنة والنصف كان كل منهم مرتديًا قناعه ومتخذًا مكانه حسب الخطة، مترقبين قدوم قوات چواد.

***

على جذع شجرة

وعند الساعة التاسعة وخمسٍ وأربعين دقيقة، سمع يولاند ورجاله المتمركزون جيدًا خلف الأشجار صوت سياراتٍ تقترب.

ثم توقف الصوت تمامًا، لتظهر بعد دقائق قوات چواد المكونة من عشرة أفراد، استطاع يولاند من مكمنه أن يحدد بينهم شخصًا وحيدًا يرتدي البذلة الواقية بالفعل، ويحمل معه جهازًا لم يستطع أن يحدد كنهه، وتوقع أن يكون مهندس الاتصالات الذي سيقوم

بالتشويش على إشارات الاتصال في المنطقة، ومن ثم تأكد أنه سيكون عقبةً أمامهم لأن بذلته ستمنع وصول الغاز المخدر له.

وبعد برهةٍ لمح يولاند أحدهم يتحدث بشيء، وقد فهم بعدها أن هذا هو قائد الفرقة، عندما وجد بعض الأفراد يستجيبون سريعًا لأوامره، فيقومون بمساعدة مهندس الاتصالات في تسلق جذع شجرةٍ متينٍ ليستقر عليه ويبدأ في عمله.

وخلال دقائق انتهى المهندس من تشويش الاتصالات بمحيط المنطقة، وأعطى إشارةً لقائد القوات بذلك.

وقبل أن تبدأ قوات چواد بالتمركز، أطلق يولاند صفيرًا متفقًا عليه، قذفت على إثره ثلاث قنابل، لتنفجر مخرجةً دخانًا كثيفًا وسط قوات چواد، الذين سقطوا جميعهم أرضًا بلا حراكٍ فور استنشاقهم للغاز المخدر، وقد غابوا عن الوعي تمامًا.

وهنا انطلقت عناصر المقاومة، وفي سرعةٍ وثبات قاموا بتقييد وتكميم عناصر قوات چواد جيدًا.

ثم نظر يولاند إلى جذع الشجرة فلم يجد مهندس الاتصالات في مكانه.

وبينما يهم بالتسلق، عله يعثر عليه مختبئًا بين طيات الشجرة، أتاه صوت المهندس الذي فهم على الفور ما يدور حوله قائلًا:

- لو تحركتَ خطوةً واحدةً فسوف أبدأ بإطلاق الرصاص من مسدسي، وقد نزعت عنه كاتم الصوت بالفعل، وبكل تأكيدٍ سيصل صدى طلقاته جليًا للقاعدة العسكرية القريبة من هنا، وأنت تعرف ماذا سيحدث بعد ذلك.

فتسمر يولاند في مكانه ورفع يده إشارة إلى عناصر المقاومة بملازمة أماكنهم، وهنا تحركت أغصان الشجرة، ليظهر المهندس وقد انتقل إلى جذعٍ أعلى ممسكًا بمسدسٍ ومعلقًا جهازًا على كتفه.

تحدث تيام الذي كان يقف خلف يولاند فقال هامسًا:

- سأصعد بسرعةٍ وأهُزُّ جذع الشجرة، فيختل توازنه ويسقط أرضًا.

فقال له يولاند بصوت منخفض دون أن يلتفت إليه:

- فلتبق مكانك يا تيام؛ فلو حدث وانطلقت رصاصةٌ واحدةٌ من مسدسه، فسوف يمتلئ المكان بقوات التحالف في دقائق.

وهنا قام أحد رجال المقاومة (وكان يقف في نقطة عمياء بالنسبة للمهندس) بالتحدث ليولاند بلغة الإشارة قائلًا ما معناه:

- سنحاول خداعه ومراوغته، بينما تقوم أنت بقنصه بالبندقية الكاتمة للصوت.

همَّ يولاند بالرد، ولكنه توقف محدقًا في الرجل الذي سقط أمامه بصورة فجائية، وقد خففت البذلة الواقية كثيرًا من أثر ارتطامه بالأرض، فقام عناصر المقاومة بتقييده في الحال، ونظر يولاند ليجد تيام يهبط في رشاقةٍ قائلًا:

- انتهى الأمر.

ثم أطاح بالمسدس الذي انتزعه من يد المهندس بعيدًا بشيء من الاستخفاف، وقال مادًا يده الأخرى ملوحًا:

- وها هو جهازه.

قال له يولاند غاضبًا:

- كيف تصرفت من نفسك هكذا يا تيام، ماذا دهاك؟

لقد كدت أن تفسد المهمة كلها بسبب تهورك هذا.

وهنا قاطعه مهندس الاتصالات قائلًا:

- أعتقد أن خطتكم ستفشل بالفعل؛ لأن الخائن الذي مرر إليكم خطتنا لم يطلعكم على أهم جزءٍ فيها.

ثم أردف وهو ينظر للجهاز الذي بيد تيام:

- صحيح أنني قمت بالتشويش على الاتصالات في المنطقة ولن يتم إرسال أو استقبال أية إشارة، ولكن يوجد ترددٌ واحد ما زال يعمل، ولا أحد يعرفه سواي، وينتظر چواد منه رسالة طمأنة على سير العملية كل ثلاثين دقيقة، مضت منهم الآن بالفعل خمسة دقائق.

ثم عاد يتحدث وقد بدا عليه الهياج الشديد، فصاح قائلًا:

- هل ظننتم بالفعل أنكم قادرون على خداع حاكمنا چواد؟

إنه حاكمٌ قدير، ويقف وراءه مجموعةٌ من أذكى العلماء والمفكرين، الذين كرَّسوا حياتهم وعلمهم من أجل تحقيق حلمه في بناءِ حضارةٍ عظيمة.

وهنا بدأت الأمطار تنهمر بشدة، فأردف قائلًا بتحدٍ وبصوتٍ مرتفع:

- ألا ترون السلام الذي نعيش فيه؟ يكفي أنه لم ترتكب أية جرائم في عهده.

رد عليه أحد عناصر المقاومة قائلًا بانفعال:

- هذا لأننا نعيش في ظل جريمةٍ كبرى.

أخذ تيام يتحرك مجيئًا وذهابًا بعصبيةٍ شديدة، وكان الجميع في حالة ارتباك.

فعاد المهندس يتحدث بلهجةٍ يشوبها العناد قائلًا:

- أعرف ما تفكرون فيه الآن، وأؤكد لكم أنني أفضل الموت على إرسال تلك الرسالة.

وهنا كانت الرياح الشديدة التي بدأت تهب في المنطقة، قد أزالت تمامًا أثر الغاز المخدر الذي أطلقته القنابل، فنزع يولاند قناعه وبدأ بالتحدث إليه قائلًا:

- أرجو أن تسمعني جيدًا، ولك مطلق الحرية بعدها في اتخاذ ما تراه صحيحًا، وأعدك ألا يمسّك أحد بسوء مهما كان قرارك.

كانت كلمات يولاند تخرج منه رويدًا رويدًا، فهدأ المهندس قليلًا، فعاد يولاند يقول:

- أعلم ما تفكر به الآن.

ثم أردف قائلًا:

ـ أنت في هذه اللحظة تضع احتمالات كثيرة ومنها ان يكون هذا اختبار من اختبارات چواد التي ينتقي بها رجاله المقربين.

وأعلم أن حذرك هذا الذي عشت به طوال حياتك، لا ينبع من خوفك على نفسك فقط؛ بل على عائلتك أيضًا، لكن تأكد تمامًا أنك إذا ساعدتنا فلن تعيش خائفًا بعد الآن أبدًا.

ومال برأسه مركزًا في عينيه ثم قال:

ـ وستخلع عنك أخيرًا هذا القناع الزائف لتعيش حرًا.

وهنا رعدت السماء بقوةٍ مضفيةً على الأحداث شيئًا من الرهبة، فاعتدل يولاند آخذا نفسًا عميقًا، ثم استطرد قائلًا:

ـ تأكد أنني متفهم لكل ما فعلتَه من أجل نجاتك، هذه غريزةٌ طبيعيةٌ فينا؛ بل إن المشكلة كلها بدأت عندما خالفنا سنن الطبيعة.

ثم أردف قائلًا:

ـ وإرادة الإنسان من إرادة الطبيعة، شيء لا نستطيع أن نوقفه أو نتخلص منه، لكن يمكن تهذيبه وتوجيهه بالمعرفة السليمة والعلم النافع، وليس كما فعل علماؤكم، عندما ابتكروا المصل الأول، فحولوا الشعب لخرافٍ مستكينة؛ مما أدى إلى حدوث ظاهرةٍ أشد فتكًا ودمارًا، ظاهرة تسمي چواد.

كان المهندس يستمع إليه باندهاشٍ شديد؛ فلم يكن يتخيل أبدًا أنه يومًا ما سيسمع أحدًا يتجاسر على قول الحقيقة هكذا، الحقيقة التي يعرفها جيدًا ولكنه لم يجرؤ على أن يفكر فيها مرةً ولو بينه وبين نفسه، حتى ظن أنه قد نسيها.

وكأن مشاعره قد كسرت كل قيود الحذر التي قيدتها طويلًا، فأرادت أن تخرج دفعة واحدة في تلك اللحظة معبرة عن نفسها بجرأة، ولكنه حبس دموعه بمشقةٍ وما لبث أن تمالك نفسه، ثم عاد يقول ليولاند:

ـ مهما يكن ما تقوله، فأنا...

وتنهد تنهيدةً قوية ثم عاد يقول:

- أنا أفضل أن أظل في الفئة التي ستحكم المملكة مع چواد، لا سيما وعائلتي أيضًا ستصبح من الآمنين؛ فقد تم إرسال بذلٍ واقيةٍ لهم جميعًا، فلماذا إذًا أعرِّضهم وأعرض نفسي للخطر، ألا ترون بأنفسكم كيف يساعده أقوى وأنبغ الرجال عن قناعةٍ تامة، وتريدون مني أنا أن أستسلم؟

قاطعه تيام بسرعةٍ قائلًا:

- هل تعرف من سرَّب إلينا خطة چواد كلها؟

ولم ينتظر منه إجابةً بل عقَّب سريعًا قائلًا:

- إنه دكتور راسل، رئيس البعثة العلمية على تلك الجزيرة، وأحد أولئك الذين تتحدث عنهم، ولكنه راجع نفسه في اللحظات الأخيرة؛ فقد تعافي من المرض...

وهنا عاد يولاند يقول للمهندس:

- نعم، إن چواد هو المرض، هو الفيروس الذي أصاب أرواحًا كثيرة فولَّد داخلها هذا الإحساس بالتميز، الإحساس الذي لعب عليه دومًا وغذَّاه في كثيرٍ ممن حوله، والذي يدفعهم نحو التعالي، ويجبرهم على الانتقاص من حق الآخرين في الوجود، وازدرائهم بكل السبل.

وعاد ينظر في عيني المهندس قائلًا بحزم:

- إن أصعب لحظةٍ هي لحظةُ التحرر، فلا تستسلم؛ لأنك بعدها سترى وتعي، ويظهر النور داخلك، في إحساسٍ أيضًا، ولكنه حقيقي، أخلاقي،

والأهم.. أنه إنساني.

وهنا أشار لعناصر المقاومة، فقاموا بفك وثاق المهندس، ثم قال له:

- لك مطلق الحرية إن أردت أن تذهب، أو إن قررت مساعدتنا بإرسال تلك الرسالة لچواد.

نظر المهندس إلى جميع عناصر المقاومة.

كانت عيونهم تشع نورًا وصدقًا، رغم قسوتهم في التعامل معه ومع قوات چواد قبل قليل.

ثم وجَّه ناظريه إلى يولاند، فشعر وكأن كلماته لم تزل تَفِد من كل أرضٍ وصوب، كسيولٍ عارمةٍ تتجمع مندفعة لتصدم روحه ليستفيق.

وهنا اعتصرته لحظة ألم أربكته بشدة، فشعر وكأن روحه تولد من جديد،

تولد من رحم هذه اللحظة،

إنها لحظة الحقيقة.

لحظة تخبره كم كان غافلًا،

كم كان ميتًا.

وها هو الآن يحيا.

فعاد يقلِّب ناظريه بينهم، وقد بات يعرف الآن كم هو مدينٌ لهم ومقصرٌ في حقهم،

ثم انفجرت داخله صرخةٌ مدوية؛ فقد كان هناك حملٌ شعر به طوال حياته، ثانيةً بعد ثانية.. وأخيرًا انزاح عن كتفيه، فقام واقفًا فجأةً بخفةٍ ونشاط عجيبين، ونظر في ساعته، وبخطواتٍ سريعةٍ اتجه نحو جهازه الذي كان بحوزة تيام، فاختطفه من يده قائلًا:

- لا بد من طمأنة چواد؛ فقد مر أكثر من نصف ساعة على الرسالة الأولى.

قال هذا وقام على الفور بإرسال الرسالة، ثم قام بتعليق الجهاز على إحدى جذوع الأشجار مرةً ثانية لضمان عمله بكفاءةٍ تامة، ثم نظر حوله قائلًا:

- من الجيد أن الأمطار قد بدأت تخف كثيرًا.

وأردف قائلًا وهو يتجه نحو حقيبةٍ كبيرة:

- فهذا يعني أن جهاز إحداث الضباب هذا سيعمل بشكلٍ جيدٍ للغاية.

وقام بتشغيله، ثم فتح حقيبةً أخرى وأخرج منها عبوتي الجزيئات الخاصتين بچواد، ورفع أحد الأحجار المنتشرة في المكان ثم أسقطه بعزم قوته على العبوتين فتهشمتا تمامًا،

والتفت إلى يولاند قائلًا:

- والآن لا بد أن يتمركز رجالك جيدًا؛ فلم يبق سوى دقائق على مرور سيارات الموكب.

***

رصاصة

وعند الساعة الحادية عشرة إلا عشر دقائق، كان موكب الجزيئات يبطئ من تحركه، حتى توقفت سياراته الثلاث عن الحركة؛ بسبب وجود ضبابٍ كثيفٍ حجب الرؤية أمامهم تمامًا.

كان يولاند يقبع خلف إحدى الصخور، بينما تمركز بعض عناصر المقاومة في قلب الضباب، والبعض الآخر بين الأشجار.

وعندما نزل ضابطان من أول سيارة لتبين مدى عمق الضباب وتأثيره على حركة الموكب، قام تيام وأحد عناصر المقاومة بالتعامل معهما في صمت، فنزل الضابط الثالث وهو ممسكٌ بجهاز اتصاله، محاولًا التحدث مع قائد المروحية المرافقة ليستطلع له أمر هذا الضباب، فلم يجد أية إشارة، فأخذ ينظر حوله، ولمَّا لم يجد زميليه انتابه القلق وتوجه سريعًا إلى السيارتين الأخرتين.

وبعد لحظاتٍ نزل حراس الموكب جميعًا من السيارات في محاولة للتكهن بحقيقة ما يحدث، متلفتين في كل اتجاه بحثًا عن هذين الحارسين اللذين اختفيا فجأة، وفي تلك اللحظة باغتتهم عناصر المقاومة مشتبكين معهم بحذرٍ شديد، لكيلا تخرج أية رصاصةٍ طائشةٍ منهم.

واستطاع أحد الحراس أن يفلت، وكاد يهرب لولا أنَّ يولاند أسقطه أرضًا على الفور برصاصةٍ من بندقيته القناصة الكاتمة للصوت.

وأثناء الاشتباك نجح حارسٌ آخر في التخلص من قبضة عناصر المقاومة، وأطلق رصاصةً قبل أن يتمكنوا من السيطرة عليه مرة أخرى.

وكادت هذه الرصاصة أن تودي بالمهمة للفشل، لولا أن أحد عناصر المقاومة والذي كان قريبًا من هذا الحارس، تصرف بشجاعةٍ منقطعة النظير، فلف يده على فوهة المسدس بسرعةٍ شديدةٍ وبفدائيةٍ عالية، قبل أن يضغط الحارس على الزناد، فنجح في تخفيف حدة صوت الطلقة إلى حدٍ كبير، ولكنه قد أصيب بجروحٍ بالغة؛ فقد مزَّقت الرصاصة يده لتعبر خلالها، محدثةً ثقبًا بالإطار الخارجي للسيارة الثانية للموكب.

وعقب انتهاء الاشتباك الذي لم يدم سوى بضع دقائق، قام رجال المقاومةِ بسحب حرَّاس الموكب إلى الغابة، وبعد تخدير من بقي منهم على قيد الحياة، قاموا بتكميمهم وتقييدهم جيدًا.

وقف يولاند (أثناء تحميل عبوات جزيئات النانو المضادة الخاصة بهم وتبديلها مكان العبوات الخاصة بالتحالف) ينظر متأملًا في قلقٍ شديدٍ إلى ثقب السيارة الثانية، والتي تخص مملكة كروسلاند، ثم ما لبث أن قال:

- سأكون في الفرقة التي ستقود هذه السيارة إلى القاعدة العسكرية.

فتحدث أحد عناصر المقاومة قائلًا:

- ولكن من المفترض أن تنتظرنا هنا ريثما نعود.

قال يولاند مشيرًا إلى الرجل المصاب:

- هذا البطل لن يستطيع إكمال المهمة بحالته تلك، ولا بد من وجود ثلاثة حراس في كل سيارة، ولا يوجد غيري لتغطية العدد.

وهمَّ المهندس بقول شيء، ولكنه توقف عندما سمع يولاند يكمل قائلًا:

- ولا بد للمهندس أن يبقى هنا لينفذ دوره الذي لا يقل أهميةً عن دورنا.

نظر رجال المقاومة إلى بعضهم البعض بحزنٍ شديد؛ فهم يعلمون أنه لا مجال للاعتراض.

وهنا تحدث أحد عناصر المقاومة ويدعى (إيثان) قائلًا ليولاند:

- دعني أكون في فريقك.

وطلب تيام ذلك أيضًا.

وبعد أن تأكد المهندس من إحكام إغلاق البذل الواقية على كل فرد منهم، أخذ يولاند يشرح له الدور المنوط به، وعندما انتهى الأخير قال له المهندس:

- لقد سمعت قائد القوات الخاصة في الطائرة يؤكد الخطة على جنوده، قائلًا لهم أن كل سيارةٍ ستنطلق لمنصة الإطلاق الخاصة بصاروخ مملكتها موزعة كالآتي..

وأشار إلى أول سيارة في الموكب قائلًا:

- هذه خاصةٌ بمملكة أورشاليا، وستنطلق في اتجاه اليسار بعد المرور من بوابة القاعدة، تليها سيارة مملكة كروسلاند، وستمضي في خط مستقيم، في طريقٍ طويلٍ نوعًا ما ومسافةٍ أبعد من السيارتين الأخرتين، حتى تصل لمنصة الإطلاق؛ بينما ستنعطف السيارة الثالثة والخاصة بمملكة أرابيتا يمينًا بعد دخول القاعدة، وبعدها سيقوم فريق كل سيارة بتركيب العبوة في الصاروخ وإعطاء إشارة بدء الإطلاق للضابط المسئول في كل منصة.

ثم استطرد قائلًا وهو يتجه إلى جهازه:

- والآن حان موعد رسالة طمأنة چواد.

***

متى نفيق؟!

وفي الطريق إلى القاعدة العسكرية تحدث تيام إلى يولاند قائلًا:

- لقد كان فعلي متهورًا وآسف جدًّا لأنني أغضبتك، ولكنني لم أتمالك نفسي حينها.

نظر له يولاند مبتسمًا وقال:

- لا عليك.

ثم أردف قائلًا:

- أحيانًا تأتي أفضل النتائج من الأفعال الغير مخطط لها بالمرة.

ابتسم تيام بارتياحٍ ثم قال:

- إن المعلومات التي وصلتنا عن القاعدة العسكرية، والتي بنينا عليها خطتنا، تكاد تكون مطابقةً لوصف المهندس.

قال يولاند:

- لقد غامر أحد الضباط الموالين للمقاومة أمس بإرسال تلك المعلومات إلينا، في مهمة كادت أن تكشف حقيقته وتُعرِّضه للخطر.

كان تيام ينظر ليولاند بإعجابٍ شديدٍ ولا يريد أن يتوقف حواره معه، فعاد يقول:

- لقد كنت واثقًا من أنك ستنجح في آخر الأمر مع المهندس.

رد يولاند قائلًا:

- أما أنا فكنت أخشى أن يداهمنا الوقت، ولم أكن متأكدًا من ردة فعله، وكل ما فعلته أنني حاولت بكل السبل أن أريه كم كان تائهًا.

ثم التفت إليه وأردف بنبرةٍ جادةٍ قائلًا:

- فالإنسان يفيق وقتما يشعر بأنه تائه.

قال تيام:

- لكنني أعتقد أنه كان يعلم جيدًا أنه في الجانب المظلم.

فقال يولاند:

- المعرفة وحدها لا تكفي، وإنما الإدراك الإيجابي هو الذي يحثك على المضي في الاتجاه الصحيح؛ فهو وإن كان يعرف أنه في الجانب الخطأ، إلا أنه أيضًا كان يعتبر مقاومة هذا الجانب أمرًا محفوفًا بالمخاطر وغير صحيحٍ في نظره.

ثم أردف قائلًا:

- كان في اعتقاده أن كلا الجانبين شر، وكان دومًا يفضل الشر الذي يعرفه.

وأنهى كلامه قائلًا بتأثر:

- كما هو الحال عند أغلب الناس.

وعند تلك اللحظة كان الموكب يقترب من بوابات ضخمة فتحت ببطء لاستقباله، ومضت كل سيارة إلى وجهتها.

***

الصاروخ الثالث

وصلت السيارة التي تحمل فريق يولاند إلى منصة مملكة كروسلاند، والتي لم يتواجد بها إلا الضابط المسئول عن إطلاق الصاروخ.

وهنا قال يولاند:

- ابقيا أنتما بالسيارة، وعند رؤيتكما للصاروخ ينطلق استعدا؛ فسوف أدلف سريعًا لنتحرك على الفور.

ثم أخرج عبوة جزيئات النانو المضادة من صندوقها، ونزل من السيارة متوجهًا نحو الصاروخ.

كان الضابط المسئول عن الإطلاق جالسًا أمام جهازٍ كبيرٍ يمرر يده على بعض الأزرار استعدادًا للضغط على زر الإطلاق الأخير.

انتهى يولاند من تركيب العبوَّة في الصاروخ، ثم توجه ناحية الضابط الذي لم يكن يبعد عنه سوى بضعة أمتارٍ قائلًا له:

- متى سينطلق؟

التفت إليه الضابط متحدثًا فقال:

- بعد دقيقتين سأقوم بالضغط هنا ليبدأ في الإقلاع.

وأشار إلى أحد الأزرار أمامه. قال له يولاند:

- حسنًا.

وبينما يعدِّل الضابط من جلسته، عاد ينظر إلى السيارة؛ فقد لمح شيئًا استرعى انتباهه أثناء التفاته للتحدث مع يولاند، وحينها وقع نظره على الثقبِ الحادثِ في إطارها الخارجي، فنظر إلى الأخير بريبة وقد بدا له أن شيئًا غريبًا يحدث.

وعلى الفور أمر الضابط يولاند بخلع قناع بذلته، وعندما رفض الأخير بحجة أن هذا مخالف للأوامر؛ قام الضابط بالضغط على أحد الأزرار أمامه.

ففهم يولاند على الفور أن الضابط قد أطلق إنذارًا صامتًا لاستدعاء مجموعة من القوات إلى المنصة، فقام يولاند بسرعةٍ ومهارةٍ بضرب الضابطِ في منطقةٍ معينةٍ من رأسه، ليسقط الأخير أرضًا فاقدًا للوعي.

وبسرعةٍ ترجَّل كل من تيام وإيثان من السيارة ليفهما ما يحدث.

وهنا سُمع صوت انطلاق أول صاروخ، ثم تلاه الثاني مباشرةً، فقال لهما يولاند:

- هذا جيد، لم يبق سوى صاروخ مملكة كروسلاند.

وفي تلك اللحظة، إذ بمجموعة جنود تدخل حيِّز المنصة من بعيد متوجهين نحوهم بسرعة، فعاد يولاند يقول:

- يجب أن تجذبا هؤلاء الجنود إليكما بالسيارة لتعرقلا وصولهم إلى هنا، ريثما أضغط على الزر الأخير وأتأكد من انطلاق الصاروخ بنفسي.

قال له تيام:

- اركب أنت السيارة، وقل لي أي زرٍ أضغط عليه لينطلق الصاروخ وسأفعل.

قال له يولاند بتصميم:

- لن أخبرك يا تيام.

ثم أشار لإيثان إشارةً فهمها الأخير على الفور، والتي كانت تعني بوضوح: اهربا الآن ولا تعودا أو تنظرا خلفكما حتى.

فأومأ إيثان برأسه في حزن وعاد للسيارة.

وفي تلك اللحظة تحدث يولاند بصرامةٍ قائلًا لتيام:

- هيا اذهب معه، وسأكون بخير.

هيا لم يبق سوى دقيقة على الإطلاق،

هيا يا تيام، إنني أرى النصر أمامي، ألمسه الآن بيدي، وها قد وصل قطار كفاحنا لمحطته الأخيرة.

ولاحت على وجهه ابتسامةٌ مشرقةٌ وهو يقول بتأثرٍ بالغ:

- ولا ينبغي للأحرار أن يخافوا من محطتهم الأخيرة عندما يصلون إليها يا بني.

لم يجد تيام بدًا من التحرك، فدلف إلى السيارة التي انطلقت في التو بسرعةٍ شديدة.

وبالفعل فقد جذبت السيارة المجموعة القتالية التي كانت تقترب من يولاند، فتوقفوا في منتصف طريقهم، وبدءوا بإطلاق النار ناحيتها؛ مما أعطى للأخير بعض الوقت.

ولكن سريعًا ما عدَّل إيثان اتجاه السيارة، لتنطلق مباشرةً خارجةً من منطقة الإطلاق،

فقال له تيام مستغربًا:

- لماذا لم تعد لتناورهم وتقطع عليهم الطريق مرةً ثانية قبل أن يصلوا إلى يولاند؟

قال له إيثان بلهجةٍ توكيدية:

- لم يعد هناك مجال للعودة يا تيام.

وسكت قليلًا ثم أردف قائلًا:

- فقد أمرني يولاند بالابتعاد قدر المستطاع، حتى نستطيع الهروب من تلك القاعدة قبل أن تنظم القوات صفوفها، فيصبح الخروج منها مستحيلًا.

نظر تيام من الزجاج الخلفي للسيارة ثم ما لبث أن صاح قائلًا:

- إنهم يمطرونه بالرصاص، دعنا نعد لننقذه الآن.

كان إيثان من أقدم عناصر المقاومة الذين خاضوا تدريباتٍ كثيرةٍ على يد يولاند، وكان يُكنُّ له محبةً كبيرةً ويعرف قدره جيدًا، إلا أن إشارة يولاند الأخيرة له لم تكن تعني إلا شيئًا وحدًا، وهو أن الأمر انتهى.

فقال بصوت مرتفع لتيام:

- قلت لك لا مجال للعودة.

ثم استعاد هدوءه قائلًا:

- إن عودتنا تعني أن ثلاثتنا سيلقون حتفهم، في حين أن يولاند يستطيع وحده إنجاز المهمة، بينما سنكون نحن قد قطعنا أكثر من نصف الطريق للهروب من هذه القاعدة العسكرية، وأي تأخيرٍ ولو لثوانٍ ليس في صالحنا.

وأردف قائلًا:

- لقد حَسَب يولاند كلَّ هذا قبل أن يعطيني الإشارة بالانسحاب يا تيام.

وهنا حانت من تيام التفاتة أخيرة إلى حيث كان يقف يولاند، فاستطاع تمييز جسده من بعيدٍ وهو ينتفض من أثر الرصاصات التي يتلقاها مستبسلًا، فصرخ قائلًا:

- يولاند، لا!

وانهمر باكيًا بشدة، بينما انطلق إيثان مبتعدًا بأقصى سرعة، دون أن يلتفت لصيحات تيام الذي انهار بجانبه، وهو يدق بغضبٍ على مقدمة السيارة، متفوهًا بكلمات لم يميزها ومعاتبًا إياه بشدة.

وفجأة سُمع صوت انفجارٍ عنيف؛ فقد انطلق الصاروخ الثالث.
وهناك كان يولاند قد لفظ أنفاسه الأخيرة ويده على زر الإطلاق، وكأنه كان مصممًا على أن يحلق بروحه مع الصاروخ في السماء، ليحمل الخلاص الحقيقي من الاستعباد، وينتشر نوره مع انتشار الجزيئات، ليُرجع للناس إرادتهم المسلوبة؛ فيختاروا بأنفسهم الحبَّ كما ظل طوال حياته يؤكد ويصر.
هذا ما عاش من أجله، ومات بطلًا في سبيل تحقيقه.
تعلقت عينا تيام بالصاروخ وهو يشق طريقه لعنان السماء، فبدا وكأنه يودع يولاند للمرة الأخيرة.
وسرعان ما استعاد رباطة جأشه، فأخذ نفسًا عميقًا واعتذر لإيثان الذي كان يجلس بجانبه في ثباتٍ واضح، فقال له الأخير:
- لا عليك.
ثم زاد من سرعته؛ فقد بدأت تتحرك من ورائهما سيارات كثيرة، وتعالت أصوات الإنذارات في المكان، وسادت حالةٌ من الهياج الشديد.
وفي هذه اللحظة ظهرت السيارتان الأخرتان في نهاية الطريق، وقد سبقتا سيارة تيام وإيثان، واستطاعتا تفجير جزءٍ من الباب العملاق للقاعدة العسكرية، باستخدام بعض القنابل اليدوية المتطورة شديدة الانفجار.
وكانت قوات مملكتي أورشاليا وكروسلاند هي التي استجابت للنفير؛ بينما ظلت قوات مملكة أرابيتا ساكنةً على نحو غريب، وكأنها لا ترى أو تسمع شيئًا مما يجري حولها، رغم تمركزها جيدًا في كافة أرجاء القاعدة العسكرية، وخاصةً حول بواباتها، حيث صدرت لهم أوامر سرية من چواد صباح هذا اليوم، بتسهيل دخول وخروج سيارات الموكب، وعدم التعرض لهم بأي حال من الأحوال، وهذا ما يسر مهمة الهروب على عناصر المقاومة إلى حد كبير.

لتخرج الثلاث سيارات معًا مسرعةً في طريقها للهرب، تتبعهم بعض السيارات الحربية التي تعلوها مدافع قوية تمطرهم بعشرات الطلقات، ولولا أن سيارات الموكب لها هيكل داخلي مصفحٌ تصفيحًا شديدًا، لتدمرت عن بكرة أبيها في الحال.

وبمجرد عودة السيارات الثلاث إلى نقطة التمركز، قام مهندس الاتصالات بتفجير الألغام التي وضعها على جانبي الطريق، لتسقط عدة أشجار وتتهدم أجزاء من الطريق، فتعيق عبور أية مركبةٍ خلفهم.

وعلى الفور قفز كل من المهندس ورجل المقاومة المصاب إلى إحدى السيارات، لينطلقوا بعدها بسرعةٍ عائدين من نفس الطريق الجانبي الضيق الذي قدموا منه.

مضت السيارات في طريقها تخفيها الأشجار العملاقة تمامًا عن طائرة الهليكوبتر، التي انطلقت من القاعدة العسكرية في محاولة لتتبعها.

***

وأثناء ذلك وفي الحجرة المحصَّنة التي تم تشييدها أسفل القصر، جاءت رسالة لچواد من مهندس الاتصالات، مفادها أن العملية قد نجحت وقد انطلقت الصواريخ بالفعل، ولكن تم كشف أمر الفرقة المنفذة، وأنهم الآن يهربون بسيارات الموكب، وسيختبئون في الغابة ريثما تهدأ الأجواء، فلاحت من عينيه نظرة سعادةٍ وانتصارٍ لا مثيل لها.

وفي تلك اللحظة نزل أحد الضباط إلى الغرفة المحصنة وأبلغ چواد بخصوص ما حدث في القاعدة العسكرية، ولكنَّ الأخير ظل واثقًا مطمئنًا وأمره بالانصراف، ليقوم على الفور بالتواصل مع القوات التي جهزها لتحرير ريتال، معطيًا إياهم الأمر بالتحرك في الحال لاستعادتها من مملكة أورشاليا، ثم استدار إلى راسل وأمسكه من كتفيه وأخذ يهزه فرحًا وهو يقول:

- لقد خدعتهم جميعًا وانتصرت عليهم، وقريبًا سأذيقهم بأسي وعقابي يا راسل.
وأخذ ينظر إلى أجهزة التحكم ممنيًا نفسه بالسلطة العظيمة التي ستكون بين يديه خلال ساعات.
رغم كل هذا فقد راود راسل شعورٌ ملحٌ استحوذ عليه بشكل غريب، وهو أن تلك الصواريخ التي انطلقت لم تكن تحمل سوى الجزيئات المضادة التي ابتكرها أستاذه چافيد؛
لذا فقد جلس متفائلًا سعيدًا، بأن الحرية قد باتت قاب قوسين أو أدنى من تحققها، لكل الشعوب التي عانت طويلًا من حكم التحالف.

***

يولاند

وعند مقر المقاومة وصلت السيارات ونزل الجميع منها، وهنا فُتح الباب الأرضي وصعد منه مجموعةٌ كبيرةٌ من رجال المقاومة، يتقدمهم يزن ممسكًا بذراع دكتور غادي، الذي هتف قائلًا عندما رأى تيام:
- تيام، لقد نجحنا، أليس كذلك؟
فقال الأخير:
- نجحنا يا غادي، وانتهى كل شيء.
نظر يزن حوله باحثًا عن يولاند فلم يجده، ففهم على الفور وتنهد بعمقٍ ثم قال لتيام بتأثر بالغ:
- هل كان موجودًا لحظة انطلاق الصواريخ وعرف أننا انتصرنا؟
فحكى له تيام ما حدث في اللحظات الأخيرة، فقال يزن وكأنه يعاتب نفسه:

- كيف أسأل مثل هذا السؤال عن يولاند العظيم؟!

ثم أردف قائلًا:

- لقد عرف يولاند النصر قبلنا؛ فعاش دومًا بروحه الشجاعة ووعيه الصافي الجميل الذي كان يشع حبًا وجمالًا لينير حياة كل من حوله.

ثم خانته دموعه التي لاحظها الجميع، فسكتوا موجهين أنظارهم نحوه، وقدا بدا انه سيتفوه بشيءٍ ما، وهنا أخذ يزن نفسًا عميقًا وتحدث بصوت جَهْوَرِيٍّ قائلًا:

- لقد كان بطلًا وتحلى بأخلاق الفرسان حتى النهاية، وأبى إلا أن يطلق الصاروخ الثالث بنفسه، وكأنه أراد بضغطه على هذا الزر أن يرى ويتأكد ويشعر بنفسه، بتلك اللحظة التي ينتهي فيها عصر الظلمة، ليبدأ عهدٌ جديد، عهد النور، عهد الحرية.. الحرية التي عاش من أجلها، ومات سعيدًا بتحققها.

ونظر لهم مبتسمًا رغم دموعه المنهمرة وقال:

- وكأنني أرى يولاند الآن وهو يبتسم ابتسامته الجميلة، باعثًا في عروقي شعورًا بالنصر المحقق، وأملا لا ينقطع في حب الحياة.

لقد انتصرنا يا رفاق.

انتصرنا.

فامتزجت دموع رجال المقاومة بابتسامةٍ جميلةٍ بشكل تلقائي وعفوي في لحظةٍ مؤثرة، وبعد برهة أشار لهم يزن بركوب السيارات التي تراصَّت حول مقر المقاومة، للتوجه إلى الثلاث ممالك والانضمام إلى زملائهم، للسيطرة على وسائل إعلام التحالف وتنظيم صفوف الشعوب، في يوم الثورة والتحرر الذي انتظروه طويلًا، حيث كانت جزيئات النانو المضادة في تلك اللحظات قد بدأت في الانتشار بالفعل، وأزالت تمامًا أية آثار للمصل، فأيقظت عقول الشعوب وأحيت فيها الإرادة من جديد، ولا بد من تواجد المقاومة لاستثمار تلك اللحظة للإطاحة بحكم التحالف مرةً واحدة، لينتهي اليوم كل شيء.

***

أجهزة التحكم

وفي الحجرة المحصنة جلس چواد متوترًا وقد مضى قرابة الخمس ساعات على انفجار الصواريخ في سماء الممالك، وأجهزة التحكم والإرسال التي أمامه لم تعطِ له أية إشارة استجابة من أي فرد، فصاح غاضبًا في وجه راسل:

- جد لي حلًا الآن، ألم تخبرني مرارًا أنه خلال ثلاث ساعات ستبدأ تلك الجزيئات في العمل؟

قال راسل بمكرٍ شديد:

- يبدو أنه شيء متعلق بالإرسال والاستقبال.

فقال له چواد بغضب بالغ:

- لا تنفك تعطيني الحجج طوال الوقت، حسنًا لنرى صحة كلامك هذه المرة.

وفتح چواد باب الحجرة ونادى بأعلى صوته، يطلب حضور المهندسين، الذين نزلوا إليه مسرعين، فباغت چواد أحدهم ممسكًا بذراعه بعنف، وقال له وهو يشده إلى داخل الحجرة:

- لماذا لا تظهر تلك الإشارات التي أخبرتموني بأنها ستظهر بعد أن تنتشر الجزيئات؟

ثم أردف سريعًا قائلًا بحدة:

- أصلح هذه المشكلة الآن.

وصوب إليه السلاح مهددًا، فقال له المهندس خائفًا:

- حسنًا، سأفعل. سأفعل.

وجلس وكأنه يعمل، بينما في الواقع كان يحاول مماطلته، ولكن چواد لم ينتظر أكثر من دقيقتين، ثم أرداه قتيلًا أمام أعين زملائه، الذين هربوا جميعًا فور رؤيتهم لما حدث، فلاحقهم الأخير برصاصاته بشكلٍ جنوني، فاخترقت البذل الواقية لعددٍ منهم ومن الضباط الذين كانوا يحرسون مدخل الحجرة من الأعلى، وأصابتهم بإصابات بالغة.

عاد چواد إلى الحجرة المحصنة (التي سالت فيها دماء المهندس المطروح أرضًا بغزارة) يتحدث بنبرةٍ يائسةٍ قائلًا:

- ماذا أفعل يا راسل؟

وقبل أن يرد عليه الأخير، ظهر يوناس الذي نزل مسرعًا وفتح باب الحجرة قائلًا:

- ماذا حدث؟

قال چواد:

- لا شيء.

ثم أردف قائلًا بسرعة:

- هل عادت ريتال مع القوات؟ إنهم لا يردون على محاولاتي المستمرة للاتصال بهم.

قال يوناس:

- لا، لم يعودوا بعد، ولكن أحدهم طمأنني بأنهم قد وصلوا إليها قبل قليل، وسيعودون قريبًا.

ثم أردف قائلًا:

- حشود الناس تتجمع حول القصر، وفي جميع أنحاء المملكة يا چواد، والقوات تتراجع، والكثير منها قد هرب بالفعل أمام هتافات تلك الأعداد الغفيرة من أفراد الشعب.

وحتى هنا في القصر، فالحراس يهربون تباعًا.

ثم استطرد يقول له معاتبًا:

- ألم أنصحك بمحاولة تغيير ما يحدث وإصلاح الأمور، ألم أحذرك من أن الشعب ينتظر اللحظة الحاسمة؟

ها هي قد حانت الآن، ولا بد أن تعترف بهذا.

فقال چواد وهو يضحك ضحكة هستيرية:

- ماذا تقول يا يوناس؟! أنت لا تعلم شيئًا، كل هذا سينتهي قريبًا، وسأعيد السيطرة عليهم جميعًا بعد أن تعمل فيهم جزيئات النانو.

ثم توقف عن الضحك فجأةً على نحو غريب وعاد يقول:

- انتظر أنت بالأعلى، وأرسل أحدًا لكي يخرج تلك الجثة من هنا.

فنظر له يوناس مشفقًا، ثم صعد للقصر منتظرًا يزن لينظر في الأمر، وكان قد تلقى اتصالًا من الأخير شرح له خلاله كل شيء.

***

الثورة

وفي تلك الأثناء وعلى مشارف عاصمة مملكة أرابيتا، وصلت سيارتان تحملان كلًا من يزن وغادي وتيام، وبعض عناصر المقاومة، وقد اتخذوا الطريق السريع المباشر نظرًا لعدم وجود خوف من القدوم خلاله، بعد أن انسحبت كل تمركزات القوات منه وأخلته تمامًا.

وعلى امتداد البصر، كان الناس يتجمعون في أعدادٍ كبيرة، وكأن الحياة قد أعطتهم قُبلتها؛ فاستيقظوا بنشاطٍ بعد سباتٍ طويل.

وكانت عناصر المقاومة قد انتشرت بينهم لتجميعهم وتوحيد هتافاتهم.

كانت معظم التجمعات تتجه إلى الميدان الرئيسي، بينما قصدت بعض الأعداد القنوات الإعلامية وقصر الحكم واحتشدت هناك، وهؤلاء ممن تخلصت أجسادهم من آثار المصل منذ فترة وأثَّر فيهم كلام ريتال في الميدان قبل اختطافها؛ ففهموا حجم المؤامرة التي دبرت لهم، وظلوا ينتظرون تلك اللحظة لينقضوا على چواد وأجهزته الإعلامية مرةً واحدة.

وها هم الآن يحققون غايتهم ويسيرون جنبًا إلى جنبٍ مع عدد من عناصر المقاومة، التي فوجئت بهم وبوحدتهم وتنظيمهم المبهر، والذي حدث فجأة مع اندلاع الأحداث.

لم يكن أحد من هؤلاء الثائرين قد خطط لهذا أو وضع جدولًا زمنيًا للتحرك مع غيره، ولكنهم قد مروا بنفس الظروف القاسية، وذاقوا مرار الظلم، وطالتهم نيران مؤامرةٍ خسيسة، مؤامرة ظلت رحاها تدور مع الزمن، فبدأت بإظهار الاختلافات بينهم وبتفريقهم عن بعضهم، حتى انتهت بإبعادهم حتى عن أنفسهم وأرواحهم، فانتفضوا يدافعون عن إنسانيتهم.

كان كل شيء عفويًا وطاهرًا.

في لحظةِ تحررٍ صَهَرَتْهُم جميعًا في بوتقةٍ واحدة، وكأن هناك خيطٌ من نورٍ يمتد عبر أرواحهم ليربط مصائرهم.

وفي السيارة أخرج يزن جهاز الاتصال وتحدث مع عناصر المقاومة في الثلاث ممالك، وأكَّد على رجاله في مملكة أرابيتا بمنع الحشود قدر المستطاع من اقتحام قصر چواد، خوفًا على حياة يوناس وويندا ود. راسل، محاولين إقناعهم بأن هناك خطرٌ من دخول القصر بحُجة أنهم لا يعلمون ما يخبئه چواد لهم، وأن ينتظروا ريثما يستطيعون إخراجه دون سقوط ضحايا.

وبعد قليل توقفت السيارتان، ونزلوا منها ليشقوا طريقهم إلى القصر بين الحشود.

وكأن جموع الثوار بهتافاتهم وراياتهم، كشمسٍ أذابت الجليد، وتغلغلت لعمق غابات وجدانهم بومضاتٍ نورانيةٍ عجيبة، فمضوا وكأنه مع كل خطوة في طريقهم للقصر، تتساقط عنهم رمالٌ كثيفة، رمال أثقلت أقدامهم عمرًا طويلًا وأعاقتهم كثيرًا.

كانت لحظةً تاريخيةً لهم عندما التحموا بموجات الثائرين، فبدا لهم وكأنها تارةً تتحرك إليهم بسرعة، وتارةً أخرى تجذبهم نحوها بقوة.

كانت لحظةً خياليةً شعروا فيها أن الزمن توقف، وأنهم أشخاص آخرين تمامًا..

وكأنهم أرواحٌ عاشت هنا من قبل، أرواحٌ خالدة،

وكأن كل ذرةٍ في أجسادهم تأخذ طابعًا جديدًا.

كانوا سعداء تمامًا، ومستسلمين تمامًا.

لقد كان للشمس اسمٌ آخر،

والناس والشوارع والعالم في هيئة أخرى.

كان هناك شيءٌ جميلٌ يُنسج بإبداعٍ بين الجموع،

تشعر به في عيونهم كبزوغ الفجر.

إنها لحظةُ صفاءٍ ونورٍ لا حدود لهما.

إنها الثورة.

فصاح تيام قائلًا وقد اقتربوا من القصر:

- انظر يا غادي،

ها هي الثورة.

ها هي تولد أمام أعيننا.

الثورة التي تعرف طريقها،

ولا يقدر أحدٌ على إيقافها.

وكأنها تصرخ داخل الناس صرخاتٍ قوية،

فتشعل شظيةً داخلهم تحثهم على انتزاع حريتهم.
نعم، فالحياة عندما تقسو علينا، فهي تريد أن تعلمنا درسًا هامًا وغاليًا
وهو أن الحرية لا تعطى؛
بل تنتزع انتزاعًا.

***

على سلالم القصر

وعلى أبواب القصر، استقبل عناصر المقاومة يزن ومن معه مرحبين فرحين، ومن ثم أخبروه بأن يسرع في اتخاذ اللازم بشأن چواد؛ لأن الحشود تريد أن تهجم على القصر لتفتك به وبمن معه.
فاتصل يزن بيوناس، وقبل أن يتحدث وجد الأخير يقول له بانفعال:
- أسرع يا يزن، أين أنتم؟ لقد انهار چواد وقتل عددًا كبيرًا من الأشخاص وهو ما زال ينتظر أن يعمل جهازه، معتقدًا أنه سيتحكم بالناس من خلاله.
قال له يزن:
- نحن أمام باب القصر.
ثم أردف قائلًا:
- كيف حال د. راسل؟
قال له يوناس وهو يلهث من العدو، وقد وصل لبوابة القصر بالفعل حينها:
- لقد فعلت كما قلت لي، وكذبت عليه بشأن تحدثي مع القوات التي أرسلها لإنقاذ ريتال وذلك لكي يبقي على حياة د. راسل.
وفي هذه اللحظة فُتح باب القصر وظهر يوناس.

احتضنه يزن بشدةٍ وأعينهما مغروقة بالدموع قائلًا:

- لقد انتصرنا يا يوناس.

انظر، ها هم قد أفاقوا ونهضوا مطالبين بحقهم.

وقف تيام بجانب غادي ينظر إلى الناس فرحًا باستيقاظهم وعودة حريتهم إليهم، ثم التفت إليه مبتسمًا وشدَّ على يده وكأنه يذكره بكل ما لاقوه سويًا، ويشكره على مساندته له في الوصول لهذه اللحظة العظيمة، ثم ما لبث أن قال له:

- والآن بقي أمر أخير.

قال له غادي:

- ستراها اليوم يا صديقي.

***

دخلوا إلى القصر بصحبة يوناس، وعلى سلالم القصر استوقفهم تيام قائلًا:

- لقد مضى أكثر من ست ساعات، ولم تعد القوات التي أرسلت لإحضار ريتال بعد.

ونظر إلى يزن ويوناس وأردف قائلًا:

- يجب أن أذهب الآن.

قال له يوناس:

- حسنًا يا تيام.

وأشار لأحد ضباطه، فتوجه مع تيام إلى سطح القصر من سلم خارجي، وتبعهما ثلاثة آخرون من عناصر المقاومة.

وهنا نادى غادي على تيام قائلًا:

- تيام، لقد كنَّا معًا في كل شيء.

ثم تحامل على نفسه وهم بالتقدم نحوه وهو يقول:

- دعني أذهب معك هذا المرة أيضًا.

التفت له تيام قائلًا:

- لا تخف عليَّ يا غادي فقد مضى عهد الخوف.

ثم أردف قائلًا:

- لقد أحببتك كثيرًا يا صديقي، وأحببت رفقتك، الوداع يا غادي.

ومضى في طريقه صاعدًا.

***

الميزان

وبينما كانت طائرة تيام تقلع، في طريقها لمملكة أورشاليا، كان كل من يزن وغادي ويوناس في طريقهم إلى الحجرة المحصنة أسفل القصر.

قال يزن ليوناس:

- اسبقنا أنت وحاول أن تخرج د. راسل أولًا.

نزل يوناس إلى الحجرة، ليجد چواد يجيء ويذهب كالمجنون ناظرًا لأجهزة التحكم، فأشار لراسل دون أن يلاحظ چواد، ثم قال للأخير:

- إن القوات تقول أن ريتال ستصل قريبًا، ولا بد من صعود د. راسل لاستقبالها.

قال له چواد متشككًا وهو ينظر لجهاز الاتصال الذي يمسك به:

- ولكنني لم أتلق منهم أي اتصال، لماذا يخبرونك أنت أولًا؟!

وبعنفٍ أمسك راسل الذي كان يهم بالتحرك خارجًا.

وهنا ظهر يزن أمام الباب، ليقف الجميع وجهًا لوجه.

نظر چواد ليزن بتفحصٍ وهو لا يزال ممسكًا براسل، وقال بتردد:

- من أنت؟

نظر يزن في عينيه قائلًا:

- ألا تعرفني؟

وكان يزن يشبه أباه كثيرًا؛ فقال له چواد:

- أنا أشعر بالفعل أنني رأيتك من قبل، ولكنني لا أتذكر متى.

رد يزن قائلًا:

- سأذكِّرك.

وأردف قائلًا:

- في هذا القصر منذ أكثر من أربعة عشر عامًا، كان هناك رجلٌ مخلصٌ لحاكمه، أبى أن يتركه بمفرده يواجه مصيره، وقضى نحبه بشرفٍ مدافعًا عن الحق، الحق الذي اغتصبته أنت عنوة، مخلفًا بحورًا من الدماء، ولعنةً التصقت بك إلى الأبد.

قال چواد بانزعاج شديد:

- لا يمكن، أنت ابنه؟!

ولكن كيف، ولماذا أنت هنا الآن، ماذا يحدث؟!

فقال يزن:

- ألا تعلم ماذا يحدث، ألم تفهم بعد؟ لقد هزمت يا چواد.

نظر له چواد وقد استشاط غضبًا، وجن جنونه وأخذ يصرخ قائلًا:

- ماذا تقول؟

كلا، مستحيل، مستحيل.

فعاد يزن يقول:

- إن حجم الشر داخلك قد أعماك دومًا عن الرؤية الصحيحة، فكنت واثقًا بغرورٍ من ثبات خطواتك، ولم تكن تعلم أنك تهوي نحو فجوة بلا قرار، فجوة صنعتها بنفسك ووقعت فيها لتظل تبتلعك، ومن حينها وأنت تتدحرج إلى قاعها بسرعةٍ كبيرةٍ ككتلةٍ جوفاء صماء.

نظر چواد إلى يوناس مستعطفًا، فقال له الأخير بثبات وحزم:

- لقد حاربت الحياة والفطرة وأردت أن تغير طبيعة كل شيءٍ حولك حتى يخضع لك، وهذه هي نهاية أفعالك.

انه الميزان الذي أردت أن تطغى فيه، هو فقط يعود لوضعه الطبيعي.

وكل من تجرأ على العبث بهذا الميزان، ستكون نهايته بقدر ما تجرأ وطغى، هذا هو العدل يا چواد.

ثم أردف بصوتٍ جهْوَريٍ تردد صداه في أرجاء الحجرة:

- العدل الذي تركت طريقه واخترت نهجًا دمويًا مشوهًا، يعتمد على إرهاب كل من حولك وتحويلهم إلى مسوخ، مسوخ دميمة طمست فيها معالم الإنسانية، وجعلت من ضمائرهم قرابين، أرغمتهم على تقديمها إلى مذابحك التي بنيتها فوق جثث الأبرياء.

وهنا قال يزن بلهجةٍ آمرة:

- والآن اترك د. راسل ليخرج من الحجرة.

فصاح چواد بحدةٍ قائلًا:

- إنكم تكذبون، هذا حلم مزعج.

كلا، أنا لم أهزم، أنا...

أنا چواد، وسأحكم الممالك وسأسيطر على الجميع بذكائي وقوتي، ولا يوجد من يجرؤ على عصياني.

ثم تراجع بسرعةٍ مصوبًا مسدسه إلى رأس راسل وضغط على الزناد،

ولكن لم تخرج أي رصاصات؛ فقد نفدت جميعها.

وهنا حاول راسل الفكاك، فلكمه جواد لكمة قوية أبعدته عدة أمتار، فتلقفه يوناس وساعده على الخروج من الحجرة ليتلقاه غادي قائلًا:

- هيا يا راسل، فقد تحملت ما فيه الكفاية يا صديقي.

ثم أردف مازحًا وهما يصعدان درجات السلم متساندين:

- قل لي يا راسل، متى بدأت عَلاقة الحب تلك التي جمعتك بكل هذه اللكمات؟

خرجت من راسل ضحكةٌ متقطعة، شعر معها بألمٍ ولكنه ألمٌ لذيذٌ ممزوج براحةٍ عميقة، ثم قال:

- يبدو أن وجهي تعود على ذلك منذ لكمتك الأولى لي.

***

عديني أن تبقيا معي

وفي الحجرة المحصنة، وقف جواد أمام أجهزة البث والتحكم، والتي ظن أنها ستروي عطشه للسيطرة، ولكنها لم تسقه إلا لهيبًا، لهيبًا يصهره من الداخل؛ فأخذ يضرب بكل قوته على الأجهزة المنتشرة حوله ويحدثها بعصبية، وكأنه يلقي باللوم عليها، فيقول:

- اعملي، سيطري عليهم.

وكأن صمتها هو أقسى رد عليه، فراح يبعثرها يمينًا ويسارًا وهو يصيح هائجًا:

- أنا ما زلت المسيطر، أنا المتحكم في الجميع، ولن تعصى أوامري.

ثم وقع أرضًا من فرط هياجه وتعبه.

وبعد برهة نهض واقفًا، زائغ العينين، هائش الشعر، وقد تبدلت هيئته تمامًا، وتمزقت سترته الجلدية السوداء؛ فتطايرت منها تلك النياشين والأوسمة التي كانت تملؤها، وتلَطَّخ بنطاله الأبيض ببقعٍ حمراء كثيرة.

ثم انحنى وكأنه يتحدث مع طفلٍ صغيرٍ قائلًا:

- لم يدكِ دافئةً هكذا يا ريتال؟!

ورفع رأسه وكأنه يتحدث لشخصٍ ثانٍ في الحجرة قائلًا:

- أعرف أنك قلتِ لي مرارًا أن هذه طبيعة جسدها، وأن أطرافها تكون دافئةً دومًا، وأنه لا داعي لقلقي هذا، لكن يجب أن تعلمي يا زوجتي الجميلة أن وظيفتي هي أن أقلق عليكما؛ فأنتما نور حياتي.

أنت لا تتخيلين يا زوجتي الحبيبة مدى الوحشة التي تملأ كياني إذا ابتعدت عنكما لحظة، وصدقيني عندما أقول إن وجودكما يغلق داخلي باب شرٍ مستعر، لو فتح فلا أعرف إلى أين ستقودني الظلمة التي تقبع وراءه.

عديني أن تبقيا معي إلى الأبد يا حبيبتي.

عديني بألا تتركاني مهما حدث.

ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة بلهاء، وأمسك بشيء من بقايا الأجهزة المبعثرة أرضًا قائلًا:

- هيا يا ريتال نلعب سويًا، ريثما تحضِّر أمك لنا الطعام، هيا يا حبيبتي.

وقف كل من يزن ويوناس ينظران إليه بتأثر بالغٍ على ما وصل إليه حاله؛ بينما هو لم يعد يشعر بوجودهما على الإطلاق.

فغادرا مغلقين باب الحجرة خلفهما بهدوء.

***

واستمرت الحياة

خرج يزن متحدثًا للحشود المجتمعة حول القصر قائلًا:

- لقد أطلق علينا قنابله لكي يبث سمومه فينا من جديد، واختبأ في حجرته المحصنة، ولكننا نجونا جميعًا وهو الوحيد الذي أصابته سمومه.
وسيظل مسجونًا فيها، ليتذكر دومًا -إذا كان سيتذكر- لحظة ضياع حلمه البائس، ليكون عبرةً لكل من تسوّل له نفسه وتوهمه بأنه قادرٌ على طمس النور، نور الحرية والإرادة.
فبناء الحضارات لا يكون على حساب فطرتنا وطبيعتنا الإنسانية الجميلة.
لقد كانت حضارة الخوف من الموت، وليس استمرار الحياة،
وها قد انتهت حضارتهم،
واستمرت الحياة.

***

في النور

وفي أورشاليا، هبطت الطائرة التي تقل تيام، فنزل منها مع عناصر المقاومة، ماضين إلى السجن الذي تقبع فيه ريتال.
وعندما وصلوا وجدوا آثار معركةٍ قويةٍ دارت رحاها بين حراس السجن وقوات چواد.
واستقبلهم هناك بعض عناصر المقاومة من مملكة أورشاليا، وأخبروهم بأنهم حاولوا البحث عن ريتال في كل أرجاء القلعة التي أخبرهم يزن أنها مسجونة بها، فلم يجدوا لها أثرًا.
فتركهم تيام وقد راوده شعور بأنها لا زالت موجودة بإحدى غرف هذه القلعة.
دخل تيام إلى القلعة باحثًا في كل أرجائها، ثم بدأ يصعد درجات سلمها باحثًا عنها في كل طابق، حتى وصل للطابق الأخير، والذي كان يبدو كالمتاهةِ من كثرة طرقاته وأبوابه،

فأخذ يبحث في كل الغرف وينادي ولكن دون جدوى.

فشعر بالتعب وجلس أرضًا ليستريح قليلًا، ثم أخذ يدقق النظر حوله وقد بات تائهًا بشدة، وهنا تذكر كلمات يولاند عندما قال له أن "الإنسان يفيق وقتما يشعر بأنه تائه"، وفي تلك اللحظة جاءه صوتٌ من إحدى الغرف، أو هكذا شعر، فنهض وأخذ يسير ببطء باحثًا عن مصدر الصوت وقد ازدادت الظلمة حوله.

فنادى قائلًا:

- ريتال، ريتال، أين أنت؟

وهنا جاءه صوتها من إحدى الغرف، فأخذ يسير تجاهها، حتى اقترب ووقف أمام الباب، فقالت له ريتال:

- ادخل يا تيام.

وكررت آخر كلماتها قبل أن يفترقا، عندما قالت:

"سيفتح لك الباب يومًا يا تيام، فإن كنت صبرت حتى الوصول إليه، فالأولى لك أن تصبر حتى يفتح لك؛ فقد أوشكت أن تدخل".

وأخذت تردد:

- ادخل يا تيام.. ادخل.

وهنا فتح الباب لتيام، وإذا بغرفةٍ تحوي نورًا عظيمًا رهيبًا غشى بصره، فلم يستطع أن يحدد مكانها في الغرفة؛ حيث إن كلها نور.

وظلت هي تنادي عليه قائلةً:

- ادخل يا تيام.. ادخل.

كان صوتها هادئًا وعميقًا جدًّا ويأتي من بعيد، وكأنه ينبع من النور نفسه، وظلت تناديه:

- ادخل يا حبيبي، لقد وصلتَ وفُتح لك الباب.

ادخل لا تخف.

لقد تعبت كثيرًا يا تيام وآن لك أن ترتاح يا حبيبي.

ادخل فهنا مكانك.

ظل يستمع لصوتها العذب يتردد في الغرفة، ثم أخيرًا مد قدمه ليدخل.

ولما أصبح داخلها وجدها تتسع والنور يتسع معها، وقد تعودت عيناه على النور كأنه بات جزءًا منه، وحينها شعر براحةٍ لا توصف.

ووجد من حوله أناسًا هانئين ماضين في طريق يمتد أمامهم، وعلى وجوههم ابتسامة جميلة.

مدوا أيديهم إليه ليقترب، وأخذوا يفسحون له مكانًا بينهم ليسير معهم، فوقف لبرهةٍ حائرًا، ثم ما لبث أن تقدم إليهم، فوجد نفسه بجوار حبيبته ريتال،

يحضنهم النور الجميل.

فقالت له ريتال:

- هنيئًا لك يا حبيبي؛ فقد وجدتني ووجدت النور.

وأشارات إلى مكانٍ بعيدٍ وهمست له بحنانٍ قائلةً:

- من هنا سنبدأ حياةً جميلة، حياة هي الأصل، هي الحقيقة.. الحقيقة التي ظللت تبحث عنها طوال حياتك يا حبيبي.

***

الكانيولا!

وفي هذه اللحظة وفي إحدى مستشفيات القاهرة، كان الأطباء يزيلون الأجهزة المتصلة بجسد تيام، بعدما تأكدوا من أنه قد فارق الحياة.

وقد حاولوا قبل هذا بيومٍ إعادة تركيب (كانيولا) التغذية في يده أكثر من مرة، ولكنَّ جسده كان ينتفض بشدةٍ رافضًا دخول أي غذاء له، فأزالوا الكانيولا وقد تركت أثرًا واضحًا!
كان تيام في غيبوبة استمرت لعدة أسابيع؛ حيث كان ضحيةً ضمن ضحايا عديدين، لعملية تفجيرٍ إرهابية غادرة، وقد سبقته زوجته ريتال، التي لاقت حتفها في الحال وقت الحادث.
وكان يقف ساندًا على باب الغرفة غادي صديق تيام المقرب، والذي كان معه لحظة الانفجار ولكنه نجا بأعجوبة، وقد انهمرت دموعه في صمتٍ بلا توقف.
أما أمه، التي دومًا ما كانت تُرى جالسةً بجانب سريره تبكي بكاءً هادئًا، وتتحدث معه بصوتٍ ضعيفٍ جدًّا، من أثر الإرهاق والتعب لحزنها عليه، فقد كانت في هذه اللحظة في سكينةٍ تامة، وقد شعرت لوهلةٍ بجسد تيام وكأنه يشع نورًا وأن وجهه أصبح مضيئًا كالشمس.
حينها قال لها الأطباء مخففين عنها
- لقد ارتاح ابنك الآن.
فقالت لهم:
- أعلم هذا.
ثم اقتربت من تيام وقبَّلت جبينه قائلةً:
- هو في المكان الجميل الذي يستحقه، بجوار أحبائه من الطيبين أمثاله، ومع زوجته التي أحبها أكثر من نفسه.

***

إنها لغزٌ جميلٌ رحب

وبعد دفنه ورحيل المشيعين جميعًا، جلس غادي بجوار قبر تيام يتحدث إليه، وكأنه يفضفض معه كعهدهما في الأيام الخوالي.

وقال قبل أن ينهض مغادرًا:

- وداعًا يا صديقي.

وسار منسحبًا بهدوء حتى لا يزعج النائمين تحت التراب، وقد تملكته رهبةٌ عجيبةٌ حينها. وعندما خرج إلى الشارع، وقف برهةً مدققًا النظر في كل ما حوله من مبانٍ ممتدةٍ وأناس يروحون ويجيئون في عجل، فترددت في ذهنه كلمات تيام عندما كان يصف له الحياة قائلًا عنها:

- "إنها لغز جميل رحب،

فلا تحاول تضييقه بحلٍ واحد؛

فجمالها في كونها لغزًا.

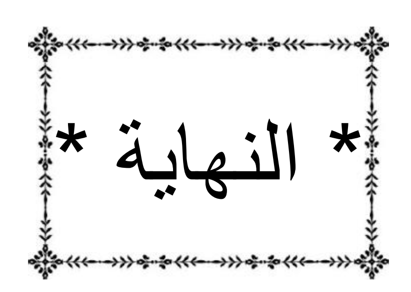
فقط عشه".

ودلف إلى سيارته ثم أدار مقطوعةً موسيقيةً لـ(ياني)، بعنوان: "حلم رجل واحد".

وقال وهو يبتسم:

- سأفتقدك كثيرًا يا تيام.

وأخذ نفسًا عميقًا ثم انطلق في طريقه.


* النهاية *